



دار البقعة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

چي ده مويان

حياة خاتون

تعاريف

سلسله عمون الادب العالمی

ابراهيم الحلو

حقوق الترجمة والطبع والنشر والاقتباس
محفوظة
لدار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر
دمشق - سورية



چي ده موپاسان



انطلقت جان تعدو فوق الثلج ... حافية القدمين

المقدمة

أجملنا في مقدمة كتاب «قوي كالموت» (١)، أحداث حياة الكاتب الكبير موباسان وألعبنا إلى صفات أدبه وخصائص فنه الرفيع، بيد أننا وجدنا أن تلك العجالة لم تف كاتبتنا حقته ولم تشبع في قارئنا نهمه إلى معرفة المزيد عن هذا المشعل الوضاء والشهاب الثاقب الذي التمع في سماء الأدب الغربي ردحاً من الزمن فكانت رسولا للفن أميناً وسراطاً للادباء مستقيماً.

* * *

وثب موباسان، وهو الموظف المغمور في وزارة البحرية، بفتة إلى القصة السامقة من التأليف الأدبي. وقدم، خلال عشر من السنين، إنتاجاً قيمياً في كميته كبيراً في كميته. فأدرك النجاح وانتقادت إليه الثروة... وكما كان مبالغاً في التمتع بنجمه كذلك غاص فجأة في دنيا اللاوعي وعالم الجنون.. فكان بحق نجماً التمتع زاهياً وضاءً ومرعاً ما خباواضه وحل وغداً تركه مدعياً!.

١ - قسمته من الحياة

ولد جي دي موباسان Guy de Maupassant في قصر الموظف «ميرومسنبيل» بنواحي (ديب) Dieppe ولكنه نشأ (١٨٥٠ - ١٨٨٠) وترعرع في (أتريتا) (٢) (Etreta) القريبة من القصر، حيث اعتكفت أمه بعد افتراقها عن زوجها، عاشت موباسان حياة طليقة من

(١) صدر عن دار البقعة العربية في سلسلة «عيون الأدب العالمي»

(٢) في هذه البلدة وضواحيها، وفي قصر شبيه بمسقط رأسه تدور حوادث «حياة صاخبة» وقد استوحاها، ولا جرم، من مرابع صباه، وبجالي طفولته.

كل قيد منفلة من كل غل كأنه المهر العربي في الملعب .

وانتبع في المدرسة الكهنوتية في (ايفيتو Yvetot) دراسة صارمة جدية ثم انتقل ، لاستكمال دراسته ، الى كلية (روان Rouen) فكان له من ولبه (لويس بويلهيت Louis Bouilhet) نعم المرشد النصوح كما شرع يمرسه بقرض الشعر وكتابة النثر فكان المعلم الأول .

وجاءت حرب ١٨٧٠ فكان على موباسان ان يخوض غمارها فأنخرط في « الحرس السيار » ولم يترك هذه الفرصة تفوته فكان يسجل ملاحظات قيمة كونه له ، فيما بعد ، زاداً ثراً غرّف منه قصور فأبدع .

ونزل باريس سنة ١٨٧١ فشغل وظيفة صغيرة في وزارة البحرية بيد انه لم يلبث ان تركها ليعمل في وزارة المعارف سنة ١٨٧٨ . وكان ، خلال وجوده في هذه الوظائف الحكومية ، يتأمل ، بكثير من السخرية ، زملاءه فيدرس طباعهم ويسجل نماذج بشرية متباينة شتى .

وشرع ، تحت اشراف غوستاف فلوبير (١) ، صديق امه منذ الطفولة ، شرع بأولى محاولاته ككاتب ادب . ولقد خطط له « مؤلف مدام بوفاري » سبيلاً بسيطاً واضح المعالم ليكون له منه هدى في مفاوز الحياة الادبية الوعرة المسالك . فكان لا يفتأ يردد على مسمعه :

« اعمل دائماً على السمو بطرفتك باحتكاكك المباشر بالواقع الذي هو ، دون سواء ، منبع كل جميل رائع طريف . احتقر الدعوى ، تجنب الحكم الاعباطي كفعل انصاف المثقفين ، فلتعلم ، قبل كل شيء ، ان الفن لا ينقاد الا اصابع جلد لا يعرف الوهن قلبه والمستحيل عزمه »

ومضى موباسان ، خلال سنوات سبع ، يقرض الشعر وينظم الملاحم (الجدار LeMur ، على شاطئ الماء Au Bord De L'Eau) او قطعاً تمثيلية قصيرة (حكايات

(١) روائي فرنسي ولد في روان ، دقيق الملاحظة ، واضي . رائحة ديباجته خلاب أسلوبه مخفف انتاؤه . كتب « مدام بوفاري » و « سالبو » ١٨٣٢ - ١٨٨١ .

الزمن الغابر (Histoires De vieux Temps) ثم عاف كل ذلك وانصرف الى كتابة
قصص قصار ابرزت مواهبه في الخلق والابداع .

كان فلوبير يسدد له خطاه فيصحح له كتاباته ويتحفظ بملاحظات كاتبه مجرب
بلا الفن فأصاب منه الشهرة وضرب بمكنوناته بسهم وافر .

اما كاتبنا الناشئ، فكانت يخلط بين جد الحياة وهوها فلا ينفك يحلم، هو
القوي البنيان المتين العضل، بنزهات في الهواء الطلق والتطواف والتشرد .. كان
به لى الحياة، في شتى مظاهرها، عطش لاغب، وشوق مقيم ..
ودهمته آلام القاب عام ١٨٧٦ فأورثته هزالا شديدا أدى به الى الوغول في
كتابة وسوداوية بعيندي القرار .

* * *

الشهاب ولج موباسان سماء الادب كالشهاب الناقب . فما ان
(١٨٨٠ - ١٨٩١) ظهرت القصة اللثيمة الجارحة « بول دي سويف Boul
De Suif » حتى ارتفعت اسمهم مؤلفها دفعة واحدة فبلغت السماء الأعزل .. وكان
بده الاشرار والتوهج (١٨٨٠) وبدأ ، بعد هذا التاريخ ، سيل دافق من روايع
المؤلفات بلغت حوالى ثلاثمائة قصة وست روايات .

١ - موباسان القصص : كان لنجاح « بول دي سويف » اليد الطولى في حمل
موباسان على الاندفاع في كتابة القصص القصير فبلغ بهذا الفن مرتبة تداني الكمال
وكان ينشر قصصه في الصحف اليومية قبل جمعها في كتب : « بيت تبلييه La maison
Tellier » ١٨٨١ « الأكنسة فيفي Mdemoiselle Fifi » ١٨٨٢ « قصص
بيكاسيا Les Contes de la Becasse » ١٨٨٣ « الاخوات روندولي Les Sœurs
Rondoli » ١٨٨٤ .

ولافت هذه القصص نجاحاً عز له نظير فكان منها للقراء متعة بالغة وحياة داخرة
بالرغاب المتوثبة والعنف الشديد الا ان تأثير اميل زولا وغوستاف فلوبير كان
ظاهراً في بعضها .

وكتب « ليڤنت Yvette » و« مس هاريت Miss Harlette » سنة ١٨٨٤ فكان لها الوقع المدوي في الاوساط الادبية الوخيمة . وفي « قصص الليل والنهار Comtes Du Jour et De la Nuit » و« الهورلا Le Horla » أبرز موباسان الى اللبان طرافة فنه وتخلص من كل تأثير خارجي فكان يستعين بكرويات طفولته لتصوير اهل الريف كما عوفهم في مسقط رأسه .

٣- الروائي : آنت موباسان الثروة في ركاب المجد فقام برحلات عديدة واختلط بالجمع الزافي فانسج خياله واكتسبت ملاحظاته قوة ونفاذاً . وشرع منذ ١٨٨٥ بانتاج الطويل من الروايات دون ان ينصرف عن القصص القصيرة فكتب عام ١٨٨٣ الكتاب الذي نضمه الآن بين يديك « حياة صاخبة (١) Une Vie Emouvante » فكان قبلة شديدة الدوي ، خاطفة اللسان ، وقف النقاد منها مشدوهين لا يعرفون من اين ينفذون الى نقاط الضعف فيها وما افلها !

رواية قوية في اكل ما فيها : فكانت صورة مثالية لحب مثالي حمله قلب شاب فعصفت به زعازع الحياة فصوحت واحة آماله وانهارت صروح امانيه وتبعثرت وغائبه في مهب كل ريح ! وكانت مجالا لقلم بليغ وفكر ثاقب يصور فيها طبائع البشر بلومها وخسنا وكرمها وتسامحها وحماها وبغضا وخيانتها وتمسكها باذيال العفاف .. انها حياة ! حياة مصفرة لكل ما في الكون من بدوات ونزوات ! انها حياة ماثرة ماثجة . وما اصدقها من صورة للواقع الحلي لا زيف فيها ولا تمويه !

وفي الفترة عينها انحف كاتبنا الأدب برواية ثانية لا تقل عن الاولى روعة وجمالا : « الصديق الجليل Bel Ami » ثم « مونت أورول Mont Oriol » سنة ١٨٨٧ وتلا ذلك رواية ذات شهرة عالمية « بيير وجان Pierre et Jean » وجاءت اخيراً رواية انفس فيها كاتبنا الكبير في عالم التحليل النفسي العميق فصور لنا قلباً ولا كالغلوب قلباً مخلصاً في حبه سامياً في تفكيره رفيعاً متوقفاً .. وأوقعه في حب بل حنين : بين الأم والبنات فكان بين حجري رحي ... فعز كتمبثا لما حني سحقتة سحقتاً .. انها رواية « قوي كالموت Fort comme La Mort » .. وختم موباسان هذه (١) نشرت هذا الكتاب بعض دور النشر تحت عنوان « حياة » Une Vie لا تقبل التنويه .

المجموعة الرائعة برواية « قلبنا-Notre Cœur » سنة ١٩٨٠ فكانت مسك الحزام لهذه الروايات التي أوضحت تطوره الفكري ولطهرت فلتور موهبته الكبرى في التصوير والتحليل .

ثم انطوى الكاتب الكبير على نفسه فتعاشى جهد طاقته الاحتكاك بالمالم الحاربي ليخلو الى دراساته ويستكمل نضوج لفكره .
وخلال فترة الانطواء هذه نشر موباسان ثلاثة كتب صور فيها انطباعاته أثناء رحلته : « في الشمس Au Soleil » ١٨٨٤ و « فوق الماء Sur L'Eau » ١٨٨٨ و « الحياة الشاردة La Vie Errante » .

* * *

الكاتب الملتاث بدأت صحة موباسان بالتقهقر فهي تسير من سيء الى أسوأ فبالإضافة الى مرضه العصبي دمه اختلال في النظر واضطراب في الدورة الدموية الامر الذي ضاعف حاله المرضية وزادها خطورة ، وبلغت القوّة من كاتبتنا غايتها حوالي سنة ١٨٩١ فقد أصيب باضطراب قواء العفوية ثم تفاقم امره حتى غرق في جنون مطبق [١] استمر ثمانية عشر شهراً قضى في نهايتها في بصفة الدكتور بلانش .

* * *

٣ - طرائف موباسان

١ - التشاؤم

لقد عبر موباسان في ما كتب عن ذلك التشاؤم الملعاع الذي يكاثرت يلزمه فيبدو له في كل مظهر من مظاهر الوجود .



[١] تزعم بعض المراجع الادبية ان جنون موباسان كان يتأثر مرض الزهري الذي أصيب به في فجر شبابه بينما تنفي مراجع اخرى هذا الزعم وترجع سبب لونه الى مرض وراثي بدليل ان اخاه هيرفي « قد أصيب بالداء ايضاً » .

لار جاء انكر مو باسان كل ما يمكن ان يوحى للانسان بالامل والرجاء . وقد فات ، في هذا المضمار ، استاذة فلوبيير الذي كان يؤمن بالبن ، على الأقل ، معزياً وملاذاً . ومو باسان اشبه في وجهة نظره هذه ، بشوبنهاور Schopenhauer (١) الذي قال عنه : انه ا كبر غاز للفكر عرفته الكرة الارضية ! ، ومو باسان ينفي عن الانسان كل عبقرية لأن الانسان ليس سوى حيوان لا يكاد يفوق غيره من السوائم الا قليلاً . فنحن لانعرف شيئاً ، ولا نخدس بشيء ، ولا يتسع خيالنا لشيء ! ، ومو باسان ينفي العناية الالهية لان « الله يجهل ما يعمل ! » وهو لا يؤمن بالفلسفة تحل المشاكل وتخرج من الأزمات لأنها « تفسر الاشياء التي يستعصي علينا حلها تفسيراً غريباً في سخفه تافهاً في قيمته » ولا يؤمن كاتبنا بالعلم ! « فالعلم يتعطم دائماً على صخرة المجهول ويقتناثر تحت كل كوكب ! » ومن لا يعتقد « بعناية الهمية » لا يرى في الدين سوى « مغالطة وأكذوبة كبرى » اما الحياة الاجتماعية فما هي الا « ركام مشاهد مربعة سداها حماقات خالدة ولحمتها دفاعة متناهية في بشاعتها وانانية لثيمة في اثرتها » ويقتج عن كل ذلك ان « الصلات التي تشد بعض البشر الى بعضهم الآخر » ليست سوى « نفاق محبب وتمويه مفر » .

* * *

التعبير عن اليأس لقد أضفت هذه الفلسفة الواضحة الخطوط على مؤلفات مو باسان صفة لا تخلو من نصيب من التناقض الظاهري الا اننا نلمس فيها صلة وثيقة بحالته الصحية والعقلية فلانراها اصيلة في نفسه الجميلة الهبة الجمال .

• • •

الكاتب الساخر لقد عبر مو باسان عن تشاؤمه في « بيت تباليه » و « الآنسة فيني » باهجة ساخرة بما يذكر ك باساناذه فلوبيير . ونحن نجد مو باسان يجهد في سبر اغوار دناءة النفوس وحطتها بروح انتقامية ساخرة يضم منها الخطوط فيخرجها كاريكاتورية بارزة فكأنه موتور يتلذذ بالتشهير .

• • •

« ١ » فيلسوف الماني ولد في دتريخ صاحب نظريات شهيرة عن الارادة والنشأ « ١٧٨٨ - ١٨٦٠ »

... فاذا ما ساءت صحته مال الى الابتعاد عن السخريّة
المكاتب العطوف ليجنو على الشقاء الانساني عطوفاً فبأسو الجراح ويقبل
المراثي فهو يقدم لنا ، في مثل هذه الفترات القانطة ، صور بورجوازيين سذج سريحي
الايان الا انه لا يتسلى على حسابهم « السيد باران » وكذلك قل عن شديد اشفاقه
على العوانس وحياتهن المريرة فهو لا ينفك يبرز لنا صوراً واضحة المعالم عنهن « مس
هاريت » كما انه لم يحمل المرضى والشييوخ والمشردين .

* * *

ولقد سبب له استفحال علته وإكثاره من تناول الادوية
المكاتب السوداءي . والعقاير حالات سوداوية مستمرة تميج فيه آلاماً نفسية
وجسدية ممزقة . وكثيرة هي قصصه التي صورت حالات من خوف هائل فكانت
يحلل الاوهام الخرفاء التي تستبد أحياناً بالنفوس المضطربة فترتعش كما لو كان ثمة ما
يهددها « الخوف » فكان يخرج لنا صور أشخاص عصبي المزاج يرهبون الضجيج
ويفرقون من الوحدة ويخشون الليل « الرؤى » او شخصيات مدخولة مقتنعة بأن
مخلوقاً غير مرئي يسكن منازلها ويشند في ايذانه لها « المورلا » .
ان في كل قصصه ، ما خلا أقلها ، ما يعبر بصورة فاجعة عن الملح القلق الذي
كان يحايط نفس موباسان امام الآتي المجهول .

* * *

٣ - فنه

ان موباسان مدين بخلوده لمواهبه الفنية الرفيعة . وعلو كعبه في مضمار الفن
راجع لمراس طويل وجلد لا ين وصبر عظيم في معالجة الكتابة والتأليف :

...

بالرغم من عداوة موباسان لكل طريقة موضوعية فقد عرف
الافكار الجمالية كيف يحدد نظراته الى الجمال في مقدمة « بيبير وجان » .
ان التعلق بالجمال نزعة طبيعية أصيلة في مظاهرها وبدوانها عند كاتبنا ، ونتيجة

ز -

لذوق شديد للثقة بالغ الارهاق الامر الذي كان ، قبل موباسان ، شديد الشحوب .
في المدرسة الواقعية .

«نقالواقع» (١) Réalisme ، يقدم لنا مظاهر شتى بينها الكثير من الغث
فيأتي الفن ليتدخل فيقدم لنا خلاصة الواقع . ولا يقدم لنا سوى « الحقيقة المصطفاة»
القوية التعبير . ومن هنا يترب على الروائي والقاص استبعاد كل ما لا جدوى منه
فلا يخرج الى النور الا ما اتسم بسمة الجمال ولا يتأتى ذلك الا للكاتب البارع اللبق
ذي الذوق المرفه والاحساس الدقيق » ،

اما الواقعي Realiste «لذا كان فناناً أخرج لنا مشاهد ونماذج بشرية على
فبح وتفاهة لا جدوى منها ولا غناء فيها » ومن البديهي ان لكل كاتب نظرية الخاصة
فيرى الحياة من زاوية لا يشاركه فيها سواه وعن هنا نخلص الى استنتاج القيمة
المطلقة لشخصية الكاتب وقية نظريته الى الجمال والكون والفن .

وثمة مأخذ آخر يأخذه موباسان على المدرسة الواقعية . وقد نحاشى هو الوقوع في
هذا الشطط : «والكاتب الواقعي يعطي للقراء صوراً شديدة الوضوح ، بارزة الخطوط .
يدنه المعالم فيوفر عليهم كل جهد يبذل فلا يمكنهم من ادراك ذلك الترويض العميق
والارتياح البعيد القور الذي أحسه الكاتب لدى تبلور الصور في ذهنه - فيفقد ،
من جراء ذلك مشاركة المؤلف رضاءه وارتياحه . ويجردهم ، بالتالي ، من المتعة الحقيقية
والرياضة العقلية . »

صحيح ان موباسان قد أحدث هذا الانقلاب في المدرسة الواقعية الا انه ظل
مخلصاً ، وباصرار ، على بعض الأنس التي قامت على دعائمها « الواقعية الكلاسيكية
Réalisme Classique » .

• • •

(١) مدرسة فلسفية ظهرت في القرون الوسطى وتلخص في النظر الى الحياة نظرية واقعية تتجاهل
بكل ما فيها من دماغة وعدم انسجام ، او بهاء او رواء وجمال . اشر اتباعها : سكوت ، فلوير ،
زولا ، موباسان .

موهبة كفاص أن في قصص موباسان القصيرة تبلور لنظراته الجمالية الى الحياة أوضح مما في رواياته الطويلة بفضل انتقاءه للأسلوب دقيق واختيار للمواضيع بارع . ففيها نأثير بالغ للتوازن الفكري والتركيز التصويري . فأول ما يعمد موباسان الى وصف الاطار الذي تدور فيه حوادث قصته وصفاً موجزاً مركزاً : باحة المزرعة ، ساحة السوق ، الحدائق العامة ، حافلات القطار . ثم ينتقل الى لم شعث أبطاله فيصور بخطوط سريعة ملحة ما يبرز من صفاتهم الجسدية . ويتأتى له ذلك ببعض الاشارات المادية او من كلمات عامية فاقعة اللون تعطي للصورة صبغة خاصة تصدم العين بما فيها من رقة وجلافة . ثم يبدأ عرض حوادث بسيطة تافهة عن عمد وربما خفيفة عن قصد : رحلات صيد طيور أو أسماك . أعمال مختلفة من الحياة الريفية او الباريسية ومرعان ما تبرز ، من بين هذه النوافه ، مفاجأة غير منتظرة فتمضي بعقدة القصة الى حل لم تكن لتصوره فبأني ، اغلب الاحايين ، فاجعاً دون ان يبدو على الكاتب انه ابتعد عن هدوئه الطبيعي . ولقد كان لموباسان من أسلوبه الطبع المرن ما سهل له ابراز صوره على أكمل وجه وأصدق وصف . فلما تعمد كاتبنا زج الفاظ رثانة في كلامه فهو ينهج أبسط نهج فلا تحطى عين بساطته الطبيعية وصفاء أسلوبه الحالي من كل شائبة وهو وراء ذلك يخفي وثوقاً بنفسه وقلبه تدعو الى العجب العجيب !

• • •

أما بعد ... فستوغل يا قارئ العزيز في « حياة صاحبة » وقد عرفت عن مؤلفها الكبير الشيء الكثير . وستلمس فيها الصفات التي حاولنا ابرازها لك في هذه المقدمة ليكون لك منها توطئة ونهيديك لتذوق هذا الفن الرفيع واستجلاء هذا الادب العالي .

المترجم

دمشق - تشرين ثان ١٩٥٣

الكتاب الاول

الفصل الأول

مشت جان الى النافذة بعد ان فرغت من اعداد حقائبها . لم يكن المطر قد كف عن المطول بعد ان استمر طوال الليل تفرع قطراته المتلاحقة زجاج النوافذ وتجلد السطح . فكأن السماء المنخفضة قد فتحت ميازيها فغمرت الارض بسيل احالها وحلا لزجاً ذاب تحته كأنه قطع السكر .

كانت زخات المطر تعبر مثقلة بحرارة خائفة . وفاضت الشوارع بالجداول فبدت البيوت كقطع ضخمة من اسفنج تمتص الماء فتترشح به الجدر رطوبة تنفذ حتى الاقبية ومستودعات المؤونة .

لقد غادرت جان الديرة عشية امس فظفرت بالحرية نهائياً ، ان بها لشوقاً الى اللعب من مسرات الحياة التي طالما داعبت مخيلتها منذ امد بعيد . وهي الآن تمحشى تردد أبيها بالسفر في مثل هذا الجو ان لم يتحسن .

وللمرة المائة سرحت ناظرها تستجلي غوامض الافق الممغن في التجهيم . ولاحظت انها نسبت اخذ التقويم في حقيبتها ، فانترعت من فوق الجدار تلك الكرتونية الصغيرة المقسمة الصفحة اقساءاً بعدد اشهر السنة وقد ظهر في وسطها بخط

ذهبي مزخرف الرقم ١٨١٩ . ثم ضربت بقلمها الاعمدة الاربعة حتى بلغت تاريخ ٢
ايار يوم مغادرتها الدير .

وعلا صوت من وراء الباب : - جانيت !

فاجابت الفتاة : - ادخل يا ابتاه . ودخل ابوها

كان البارون (سيمون جاك لبارتويس دي فود) نبيلًا من نبلاء القرن الماضي ، به
حمق وطيبة . يعتبر نفسه احد مريدي جان جاك روسو المتحمسين . فهو يحمل بين
جنبه للطبيعة والحقول والغابات والحجران حباً يكاد يكون كلفاً .

كان ارستقراطي المولد ، به ميل الى الفلسفة ، ربي تربية متحررة جعلته
يحمل للاستبداد في شتى مظاهره كرهاً صريحاً عنيداً . لقد تعانقت نقطتا الضعف
والقوة في نفسه في منطق واحد هو طبيته . انه طيب .. طيب حتي ليضيق هو
ذرعاً بطيبته اللامتناهية : معطاء ، متلاف ، عنيد ، منصرف بجماع فواه الى طبيته
التي تنته به ، وهي فضيلة ، الى ان تصبح نقيصة .

لقد حلم ، وهو الرجل النظري ، بمنهج لتربية ابنه كما يحمل منها فتاة سعيدة
مستقيمة دمثة طيبة .

عاشت جان حتى سننها الثانية عشرة في كنف البيت الابوي ثم بعث بها
ابوها ، رغم دموع امها الى معهد القلب الأقدس ، وتركها تسجن بقوة بين جدران
الدير القائمة فتشبه جاهلة بالحياة مجهولة من الحياة . ودان يتسلها ناصعة الصفحة نقية
الضئير في ربيعها السابع عشر كما يتاح له غمها بنفسه في مستنقع الحياة فيرميها الى
ما في الدنيا من حب وجمال وخير . انه يبتغي ان يهيئ لها الفرص ويمهد السبل لنفها
الطرية فتتفتح بين الحائل ، فوق الارض الخيرة الطيبة ونحت السماء الفسيحة الزرقاء ،
إن جل ما يبتغيه هو اشباع عواطف فتاته من ذلك الحب والحنو الذي لا صنعة
فيه ولا تكلف ، من تلك القوانين الازلية التي تهيمن على الكون وتسيره بدقتها

المبدعة . يريد منها حباً للطبيعة كحب الحيوان لها ...

غادرت جان الدير بارعة الحسن ، بضج في عروقها دم الشباب الحار المتعشش الى متع الحياة ومناهل العيش الصرفة ، لقد ولدت في نفسها تلك الرغبة في ركوب متن المغامرات المشوقة التي طالما اهدت خيالها في فراغ ايامها وطول ليلاتها ووجدتها مع آمالها وخيالاتها .

كانت كأنها لوحة (الفيرونيز) بشعرها الاشقر المتوهج كأنه رسم فوق رأسها بالاصبغة والالوان . اما بشرتها فيها رقة الارستقراطيات المنعمات نوردها حمرة خفيفة ويظللها زغب لطيف فيحيلها ضرباً من المحمل الشاحب اذا ما داعبته اشعة الشمس .. اما زرقة عينيها فعقيقة داكنة كعين تلك التماثيل الخزفية الهولندية . واستقر فوق منخرها الايسر خال صغير كما زين ذقنها ثان في الجهة البني تعلموها شميرات صغيرة شقراء بلون بشرتها حتى ليصعب على العين تمييزها منها .

وجان مديدة القامة هيفاء القد ، ناهدة الصدر ، متناوجة الردف . واضحة نبرة الصوت ، صريحة الضحكة تشبع فيما حولها جواً مرحاً طروباً ... وقد اعتادت حركة لازمتها وهي رفع راحتها الى شعرها عند الصدغين فكأنها تسويه .

وخفت الى ايها فالقت بنفسها فوق صدره وعانقته قائلة : - حسناً ألسنا

ذاهبين ؟

فابتسم لها هازاً رأسه ذا اللمة الطويلة الناصعة وأشار بيده نحو النافذة قائلاً :

- كيف تريدن السفر في مثل هذا الطقس ؟

فانثنت تستعطفه بدلال ورقة :

- لنذهب يا ابتاه ! ارجوك ! ستنقشع الغيوم بعد الظهيرة .

- ولكن امك لن توافق مطلقاً .

- بلى . اعدك بذلك بل اتعهد .

— اذا تمكنت من اقناع والدتك فلا مانع لدي

و'انطلقت بحفة الفراشة الى غرفة البارونة فهي تنتظر بفارغ صبر متفاقم يوم السفر هذا وهي ، منذ النعاها بمدرسة « القلب الاقدس » لم تغادر « روان » ابدأ . فقد شدد أبوها عليها فلم يسمح لها باي ترويح عن النفس او تزجية لآوقات الفراغ قبل بلوغها سنأ حددها لها . غير انهم استصحبوها الى باريس مرتين . وما باريس سوى مدينة هي الاخرى . . . وجان لا تحلم بغير الريف . . الريف الطلق ذي الظلال الخضر الوارفات . . .

والعائلة الآن هم بالذهاب الى املاكهم في « بوبل » لقضاء الصيف ، ولهم ثمة قصر عائلي مرفوع الدعائم فوق رابية صخرية مشرفة على شاطيء « إلبور » وجان تهدد احلاماً عراضاً بحياة طليقة على الشاطيء الرمل وبين احضان الامواج الصواخب .

وكان من المتفق عليه ان يهدى القصر الى جان فيكون لها منه سكناً إذا ماتت زوجت . كان المطر المنهمر منذ مساء امس دون فترة شغلها الشاغل والمعكر لصفو اوقاتها . ما انقضت دقائق ثلاث حتى كانت تلج غرفة امها وقد ملأت البيت صراخاً . . ولم يمض طويل وقت عندما خرجت هائفة مستطارة اللب جبوراً :

— ابتاه ! ابتاه ! لقد وافقت امي ! لقد وافقت ! مر باعداد العربة !

ولم يكن دق السماء قد انقطع انهماره بل بدا للناظر وكأنه يتضاعف . وبالرغم من ذلك فقد درجت المركبة امام الباب .

وكانت جان اول من صعد الى المركبة بينما كانت البارونة تهبط السلم يسندها زوجها من ناحية ووصيفة طويلة القامة ، متينة البنيان ، مفتولة المضل كالغلمان ، من ناحية ثانية .

ان هذه الوصيفة فتاة نور مندية من مقاطعة « كرو » وقد بدت في العشرين بالرغم من انها لم تتجاوز الثامنة عشرة .

و (روزالي) هذه اخت جان بالرضاع ولذا فهم يعاملونها في البيت معاملة ابنتهم تقريباً ووظيفتها الاساسية قيادة سيدتها التي غدت منذ بضع سنوات على ضخامة هائلة سببها لها مرض القلب الذي طالما شكت منه .

وبلغت البارونة العتبة لاهثة الانفاس ونظرت الى الساحة المغمورة بالمياه وتمتمت :

— حقاً انه شيء غير معقول !

فاجابها زوجها وهو دائم الابتسام : — انك انت التي وافقت على المشروع يا سيدة « اديليد » وكان يحلوه ان يسبق اسمها الضخم بكلمة سيدة بلهجة احترام يشوبها شيء من هزة .

وسارت تموج باردافها الهائلة حتى بلغت المركبة فاعتلت درجتها فاحدثت صريراً لم تعف منه قطعة في المركبة المسكينة . وصعد البارون فجلس الى قريها بينما اقتعدت الفتاتان جان وروزالي المقعد المقابل .

وحلت الطاهية « لوديفين » كرومة الاغطية والمعاطف فنشرت فوق ركبهم ، كما جاءت باكثر من سلتين دفعت بهما بين اقدامهم ثم تسلفت المقعد الامامي فاستوت بالقرب من « الاب سيمون » وتجلبت برداء فضفاض كساها حتى اخمصها . ودنا البواب وزوجته فاغلقا الباب وحييا سادتهما بعد ان اصغيا الى التعليمات الاخيرة حول ارسال الخنايب في عربة نقل . وانطلقت المركبة ...

كان الاب سيمون الحوذي غارقاً في معطفه الوافي بحني الظهر نحت شائب المطر بينما اندفعت المركبة ذات الجوادين تنهب الارض في محازاة الارصفة ثم عبرت بالقرب من المرفأ حيث السفن الكبيرة مرفوعة السواري مشرعة الجبال في السماء القاعة فكأنها اغصان شجر عارٍ يمتد في الفضاء ... ثم انعطفت في شارع (ريبودية) الطويل ، وسرعان ما اجتازت المدينة وانطلقت عبر السهول الفساح حيث كانت انظارهم تصافح ، بين القينة والنبينة ، اشجار الصفصاف الفارقة السوق في الماء وقد انتصفت منها اغصان طفت فوق سطح الماء الراكد كأنها الحث الكثيرة

العدد تزسم في تمددها مهيبة خلال ضباب الماء . .
كانت سنايك الحيل نخب خبياً . وعجلات المركبة الاربع تنثر الوحل اللزج
كما تنثر الشمس ذؤابات اشعتها الدقيقة المتفرقة في كل اتجاه .
كان الصمت نجماً على الجميع فكأن أذهانهم قد أغرقت هي الاخرى كما
الارض في ذلك اليوم المطير . . .

واستلقت الام الى الحلف واطبقت اجفانها بينما استغرق البارون في تأمل
الطبيعة الحزينة البليدة بعين كثيبة حيرى . اما روزالي فكانت، وصرتها فوق ركبتيها،
غارقة هي الاخرى في احلام تافهة شأن بنات الشعب . وسيطر على جان شعور
كشعور نبتة حية في ظلال الجدر الجملة وقد اعيدت بغثة الى النور والهواء . الا
ان كثافة سرورها تحت هذا الفيض الدافق من الاحلام العذاب ، كانت تحمي قلبها
فلا تنطرق اليه الكتابة كما تظلل الاوراق الوارفة مانحتها بظلمتها الارزق العريض .
كانت صامته ، تمور في صدرها رغبة ملعة بالغناء ، باخراج يديها من النافذة فتستلنا
ماء قنعب منها . . ولشدها استخفها السرور بسرعة الجياد ، ومنظر الطبيعة المقبض ،
واجساسها بانها في منجاة من هذا السيل العارم .

ورنت الى الجوادين وقد لفت نظرها بخار حار يتصاعد من عنقهما تحت المطر
المنهمر انهاراً وزحف النوم الى عيني البارونة شيئاً فشيئاً فاسترخى وجهها المحاط
بست غدائر متساوية من شعرها ، المرتكز على موجات عنقها الضائع في بحر صدرها
الزاهر المتهدل . كانت انفاسها الفاجعة تتردد خلال شفتيها نصف المفتوحتين وقد
تهدل خذاها وانتفعا . وانحنى زوجها فوقها ووضع بين راحتيها المتعالبتين فوق
بطنها الهائل محفظة جلدية . وقد فعل ذلك بتؤدة واحتراس . وكانت اللسة كافية
لايقاظها ففتحت جفניה المكسري الاهداب ونظرت الى المحفظة نظرة شاردة كنظرة

من نفص عنه لثوره غبار السبات .

وسقطت المحفظة فانفتحت وتناثرت منها قطع ذهبية واوراق نقدية في جوف المركبة . وانطلق كل مرح ابنتها في عاصفة من الضحك كانت كافية لاعادة وعي الام اليها تماماً .

وانحنى البارون فوق الذنود المتناثرة فالتقطها واعادها الى زوجته قائلاً :

- هوذا يا صديقتي كل مائتي من ثمن حقل « إلبو » فقد بعناه لنتمكن من اصلاح املاكنا في « بوبل » كما تعلمين . ففي هذه الاملاك سنقيم ، من الآن فصاعداً ، معظم سنتنا .

وعدت البارونة سنة آلاف واربعماية فرنكاً واودعتها جيبها بهدوء .

انها المزرعة التاسعة التي يعمدون الى بيعها من المزارع الواحدة والثلاثين التي آلت اليهم من آباءهم . ولهم ، فضلاً عن ذلك ، دخل يناهز العشرين ألفاً من الفرنكات يدره عليهم رهن املاك لواجيد استغلها لدت ثلاثين ألفاً على اقل تقدير .

انهم يعيشون ببساطة ، ولولا طيبتهم ، هذه الثغرة الفagre ابدأ ، لكانوا على يسر عظيم وحسن حال . فكما يتبخر الماء تحت وهج الهاجرة هكذا يذوب المال في ايديهم تحت ارجيحيتهم وكرمهم الذين لاحدود لها .

وكثيراً ماتسمع احدهم يقول : - لست ادري كيف حدث ذلك ! لقد انفقت مائة فرنك دون ان ابتاع شيئاً ذا قيمة .

ان هذه السهولة في العطاء هي ، فوق ذلك ، احدى لذات حياتهم الكبرى . وهم يجمعون على ذلك بشكل رائع مؤثر .

وسألت جان : - اتراه جميلاً قصري الآت ؟

فاجاب البارون مرحاً : سترين ذلك بنفسك يا فتاة .

وخف نهطال المطر شيثافشيثاً حتى غدا ضباباً خفيفاً من ماء مطاير . وبدت
قبة الغيوم كأنها ترتفع وينصع لونها .. وسرعان ما سطع شعاع عمودي من الشمس
فوق المروج من ثقب غير مرئي .. ولم تلبث زرقة السماء ان بدت من خلال
الغيوم التي انفجرت كأنها نقاب تمزق وانزاح واطلت سماء صافية الادييم عميقة الزرقة
فوق الكون المبتل . وعبرت بالهواء نفحة لطيفة كأنها تهدة سعيدة ندت عن صدر
وطرقت آذانهم اغرودة عصفور خرج من ايكته يحفف ريشه المبتل فوق اغصان
الغابات والحوائل المجاورة الطريق .

وهبط المساء . واستسلم كل من بالعربة للسبات ما خلا جان . وتوقفوا مرتين
في بعض الفنادق تاركين للجوادين فرصة الاستراحة وتناول شيء من العلف والماء .
كانت الشمس قد توارت وراء الآكام الغائرة في الافق البعيد واصوات
اجراس سحيفة تصل الى آذانهم فتشنفها . وتراءت لهم اضواء القرى المتناثرة على
جاني الطريق كما ازينت القبة الزرقاء بنجوم كمديد النمل . وكانت الركب يعبر
احياناً بمساكن يمزق ألها حلك الظلام ... واطل عليهم بغتة ، من وراء الاغصان
المتشابكة ، قمر احمر هائل الحجم ... فاتر الالفاظ كأنه قد هب للتو من رقاده ...
كان الجو لطيفاً لم يشعروا معه بحاجتهم الى رفع زجاج النوافذ .

واثقلت الاحلام رأس جان فاستسلمت للتويم وقد اشبع روحها من
الرؤى السعيدة وخدرا حساسها بالآمال المذهبة الحواسي

لم تكن مستقرة . فكثيراً ما تعاود فتح عينها لتغير شيئاً من وضع طالت
استكانتها فيه فازعجها .. فكانت تسرح ناظرها خارجاً متأملة الليل المنير والمزارع
ذات الشجر العاري وطائفة من بقرات جائئة في الحقول ترفع رؤوسها الضخمة وقد
ازعجها عبور المركبة بها في قلب هذا الليل الممقر ...

ثم تعبد الى إراحة اعضائها محاولة استعادة حلم فر من بين جفنها الا ان ضجيج
حركة العجلات الذي يملأ آذانها كان يرهق افكارها فتعاود اغلاق عينها وكأن النصب

فقد انتقل من جسدها الى عقلها .

ولم يطل بهم الأمر حتى توقفوا . وبرز لهم رجال ونساء يحملون المصابيح
ويطلقون من ابواب بيوتهم ونوافذها . لقد بلغوا غاية رحلتهم .

واستفاقت جان من تهويمها وقفزت الى الارض خفيفة عجي . واعان الحوزي
والوصيفة روزالي البارونة فاحتملوهما حتى ترجلت . كانت كل قوة فيها قد استهلكت .
وراحت تردد وهي تنقل بثقال ساقها الضخمتين : - آه ! يا الهي ! يا ولادي
المساكين !

ولم تشأ ان تطعم شيئاً او تخرج شيئاً بل آوت الى فراشها سريعاً واستغرقت
لتوها في سبات عميد القرار .

وجلس البارون وجان الى المائدة بمفردهما . كانا لا ينفكان يتبادلان الابتسام
كلما التقت منهما الاعين عبر المائدة . وبعد فراغها من الطعام انصرفوا الى تفحص القصر
وما آلت اليه حاله بعد اصلاحه .

ان قصر (بوبل) من تلك المساكن النور مندية العالمة السقوف الفسيحة
الحجرات المتعددة الشرفات . وهو يجمع بين صفات القصور وطابع البيوت الريفية
العريقة . وهو مشاد بالحجر الابيض غير ان لونه قد استحال غبرة داكنة . وانه في
اتساعه ليكني عشيرة كاملة تقيم فيه . . . يخترقه ممشى طويل يقسمه قسمين متساويين
وعلى هذا الممشى تفتح ابواب جميع الغرف من الناحيتين . واذا صعدت اليه
فعلى درج مزدوج يلتقي فراءه في الاعلى مشكلين جسراً مقنطراً .

وتقوم في الطابق الارضي ردهة كبرى مكسوة الارض بالاجاد المزدان
برسوم اغصان تلعب فوق ضروب الطير . وقد انتشرت فوق كل قطع الاثاث
طنافس منقوشة نقشاً دقيقاً يمثل (خرافات لافونتين) في جمال وبراعة .

وقفزت جان فحطت ما عتراها من ابتهاج لدى وقوع عينها على مقعد قديم طالما
لمت فوقه وهي بعد طفلة تحبو . . . كانت نقوش هذا المقعد العزيز تمثل قصة

« النعلب والقلق » .

وبجذاء الردهة الكبرى تقوم المكتبة وقد عمرت بالقديم من الاسفار ثم
غرفتان مهجورتان . والى اليسار غرفة المائدة برباشها الحديث . . ثم المنتفعات
المختلفة . . .

كان المشى الطويل يقسم هذا الطابق ، كما ذكرنا ، قسمين تطل على جانبيه
الابواب العشرة للغرف العشر . وفي اقضاء تقوم غرفة جان . ودخلها .

كان كل مافها جديداً . فقد امر البارون باعادة طلائها ثم استجلب لها رباشاً
كان مخزنناً لم يستعمل قط وقد كسيت ارضها بالسجاد الفلامندي القديم الثمين .
ويدرك المرء فوراً ان هذه الغرفة قد اعدت ليقيم فيها شخص عزيز .

واطلقت الصبية صرخات حبور عندما شاهدت سريرها : كانت زواياها الاربع
مزينة باربوع عصافير من خشب السنديان سوداء لماعة فكانها تقف لنحرس السرير
وكذلك كانت جوانبه مزدانة بنقوش تمثل ازهاراً وفواكه مزدوجة . اما لونه
فكان جهماً فقد طال به العهد وهو ، انفخامة جرمه ، يرتفع مهيئاً رائعاً كأنه
البناء المشيد !

اما غطاؤه فمن لون الفراش ازرق سماوي يلتسع النعاع افق لاذوردي منور .
وهو من نسيج حريري قديم ذي زرق عميقة وقد رصعته نجوم ذهبية كبيرة تبوق
في ارتعاش كارتعاش نجوم القبة الزرقاء ! . .

ورفعت جان انظارها ، بعد ان طال بها تأمل السرير ، الى البسط الكاسية
الجدران . كانت كلها منقوشة برسوم مناظر واشخاص في ثياب غريبة الاشكال برفاق
الالوان . ولفت انظارها ، من بينها ، بساط مثلث فوقه مأساة : فبالقرب من ارنب
يرعى الكلا كان يتدد شاب وفتاة قد علت وجهيهما صفرة الموت . اما الفتاة فقد
انغمد في صدرها سيف وعيناها القتان ابدأ بفتاها . وادركت جان مرمى الاسطورة :

انها قصة (بيرام وتهيزي) ، وبالرغم من ان سذاجة التصوير قد حلت الابتسام الى شفيتها ، فقد سرها بالغ السرور ان تعيش في مثل هذا الجو المفعم بهذه الاسطورة الغرامية التي لن تفك تخاطب خيالها مثيرة فيها احساسات حميمة ، مشبعة ، كل مساء ، جواً اسطورياً لطيفاً عابقاً بالرؤى العذاب . اما بقية الرياش فمن اطرزة مختلفة . . . ان كل ماتقع عليه الاعين من تلك القطع التي يتركها السلف للخلف فتجعل هذه المساكن القديمة شبه متاحف عائلية ذات صلة وطيدة بالحياة والاشخاص والاحداث . وتجاوبت في احزاء القصر دقات الساعة الاحدى عشر ، فهم البارون بابنته وقبلها وانسحب الى حجرته فأوت جان الى فراشها وفي صدرها غصه وفي جوانب نفسها تضطرب عواطف عطشى ! وجالت بانظارها في غرفتها للمرة الاخيرة قبل ان تطفئ النور . كانت النافذة اليسرى تفصح انور القمر فينسرب الى الغرفة فينير شعاعه الفضي الحالم الارض بفيض من ألقه الوضاء . . .

ولمحت جان ، عبر النافذة الاخرى ، شجرة باسقة يغمرها النور اللطيف . وانقلب جان على جنبها وانغمض جفניה محاولة ان تنام . الا انها ما لبثت ان فتحتها من جديد وقد خيل اليها انها ما تزال عرضة لاهتزاز المركبة التي ما انفك صدى ضجيج عجلاتها يدوي في اذنيها . ومكنت فترة لا تبدي حراكاً آمله ان يجعل هذا السكون بالنوم الى عينها . . . الا ان قلقها وفراغ صبرها سرعان ما اجتاحتها كل كيانها فاستحال النعاس فيها ارقاً مضنياً .

كانت نحس في ساقها تشنجاً كأنه الحمى الناهشة . ونهضت . وعبرت البقعة المنارة من ارض الغرفة حافية القدمين مكشوفة الذراعين ، وقد بدت ، بقميصها الطويل ، اشبه بالاشباح . وانجھت نحو النافذة فتحتها وسرحت في الليل القمر انظاراً انهكها الارق !

كان الليل منوراً حتى لتسهل الرؤية فيه كما في نهار ابلج . . . وراحت جان تستعيد ذكريات هذه المنطقة التي شففتها حباً في طفولتها الاولى . . .

فهذا هو المرج المترامي الاطراف وقد كسته يد الربيع رداء اخضر . . .
وهاتان الشجرتان العملاقتان الناشرتان اغصانها نحو القصر . . . واذا ما امتد البصر
حتى طرف المرج وقع على الغابة المسورة بجدر تحميها غائلات العواصف . . . وقد
انتصبت فيها اشجار الدردار العريقة في قدمها ، المتأكلة سوقها ، كأنها خشب سفف
نخر عملت به ريع البحر اثثكالا .

كانت تلك المساحة مرسومة الحدود من يمين ومن يسار بصفين طويلين من
الحور الذي اعتاد النور منديون غرسه لتحديد املاكهم . اما المزارع المجاورة
فملك لآل (كويوار) وآل (مارتان) ، . . . اما خارج حدود هذه المزارع ، فيمتد
سهل مترامي الجنبات ، اجذب ، وهو منبت للطعبل والاعشاب البرية ومجال دائم
للرياح تعربد فيه وتصفير ليل نهار وبلي هذا السهل ساحل صخري مرتفع ابيض
تغمر الامواج قدميه . وسرحت جان ابصارها حتى تلك الامواج البعيدة التي بدت
وكأنها نهوم تحت خفقات النجوم .

أما الارض فقد فاحت منها روائحها العطرات بعد ان بللها المطر ولفعتها
الشمس وكانت ياسمينة تتسلق الجدار فتصل النافذة نافذة في هدوء الليل ربحها
المعطار فيخالط اريجاً آخر يفوح من ازهار اخرى حديثة المبلاد ! . . .
واستسلمت الفتاة الى هذه النشوة السحرية في جو من هذه الروائح العطرة .
وكان سكون الريف وهدوء الطبيعة قد خدرا اعصاب جان وفعلا بها فعل
حمام فاتر

كانت كل الدوبيات التي تسكن في وضع النهار وتنشط خلال الليل في حلقة
للظلام قد شرعت تملأ هذا الظلام المنور حركة وحياة صامتين
كان كل ما في الطبيعة ساكناً ساجياً ما خلا بعض الصراصير والحشرات التي
راحت تناجي القمر بصغير ناعم رتيب كئيب
وخيل الى جان ان صدرها يتفتح وقلبها يمتلي* من هذه الهيئات السحرية كما

يتلي بها هذا الليل الساجي .. فتثور في هذا القلب البكر آلاف الميول العابرة
الشبيهة بهذه الدويبات الليلة التي خرجت من مكانها تسمى ..
إن شيئاً مجهولاً ، سحرياً جعلها تتحد مع هذه القصيدة الحية : هذا الليل .
وشعرت ، والظلام يغمرها ، برعشات لا بشرية تعبر كيانها فتتحرك اعصابها ونحبي
فيها آمالاً عسيرة المنال ... ما أشبه هذه الانتفاضات بنفحة من نفحات السعادة
الغالية المرتجاة !! ... انها تحلم ... بالحلم ! الحب ! انه ، منذ سنتين يشير فيها قلقاً
كلما جال خياله في خلدها .. اما الان فهي خليقة بالحلم فلم يعد لها من هدف سوى
الظفر بالحبيب المرتجى !

كيف سيكون هذا الحبيب ؟ انها لم تكون لنفسها بعد فكرة واضحة
المعالم عنه . عن هذا الشخص السحري الذي بدأ يغزو منها العقل والخيال والقلب !
انها لا تعرفه ! إلا انها واثقة من انه سيأتي . هو بعينه ! وهذا كل مافي الأمر .
وكل ما تعرفه الآن انها ستعبده ! ستعبده بكل مافيها من قوى ! وهو ؟ سيحبها هو
الاخر جهد طاقته ! سيتنزهان في الامسية الشبيهة بهذا المساء ... تحت الشهب
المتأوبة من بين صفوف النجوم الراءشة ... سينطلقان وايديهما متعانقة ، وقد
التصق احدهما بالآخر فيسمع نبضات قلبه وتنتقل اليه حرارة جسده ... - يمتزج
حبهما بصفاء ليالي الصيف المقمرة الصافية الاديم . سيتحدان بشكل يتيح لهما العبور في
مفاوز حبهما حتى يبلغا اقصى مافيه من اسرار ومكنونات ..

واستمرت في مثل هذه الرؤى الشيقة وقد احتاج في صدرها وجد مبهم
لا يوصف ولا يحدد ...

وشعرت فجأة حبيبها الموعود بقرنها ، ملتصقاً بها .. وسرعان ما هزتها
ارتعاشة مهمة فانتفضت من قمة رأسها حتى اخمصها .. وشدت بذراعها فوق
صدرها بحركة لاشعورية كأنها تعتقل حلاً يحاول الافلات من بين جفنها .. وعبر
بشفتها الممدودتين نحو الجهول احساس او شكت معه قواها ان تخور .. وطبع

نسيم الربيع فوق ثغرها للبكر قبلة شوق ربا ! ...

وطرق اذنيها بغمّة خفق خطى وراء القصر فوق الطريق .

وفكرت ، وقد وثبت بكل قوى روحها الهائلة ، محمولة على اجنحة وجددها المتفان ، المؤمن بالاتفاق والمقدور ، وبتوارد الخواطر الموحى به من علٍ وبتصرفات الافئدة العجيبة ، فكرت : لو كان هذا حبيبي ! ...

واصاحت السمع ، لاهته النفس ، الى وقع خطوات العابر الرقيقة .. لا بد من انه سيتوقف بالقرب من السور ليسأل سكان القصر مأوى وضيافة ..

وما جاز بها حتى غمرتها حسرة حقيقية كأنها فقدت شيئاً كان ملكها تخرص عليه ! وادركت ان هذا الحلم العابر قد ايقظ ميولها وحرك كوامن غرائزها .. ورفت فوق ثغرها ابتسامة واثية ! وهدأت من جأشها بعد ان فرحها المهنج الآمال وارخت لحياها العنان في دنيا اقرب الى الواقع وأدنى الى المستطاع ..

ستعيش معه في هذا القصر المادى المشرف على البحر الازرق الفسيح .. وستزق طفلين ولا ريب : الصبي له والبنية لها ! وهاهي ترأى بمرحان فوق العشب وبين الحائل واعين الام والاب المزهوين ترعاهما في حراكنهما وسكونهما .. وهاهي تتبادل وزوجها نظرات الوجد والوله من فوق رأسي الصغيرين ! ..

واستمرت ترى هذا الحلم طويلاً .. طويلاً .. حتى أتم القمر سياحته عبر قبة السماء واوشك ان يستجم في الازرق الزاخر .. وبرد الهواء .. وشعب الافق الشرقي .. وارتفع صياح ديك في الحقل الايمن فاجابته ديكة من الحقل الايسر .. وبدأت النجوم تغور الواحدة تلو الاخرى في كبد السماء الفسيح الآخذ بالنصوع وعلا تغريد عصفور استفاق لتوه في مكان ما .. وما لبث التغريد ان عم مسامع الفجر الوليد .. فكان اول امره ضعيفاً حبيماً ثم راح يقوى ويجرؤ حتى غدا قوياً واضعاً منتشراً من غصن الى غصن ومن ايكّة الى ايكّة ...

وادركت جان فجأة ان النور يغمرها فرفعت رأسها من فوق راحتها

واغمضت عينيها وقد ازعجها نور الصباح الساطع الواضح !
كانت جبال من غيوم فرمزية قد حجبت صفوف الحور الباسقات وعكست
على السهل ألماً أحمر كأنه الدم المهرق ..

وبتؤدة بزغت الشمس الرائعة الطلعة فزقت اديم الغيوم وغمرت بنارها
الاشجار والسهول والمهبط وكل الافق ..

واحست جان انها تكاد تجن سعادة .. انها شمسه انها فجرها ! بدء حياتها !
ومدت ذراعيها نحو الفراغ المتألق كأنها تسعى إلى عناق الغزالة البازغة ..
وشاءت ان تقول شيئاً .. ان تهف بشيء .. بشيء علوي كأنبلاج هذا الفجر العتان ..
الا انها لبثت مشلولة القوى ، معطلة التفكير ، مأخوذة بحماسها العاجزة ! ..
وعادت برأسها الواهي الى راحتها وفاضت بدموع حري مآقيا ... ولم تلبث
ان انخرطت في بكاء لذيذ ...

ورفعت رأسها بعد فترة فلمحظت ان اطار الفجر الحلاب قد اضمحل .. وشعرت
في روحها بأشباع .. وبشيء من الانهاك .. فكأن هواء بارداً لفحها .. ودون ان
توصد نافذتها مشت الى سريرها والقت يجسدها المضعع فوقه .. واستمرت تحلم
دقائق قليلة ثم اخذها سبات عميق .. ولم تسمع نداء ابها عندما جاء يوقظها وقد
ازفت الساعة الثامنة ولم تستغث الا عندما ولج غرفتها وهزها مهيباً بها :
ان انهضي ..

كان يتفني اطلاعها على التجهيلات المحدثه في القصر .. قصرها .
وتأبط ذراعها وسار بها فطوفاً بالبناء الفخم فلم يتركها زاوية الا نفحصها .
ثم راحا يتنزهان في الماشي بين صفوف الحوار . كان العشب قد نبت تحت اقدام
اشجار الحديقة فكسا الارض بساطاً مخضوضر الجنبات . ووشى الحواشي .. وقفز
ارنب بفتة من بين الادغال فاجفلت الصبية .. وانطلق يعدو متوثباً حتى اختفى
باتجاه الساحل الصخري ..

وبعد الافطار اعلنت السيدة ادبلايد انها ماتزال منهوكة القوى . من رحلة

الامس وستعكف في غرفتها تنشد الراحة . وعرض البارون على ابنته فكرة القيام بنزهة حتى « إبور » وسرعان ما اخرجها الفكرة الى حيز التنفيذ فانطلقا فعبرا دسكرة تدعى « إتوفان » وكانا يلتقيان بالفلاحين فيحبوهما نحيمة من يعرف الآخر . ثم اجتازا طريقاً تنحدر نحو البحر في واد كثير المنعطفات . ولم يلبثا ان اشرقا على قرية (إبور)

ومرا في الشارع المنحني الجاري في وسطه جدول تكدست على خفتيه اكوام
من روث المواشي تقوح منها روائح حادة بينما راحت بعض الحماثم تطوف باقرب
من الجدول باحثة بين الروث عما يسك عليها رفقها .
كانت جان تتأمل كل ذلك كأنه اطار في مسرح ...

واطل عليها البحر فجأة ، من وراء احد الجدر ، في زرقته العميقة وصفته
المنبسطة حتى مدى البصر فاستوقفها هذا المنظر الأخاذ وراحا يتأملان تلك
الاشعة البيضاء الشبيهة بمواف الطير وهي تعبر في عرض الم .
ولها ، في احدى فرجات الشاطئ الصخري ، مرفأ صغيراً وبضعة بيوت فوق
رصيفه وقد احتشدت فيه سفن المنطقة فوق منحدر من دقاق الحصى البيضاء وقد
انهك عديد من الصيادين في اعدادها بانتظار المد في المساء المقبل . .

ودنا منها ملاح يعرض سمكا فابتاعت منه جان واحدة حملتها بنفسها الى القصر
الا انها لم تلبث ان شعرت بتعب ، لكبر السمكة ، فعمدت الى عصي ابيها فانفذتها
في اذني السمكة وامسكت بطرفها وامسك ابوها بالطرف الآخر وانطلقا مجملهما
كأنهما طفلان مرحان ، فصعدا فوق منحنى الشاطيء يثرثران بانطلاق الاحداث
وقد اسلما للنسيم الرخي وجهيهما بين راحت السمكة ، وقد اتعبت يديهما ، تكس
العشب والرمل والحصباء بذيلها الحشن العريض ...



الفصل الثاني

حياة طلبة مرحلة هي حياة جان. فهي تقرأ ونحلم وتروى ضواحي
انها القصير بفردتها ...

فاذا خرجت فدون وجهة معينة فتسير بخطى وثيدة على طول الطريق ،
وخيالها شارد في مهامه الاحلام ... او تهبط قافزة حفا في الاودية الملتوية ، المتوجة
الجانبين بتاج ذهبي من ازهار نبات « السمار » النافع عطراً شديداً تثيره الحرارة
فيفوح كأنه نشر خمر معطرة ... وكان صخب الامواج المتكسرة فوق صخور
الشاطي يبلغ ، من بعد ، اذنها فيهدد خيالها ويطيير به في السموات العلى ...
وكثيراً ما كانت تحس استرخاء يسير في اعصابها كأنه الحذر اللذيذ فتلقي
بنفسها فوق اول مرتفع معشوشب تصادفه ... واذا ما وقعت عيناها ، من
خلال انفراج الربى ؛ على مثلث ازرق من ماء اليم ، ادر كهاسرور طاغ مفاجي ،
غير متزن ، كأنه الاحساس المبهم بدنو سعادة غامضة لا يدرك لها كنه ...
لشد ما اجتاحت كيائها حب الانفراد والوحدة فوق صدر هذه الطبيعة
الكاسية الحالية !..

فكانت تقيم الساعات الطوال جالسة فوق قمة رابية يتوجها النبت والزهر ...
وتر الارانب قافزة تحت قدمها دون ان تعيرها اي انتباه ...

وكثيراً ما كانت تنطلق تعدو حافية القدمين فوق رمال الشاطي ، الصهباء تاركة
لهواء البحر البليل مداعبة جسمها ، والتغفل حتى اعصابها المتوفزة محرراً فيها
احساساتها النشوى ... لم تكن لتحس تعباً فهي في مرحها العارم كسمكة في الماء

او سنونو في الهواء !... .

كانت تبذر ذكرياتها هنا وهناك كما يبذر الزارع الحبوب بين الانلام .. فكان لابد لتلك الذكريات من النمو والازدهار فلا تذبل ولا تجف حتى ينزل الموت بساحة صاحبها .. وكانت يخيل اليها انها تلقي ، في كل ناحية ، فلذة من قلبها وقطعة من روحها ...

ونضت عنها ثيابها واثقت بنفسها الى ذراع الماء بمجدوها شوق الى الاستسلام لهذا الازرق المائع .. انها قوية وشجاعة .. وهاهي تضي ساعة متوغلة في عرض البحر حتى تغيب عن اليابسة فهي خالية الذهن من فكرة الخطر .. لشد ما يبهجها هذا الاستسلام للماء المنعش الصافي الزرقة المائت الصفحة الذي يحمل جسدها اللدن العود فيهدده هدمدة ترنج اعطافه الرقاق . وكانت تستلقي على ظهرها ، فوق سرير الموج ، وتعالب ذراعيها فوق صدرها الناهد البليل وتسرح بانظارها في زرقة السماء العميقة يقطعها طيران سنونو سريع او خيال ابيض ماض لاحد طيور الماء .. ثم تنقلب على صدرها ضاربة الماء بذراعيها العبلوين مطلقة صرخات غامرة بفرح موار ..

وكثيراً ما شعروا بخطورة هذه المغامرة الجريئة فكانوا يلحفون بها زورقاً يموذ بها الى الشاطئ. حيث تتلقى التوبيخ اللطيف ...

وترجع الى القصر ادراجها .. وقد شحبت لونها وشعرت بالجوع .. الا انها رشيقة خفيفة تفتت بالابتسام شفتاها وتضج بالسعادة عيناها ...

اما البارون فكان له من مشاريعه الزراعية شغل شاغل . فهو دائم التفكير بشجيرة آلات جديدة وغرس ضروب من النبات لم يسبقه اليها احد فكان يضي سعابسة نهاره يباحث الفلاحين ويستأنس بأراء المزارعين فكانوا دائماً يهزون رؤوسهم غير مؤمنين بمشاريعه ولا واثقين بآلاته ... وكثيراً ما كان يرافق بحارة لمبور فيقوم بزيارة الكهوف والينابيع والقمم الدانية او يصطاد معهم السمك كبهار

بسيط . فيسير في الليالي القمرء الى الشاطيء بسحب شبابه الملقاة بالامس . اشدها
كان يغتبط بصوت اصطفاق القلوع واستنشاق هواء الليالي اللين الطري .. وكم كان
ينتشي من الاستلقاء فوق الزورق لدى بزوغ اشعة الشمس الاولى وعيناه معلقان
بصيده من السمك الملتصع الظهور الزجة تحت الشعاع المبكر ..

وكان اذا ما فرغ من تناول طعامه انطلق يروي بحماسة قصة تلك التزهات ثم
تقاطعه الام لتحدثه عن تزهاتها هي الاخرى وعدد المرات التي قطعت فيها بمشي
الحديقة الطويلة تحت ظلال الحور الباسقات .. وكانت شديدة الانهاك بالمشي فقد
اوصوها بالاكثر من الحركة ماوسعها ذلك . فما ان يسدل الليل استاره وتنعش
الكون رطوبته حتى تهبط الى الحديقة تستند الى روزالي وقد تلفحت بشالين وتذرت
بمطفها وغطت رأسها بقبعة سوداء مطرزة بوشي احمر ، ثم تروح تزع المشي بخطوها
الوثيد راسمة فوق العشب المعفر خطاً للذهاب وآخر للاياب وكانت قد امرت فوضع
مقعده في طرفي المشى فما تمر خمس دقائق حتى تتوقف وتقول للوصيفة الصبور
التي تسندها : لنسترح قليلاً يا بنيتي

وتعاود البارونة فعلتها هذه بعد الظهيرة ، ثم يدر كها اجهاد فتستلقي فوق
كرسي طويل يأتونها به فتقوم نصف نائمة ..

انها تسمي هذا العمل « تمريني » كما تشير الى حالتها الصحية قائلة : « سميتي ! »
وكثيراً ما كانت تسأل زوجها او جان او روزالي ان يجسوا لها قلبها فيفعلون
الا انهم لا يشعرون بوجيب هذا القلب المختبيء تحت اطواق من الثياب وطبقات من
الشحم . وكانت ترفض بشدة وعناد السماح لطبيب جديدهم بصحتها خشية ان يكتشف
امراضاً لم تكن بالحسبان ..

وهي لانتفك تتحدث عن « سميتها » كأن السنة شيء مخصص بها دون سواها
من الناس !

والف البارون هذا التعبير فكان يقول : « سميتي » زوجتي !.. كما الفته جان

كذلك فهي تردد « سمنة » أمي ! كما يقولان : ثوبها وقبعتها ومظلتها !..

كانت البارونة السيدة ادبلايد بارعة الجمال في صباها ، نحيفة هيفاء كالقصبه .
وقد اختلطت في عهد الامبراطورية بطبقة الضباط فلم يعدم ذراعان وسيلة لضمها في
حلبات الرقص !

ولعل ما اثر فيها وطبع نفسيته بطابع لا يمحي هي قصة (كورين) التي قرأتها
مراراً وابكتها كثيراً ...

اما روحها فكانت ، خلافاً لجسمها ، على نصيب وافر من الرقة والشاعرية
والمرح ! فهي ، في الوقت الذي تكون فيه مسمرة بكل ثقل جرمها فوق مقعدها
تكون روحها في اجواء مغامرات تخيل اليها انها بطلتها .

وثمة اشخاص خرافية كانت تعتبرها مثلاً لها فهي لا تقتأ تستعيددها في مخيلتها كما
يردد الحاكبي قطعة موسيقية بعينها كلما ادير قرصه ...

ولشد ما تميل الى تلك القصص التي تدور حول المآسي واعمال البطولة فتدمع
لذكرها عينها .

وهي تفضل نوعاً معيناً من الغناء هو غناء « برانجر » لأنه يبعث في نفسها ضرباً
من الاسف على ماضيات الايام !.. وهكذا كانت بمضي الساعات الطوال هامة
فوق كرسيها ساجدة مع خيالاتها .

كانت تحب قصرهم هذا حباً جماً فهو إطار جذاب لهذه المغامرات المزعومة التي
لا توجد الا في مخيلتها . فهو ، بالغابات المحدقة به ، والاراضي المجدبة القريبة منه ،
والبحر الهادر على مسمع الصوت منه ، يذكرها بما وصف « ولتر سكوت » في
كتاباته التي قرأتها منذ اشهر قليلة العدد .

كانت في الايام المطيرة تعتكف في غرفتها مستغرقة بمراجعة مآسيه « ذخائرها »
تلك الرسائل القديمة ، رسائل امها وابيها ، رسائل زوجها البارون يوم كانا خطيبين .
وغير ذلك من مختلف الرسائل ...

وهي تحفظ بها كلها بحرص في درج سري من (الكلجو) مزينه زواياہ الاربع
بزخارف نحاسية تمثل ابا المول.

كثيراً ما كانت تحاطب روزالي فائلة : - روزالي . يا بنيتي هات درج
الذكريات ، فتفتح الجارية الخزانة وتحمل الدرج الى سيدتها فتضعه فوق كرسي
قريب منها فتتناول هذه الاخيرة ما ضم من اوراق مصفرة وتفرق في قراءتها رسالة
رسالة بينما تنهمر من ما قفيا دموع حارة بين فترة واخرى فتبذل الاوراق وتجري
بمداد الاسطر ...

كثيراً ما كانت جان تقوم بمهمة روزالي فتزده الام وتصفى اليها تروي لها
ذكريات طفولتها . فكانت الصبية نجد في هذه القصص صورة لطفولتها هي فتدهش
لما في الحياتين من شبه في الخلق والتفكير والنزعات والميول . ذلك ان كل قلب
بشري يظن انه اول من عرف مثل هذه العواطف وبلا مثل تلك الحلجات .. التي
ما انفكت قلوب المخلوقات البشرية تنبض بها منذ كانت القلوب .. وستنبض بها
مادام في الدنيا رجل وامرأة حتى انقضاء الدهر ...

فاذا سارتا تنزهات فسيراً بطيئاً منسجماً مع هدوء القصة وبطيء روايتها
والتهنيدات الحري التي لاتنكف تقطع سباقها اذ تند عن صدر الام الذاتي شباها ..
كانت مخيلة حان تقفز واثبة تستبق حوادث قصص امها مندفة الى حياتها
العنبدة المشحونة بالامل العذب والارتعاشات السعيدة ..

وبعد ظهر احد الايام كانت الام تستريح فوق مقعدها في الحديقة عندما لحت
كاهناً ضخماً يظهر فجأة في اقصى المشى متجهاً نحوها بخطى وثيدة متناقلة . وحيي
عن بعد ، ثم دنا باسمياً وعاود التحية من جديد ووقف على ثلاث خطوات منها وهتف :
- حسناً ياسيديتي البارونه . كيف انت ؟

انه كاهن المنطقة .

كانت الام قد نشأت في عصر سادت فيه الفلسفات اللا دينية ، وابوها ، وهو

من رجال الثورة ، كان واهي الايمان فعمد الى تربيتها بعيدة عن الكنيسة الا انها كانت ، بالرغم من ذلك ، تضر حبا للكهنة مبعثه غريزة نسوية دينية متأصلة .

لشد ما اخجلها انها نسبت الكاهن (بيكو) كل الذنbian . وشرعت تعتذر اليه لأنها لم تميز مشيته غير ان الكاهن الطيب لم يبد تأففاً او انقباضاً . وتأمل جان . ولم يسعه الى الثناء على بها . طلعتها ورونق محاسنها البكر . ثم جلس وخلع قبعته الثلاثية الزوايا والتي بها فوق ركبتيه وراح يحفف عرقاً غديراً نضح به جبينه .

والاب (بيكو) ضخم الجرم ، شديد الاحمرار ، مدار العرق . فهو لا ينفك ، بين اللحظة والاخرى ، يخرج مندبله الكبير ذا المربعات فيجفف به حجاب العرق الناضح به وجهه وعنقه وما ان يعيده الى طيات مسوحوه حتى يعود العرق يتفصد من جسمه ثراً غديراً فيتساقط قطرات فوق حزامه العريض محدثاً بقعاً تعلق بها ذرات الغبار المتطايرة من الطريق .

كان ، ككل كهنة الارباف ، مرحاً ، جريئاً ، متساعاً ثثاراً .

واندفع يروي قصصاً ويتحدث عن اهل منطقته حديثاً لاهم سواه .

وجاء البارون .

والبارون ، تبعاً لاعتقاده الخاص ، لا يابه كثيراً لرجال الدين الا انه كان يأنس بهذا الكاهن ويبدش له ذلك ان معرفته به قديمة . .

ودعاه لتناول الغداء على مائدتهم .

بما لا ريب فيه ان الاب بيكو يعرف كيف يغتصب الاعجاب بفضل تلك الملكة القلب التي تولد في انفه الاشخاص قدرة على السيطرة وكسب اهتمام امثالهم من الناس .

وخاضوا بعد الغداء في حديث عائلي مرح لا اثر لـ لكلفة فيه .

وهتف الكاهن بغثة كأن فكرة سعيدة قد عبرت خلده :

ان لدي شخصاً قد التحق جديداً بابو شيتي اري ان اعرفكم به . انه
الفيكونت دي لامار .

وسألته البارونة التي تعرف حق المعرفة كل العائلات النبيلة في المقاطعة :

— أهو من آل « لامار » من منطقة (الاور) ؟

واوأم الكاهن مؤكداً : — اجل ياسيدي . وهو ابن الفيكونت جان دي
لامار الذي قضى في السنة الماضية .

ثم راحت السيدة ادبلايد ، التي تحب النبلاء حباً جماً ونهتم بهم اهتماماً خاصاً ،
تلقي على الكاهن سيلاً عراً من الاسئلة . وعلمت ان الشاب قد اضطر الى بيع
قصرهم العائلي لسداد ديون ابيه ثم جاء يستقر في مزارعه الثلاث في مقاطعة « اينوفان »
فاملاكه هذه تغل له من خمسة الى ستة آلاف فرنك والفيكونت ، وهو الرجل المقتصد
المتزن ، كان قد قرر ان يجيب لمدة سنتين او ثلاث حياة بسيطة في بيت متواضع
كما يتاح له وفر يساعده على الظهور بالمظهر اللائق في المجتمع . واذا ماتزوج وجد
لديه مدخراً فلا يضطر الى بيع او رهن عقارات ما .

واضاف الكاهن : — انه فتي محبوب ، مبال الى الترتيب والقص . وهو
شديد البرم في هذه المنطقة .

وقال البارون : — اصعب البنا يا ابتي فقد يروح ذلك عنه .

ثم انصرفوا الى الحديث باشياء آخر .

واستأذن الكاهن بعد الغداء بالخروج الى الحديقة فهو معتاد التريض بعد
الطعام ، وسار والبارون يرفقه وراحا يتنزهان بتراخ على موازاة واجهة القصر
البيضاء ذاهبين غادين ...

وظلاهما الواحد نحيف والآخر شبه مستدير بقبعة كالنمط ، يسيران معهما تارة
وراءهما واخرى امامهما تبعاً لاتجاههما من القصر ...

وكان الكاهن يحرك بين شفتيه نوع من السكاكر وقد استخرجها من جيبه وشرح فائدتها بصراحة اهل الريف :

- انها تساعد على الهضم وانا ثقيل المعدة دائماً .
 - والتفت الى القمر السابح في عليائه وقال مشيراً اليه :
 - ان المرء لا يمل مثل هذا المنظر الخلاب ابداً .
- ثم قفلا واجعيين الى الردهة ليستأذن الكاهن السيدتين بالانصراف .



الفصل الثالث

ذهبت البارونة وجان يوم الأحد التالي الى الكنيسة تحدوهما عاطفة الهامة
للكاهن وانتظرتاه بعد الصلاة لدعوته الى تناول الغداء عندهم يوم الخميس المقبل .

وبعد فترة قصيرة خرج من الميكل وبصحبه شاب فارغ القامة انيق المظهر
كان يتأبط ذراع الكاهن دون كلفة . وما وقعت عينا الكاهن على المرأتين حتى اشار
بيده اشارة فرح ومباغنة وصاح :

- كيف حدث هذا ؟ يا للاتفاق العجيب ! اسمع لي ياسيدي البارونة
ويا آنسة جان ان اقدم لكما جاركا الجديد السيد الفيكونت دي لامار .
وانحني الفيكونت معربا عن رغبته القديمة بالتعرف بهم ولم يلبث ان انطلق
محدثها حديث رجل من طبقة اجتماعية عالية المستوى .

كان وجهه من تلك الوجوه الناضجة منها السعادة ، التي طالما شغفت النساء
واثارت كوامن غيرة الرجال . وشعره الاسود الاجعد يظلل جبينه الاسمر الصقيل
اما حاجباه الطويلان المستقيمان فيبدوان اصطناعيين .. وقد ظللا عينيه فاكسباها
عمقا وحنواً وعلى ما بها من عمق وحنو في لونها القاتم وبياضها المائل الى الزرقة ذات
الاهداب الطويلة الغذيرة التي تنم على ميول صريحة بالغة الاثر في نفوس النساء ..
لذا أنها سرعان ماتدير منهن الرؤوس سواء منهن المتعاليات والساذجات ..
ان سحر عينيه لبوحي الى الناظر بعق تفكيره ونضفي اهمية خاصة على انفه
مايتلفظ به من كلمات .

اما لحيته الكثة اللامعة السواد فتخفي حنكه الموحى بقوة الارادة والعناد.
وافترقوا بعد فيض من محاملات تبادلوها كما يتبادل العدو اطلاق النار . .
وما انقضى يومان حتى كان السيد دي لامار يقوم بزيارته الاولى لهم .
ووجدهم في الحديقة وقد نشب خلاف بين البارون والبارونة حول وضع
مقعد او مقعدين تحت نافذة الردهة .

ثم جلسوا فدار حديثهم حول المقاطعة فاعرب الضيف عن شدة اعجابه بها
وبما فيها من اماكن رائعة في جمالها خلابة في حسنها . وكانت عيناه تلتقيان ، الفينة
بعد الاخرى ، بعيني جان فكان هذا يحدث بعض الاتفاق . . اما جان فكان
شعور فريد يعبر باحساسها اذ تتعرض لهذه النظرة الحاططة فتحول انظارها سريعا .
كان في نظرنه معاني الاعجاب الصريح والاستلطاف الواضح . .

واكتشفوا ، اثناء الحديث ، ان السيد دي لامار الاب المتوفي في العام المنصرم
كان يعرف احد اصدقاء السيد كوستو ، والسيد كوستو هذا هو والد البارونة .
وقد مهد هذا الاكتشاف السبيل لحديث ودي للغاية ونش تواريخ ووقائع وقرابات
لا يدرك لها آخر . وراحت البارونة تجهد ذاكرتها لتتبع سلسلة الاسلاف والاخلاف
مطوفة ، دون ان تجهد في مفاوز علم الانساب الكثير التعاريج . . .

— قل ايها الفيكونت . اما سمعتم يتحدثون عن آل (سونوا دي فارفلور) ؟
ان ابنهم البكر قد تزوج من آنسة ابنة آل (كورسيل) والابن الثاني تزوج من
ابنة عم لي تدعى الآنسة « دي لاروش اوبير » وهي قريبة آل « كيريزانج » ،
والسيد « دي كيريزانج » صديق حميم لأبيك وابي .

— اجل ياسيدي . أليس هو ، هذا السيد دي كيريزانج ، من هاجر وجمع
ثروة ثم جر عليه ابنه الدمار وقاده الى الاملاق ؟ ...

— إنه هو بعينه . لقد طلب يد عمتي بعد وفاة زوجها الكونت « دي ريثوي » ،
الا انها رفضته لانه كان يدمن استنشاق « السعوط » ! . او تعرف ، بهذه المناسبة ،

ماذا حل بآل « فيلوا »؟ لقد هجروا « تورين » سنة ١٨١٣ بعد ان خسروا ثروتهم واستقروا في مقاطعة « اوفيرني » ولم اسمع عنهم بعد ذلك شيئاً .
— اعتقد يا سيدتي ان المركز الكبير قد قضى متأثراً بسقوطه من على جواده تاركاً فتاة متزوجة من سيد انكليزي وأخرى مقترنة بتاجر غني يدعى السيد « بارسول » ويقال انه اغواها قبل ان يعقد له علماً ...
واستمر فترة طويلة يستعبدان مثل هذه الاسماء التي حفظاها منذ طفولتهما .
فقد كان لزوج افراد مثل هذه العائلات اهمية ينظرهم تعادل اهمية الاحداث العمومية الكبرى . كانوا يتحدثان عن اناس لم يعرفاهم ابداً كما لو كانوا لها اصدقاء ...
وشعرا بتقارب فكانها اصبحا صديقين حميمين قريباً ... لمجرد كونها ينتميان الى طبقة اجتماعية واحدة ولان دما متعادلا يجري في عروقها ...
اما البارون فكان ، تبعاً لطبيعته الاجتماعية ، مجهول كل شيء عن اسر المقاطعة فيسأل الفيكونت مستوضحاً بعض النقاط التي بود جلاها ...
واستخلص السيد دي لامار : — أه . ليس في المقاطعة كثير من الاسر النبيلة .

فالها بنفس اللهجة التي يقال بها : — ان الارانب قليلة العدد بالقرب من الشاطئ !
ثم راح يعطي التفاصيل والايضاحات معدداً الاسر النبيلة المجاورة للمنطقة ثم اشار الى ان بعض محدثي النعمة قد تسربوا الى المنطقة وابتاعوا ملاكاً هنا وملاكاً هناك ولديه عنهم المعلومات العذيرة .

واستأذن في الذهاب . وكانت نظره الاخيرة لجان فكانه ينصها بوداع لا يشاركها به احد وداع اشد حرارة واغوى عاطفة !
وعلقت البارونة بعد ذهابه : انه فتى محبوب .

فاجاب البارون : — بكل تأكيد . انه فتى كما يجب . حسن التربية مهذب .
ودعوه الى الغداء في الاسبوع التالي . ثم بدأ يزورهم في اوقات معينة .

كان يأتي ، اغلب الاحايين ، في الساعة الرابعة فيلحق بالام في «نزهتها» فيقدم لها ذراعه كي تقوم «بتمرينها» واذا كانت جان حاضرة اسندت امها من الناحية الثانية ويسير الثلاثة بخطى وثيدة من طرف الممشى الى طرفه ثم يعودون الى مثل ذلك مراراً وتكراراً .

وكثيراً ما التقت عيناها السوداء وان الحملبتان بعني جان العقيقتي الزرقه .
وقصد (لاور) مراراً برفقة البارون .

و ذات مساء جاءهم الاب (لستيك) وكانوا فوق (البلاج) يتمشون وقال دون ان يرفع من بين شذقيه غلبونه الذي يلزم وجهه كملازمه انقه له :
— نستطيع ، في مثل هذه الريح ، ان نذهب غداً الى (اترينا) ونعود دون عناء .
وضمت جان راحتها بضراعة وقالت : — آه .. يا بني ! الا تريد ؟ ..
واستدار البارون نحو السيد دي لامار وقال :

— اتوافق اها الفيكونت ؟ نذهب ونتغدى هناك ؟
وسرعان ماتم قرارهم على ذلك .

واستفاقت جان مع انبلاج الفجر واقامت تنتظر اباها وقد خيل اليها انه اطلال بارنداه ثيابه ...

ومشيا في ندى الفجر فاجتازا السهل ثم توغلا في الغابة المهترئة الاعطاف باناشيد آلاف الطيور .

ووجدا الفيكونت والاب لستيك جالسين بانتظارهما فوق آلة جر الاثقال .
وكان ثمة رجلان ساعدا البحار على الاقلاع . فدفعوا الزورق باكتافهم من المسطح الرملي فسمع له صوت كأنه تمزيق اشربة سمكة .. واستقرا اخيراً فوق زبد الامواج واتخذ كل مجلسه فيه بينما بقي البحاران الآخران على اليابسة .

كان نسيم رخوي متواصل الهبوب يأتي من عرض البحر فيجهد سطح الماء

فاتنفخ به الشراع قليلاً وانذاق الزورق فوق سطح الماء وتبدأ متهاذباً ...

كانت السماء تنخفض عند الاقتراف فتزج زرقتها بزرقة المحيط والشاطئ الصخري
يرسم فوق سطح الماء الصقيل ظلاً عريضاً متواجاً تبعاً لتجمعات اللجة الصافية ..
والمنحنيات المعشوشبة فيه تبع هذا الظل هنا وهناك يبع خضراء قائمة ... وكانت
اشعة سمراء لا تفتأ تخرج من ورائهم من مرفأ « فيكامب » .. وامامهم كانت ترتفع
صخور ناصعة اللون غريبة الاشكال ذات فجوات عراض يتسرب منها نور النهار .
وهي تشبه الى حد ما فيلا هائل الحجم يغمر الماء خرطوم الطويل .. انه مرفأ
« اترينا » الصغير .

اما جان فقد استحوذت على مشاعرها هدهدة النسيم وارجحة الامواج وكانت
منشئة بجانب الزورق شاردة بانظارها الى حيث ينتهي بها البصر .. وفكرت ان
اشياء ثلاثة في الكون حرة ان توسم بالجمال : النور الابلق والفضاء الازرق الفسيح
والماء الصافي الزجاج .

وهينم الصمت على الجميع . كان الاب لسنيك يدبر الدفة ومن حين لآخر
يخرج من تحت مقعده زجاجة يجرع منها جرعات ثم ينصرف الى عب الدخان من
غليون اسود له ثم ينفث من فيه ضباباً زرقاء من دخان ثم يرفع الغليون من بين
شفتيه ويصق من زاوية فمه مع الدخان سبلاً من لعابه الاسود ، الى البحر ...

اما البارون فقد جلس في المقدمة وراح يتأمل الاشعة الخافتة تحت
هبات النسيم . وجلست جان والفيكونت الواحد بجانب الآخر وجهما شيء من
اضطراب . ان قوة مجهولة كانت تحدهما الى رفع اعينهما الفينة بعد الفينة فتلقتي
انظارهما كأن ثمة هاتفاً غير منظور يدفعهما الى هذا العمل في اللحظة الواحدة . لقد
ولد بينهما هذا التعاطف الحار الذي لا يلبث ان يظهر بين شابين اذا كانت الفتى غير
قبيح والفتاة جميلة ... انها سعيدان هكذا ! ولعل هذا يعود الى ان احدهما
يفكر بالآخر ولا يفكر بسواه ! .

وارتفعت الشمس كأنها تهبو الى تأمل البحر المتبسط فتحتمها وهي في عليائها
ساجدة .. وكأن البحر شاء ان يعن في "الصد والدلال فتعجب بنقاب خفيف من
ضباب حال دون نفاذ اشعتها اليه .. انه ضباب خفيض شاف ذهبي لا يكاد يحجب
شيئاً ولكنه يضفي على الابعاد روعةً وجهاً ... وكان هذا الحجاب الفائق لم يرق
للشمس فرشتته بسلي من لهيبها فما لبث ان تبخر واضمحل وغدا البحر صقيلا كالمراة
تلتمع تحت دفق النور الساطع !

وهز هذا المنظر الحلاب جان حتى اعماق مشاعرها فهتفت : —

— حقاً انه لسحر حلال !

فاجابها الشاب : بل اروع من السحر واسنى !

لقد ايقظ صفاء هذه الصبيحية الندية في قلب الشابين فيضاً من الاحاسيس ذات
الصدى المتجاوب .

ولم يطل بهم الامر حتى شاهدوا اعمدة (اترينا) وكأنها ساقا الشاطيء الصخري
تخوضان عباب اليم . ورسوا بقرب الشاطيء .

وكان البارون اول من وطئ اليابسة . وبينما كان يجذب حبلا ليدنو بالزورق
من الشاطيء حمل الفيكوكت جان بين ذراعيه ووثب بها الى الارض كيلا تبثل
بالماء قدماءا ... ثم انطلقوا يصعدون في المرتفع الصخري سائرين جنباً الى جنب .
وحرك نخاس جسيما الوف الرغبات والبدوات فيها ..

وطرق اسماعهم صوت الاب لستيك فجأة وهو يخاطب البارون قائلاً ؟ !

— الا ترى انها بشكلا ت « زوجاً » جميلا على اي حال ؟ !

وتناولوا فطوراً شهيأ في فندق صغير قائم فوق رمال الشاطيء . وقد اعادت
المائدة الدسمة اليهم شوقهم الى الثروة بعد ان كان المحيط قد أستغرق كل مشاعرهم
فلزموا الصمت وهم محمولون على متن امواجه ... واندفعوا يلفطون كأنهم التلاميذ

اطلق سراحهم من المدرسة .. فان اتفه الاشياء لتوحي اليهم بمرح بعيد المدى
مقهقه الضحكات ...

وكانت حركات الالب اسنبيك من اشدد واعى ضحكهم ومرحهم فهو تارة يخفي
غلبونه في قبته وطوراً يعلنها حرباً لا هواة فيها على ذبابة عنيدة مانفكت تحاول
ان تحط فوق اتفه الضخم وقد جذبتها اليه حرته فخالته قطعة حلوى ...
لقد ضحكوا كثيراً .. ملء اشداقهم وملء قلوبهم !

وقالت جان بعد تناول التهوية : - لو خرجنا نترىض قليلا ...
ونفض الفيكونت مظهرآ استعدادده . اما البارون ففضل اخذ حمام شمس فوق
ارض الشاطيء الحصباء وقال : - اذهب يا ولدي على بركة الله وستجداني هنا
بعد ساعة ...

واجناز بعض اكواخ القرية سائرين لطينها . وبعد ان عبرا بقصر صغير اشبه
بالمزارع وجدا نفسيهما في واد مكشوف يمتد امامهما طويلا متعرجاً اشجر الجانبين .
كانت ارجعة البحر قد اثرت في اعصابها فافقدتها اترانها العادى كما فعل فيها
الهواء الملح فاشعرهما بالجوع ثم كانت المائدة الشبهة فادارت منها الرأس كما استخف
المرح والضحك اعصابها وارفقها .. وانها الآن ليشعران بشيء من الخفة والنزق
فيودان لو يركضان مندفعين في الحقول حتى يختفيا عن البصر ... وشعرت جان
باذنيتها تطنان وقد تبلورت فيها احساسات جديدة وامضة لم يكن لها بها
عهد من قبل ...

كانت الشمس تصلحها بفيض من اشعتها الشديدة الوطأة .. وعلى حوافي الطريق
تكدست كوم المحاصيل الناضجة وقد اثقلتها الحرارة فاحتت منها الرؤوس المنشرة .
والجنادب بينها تبالغ في طينيتها وهي كالرمل عدآ .. ففر من امام خطواتها متواثبة

مندفعة في كل اتجاه بين حقول القمح والشعير والنبات البحري القريب مائلة الجو
بصغيرها الضئيل الحاد المصم للأذان ...

ولم يكن يسمع ، عدا طنين الحشرات ، نأمة أخرى تحت السماء المشتعلة فيما
الشمس المتكبدة قبهتا الزرقاء المائلة الى الاصفرار كما لو كانت توشك ان تصطبغ
بلون قان شأن المعدن الدافي من حجر متقد الجذوة ...

ولها ، الى يمينها ، غابة صغيرة على بعد قليل فانطلقا اليها ..
وسارا في مفازة ضيقة تخرق الغابة وتفضي الى ظلال اشجار هرمة تحجب عنها
اشعة الشمس .

واحت جان برطوبة لطيفة تغمرها فتدغدغ بشرتها وتنفذ حتى رئيتها . وكانت
الارض عارية من كل نبت لانعدام نور الشمس والهواء الطلق ماخلا طحلباً كثيفاً
كان يغطي بقعاً هنا وبقعاً هناك

وقالت جان : - نستطيع اخذ قسط من راحة هناك !

واشارت الى مكان تقوم فيه شجرتان ضخمتان وارفتا الظلال الا انها تنفر جان
قليلا تاركين لنور الشمس طريقه الى الارض فيجيب فيها اميرات النبات اندي ابيض وازدهر
وابتسمت فيه اكمام بيض رقيقة الالهاب كانها غلائل من ضباب ، وقد هومت فوقه
حشرات تطن من نحل وفراش وغيرها من الدوبيات الملونة الاجنحة بالفلون بهيج .
وجلسا ورأساهما في الظل واقدامهما تحت وهج الشمس .. وتأملا بعجب كل
هذه الدنيا الصغيرة النشطة ومردها شعاع من الشمس !

وردت جان وقد اخذت بالمنظر الفريد : - يا للجمال ! بالروعة الريف ! كم
اود لو اكون نخلة او فراشة تختبيء في كأس زهرة معطار ! ...

وانتقلا الى الحديث عن شخصيهما : وصفا عاداتهما واذواقهما بلهجة هادئة حميمة
كما تسر النفس الى حديثها مادي من اسرارها الخاصة . وخلاصة رأييهما ان القرف

من المجتمع قد ادر كنهها وعملت الحياة المتكلفة الملوثة بها ارهاقاً .. تلك الحياة الرتيبة
السائرة على وتيرة واحدة من النفاق والدعوى فلا يجد المرء فيها بدوة مخلصه او
اشارة صادقة .

المجتمع ! انها ، في الواقع لم تخبره ! الا انها واثقة من انـه لن يجاري الريف
جمالاً وصفاء ...

وبقدر ما كانت نفسهما تتدانيان بقدر ما تشبها باستعمال الصيغة الرسمية في
تخاطبهما : سيدي ! آنستي !..

وكما التفت انظارهما تبادلا الابتسام فاحسار وحيما تفترجان من خلال الاعين !
حتى خيل اليهما ان روحاً جديدة اشد وضاءة وحسنأ قد تسربت الى صدرها فولدت
فيها شعوراً نحو اشياء لم يكونا ، قبل ذلك ، ليا بهان بها او يعيرانها اهتماماً . .
وقفلا راجعين . ولم يجدا البارون حيث تواعدوا . وعلما انه ذهب ماشياً الى
(قاعة الانسات) وهي كهف طبيعي بالغ الروعة معاق فوق احدى قمم
صخور الشاطيء .

ومكثا ينتظرانه في الفندق . الا انه لم يعد حتى الخامسة مساءً بعد جولة واسعة
على الشاطيء .

وركبوا الزورق وسار بهم سيراً رخيأ . وكانت الريح تهب باتجاه سيره فتدفعه
بلطف فلا يهتز ولا يضطرب حتى ليخيل للركب انه جامد في مكانه لا يتقدم . ثم
كانت الريح تترأخى فتترك الشراع يسقط ، بعد انتفاخه بها ، منها لكأ على طول
السارية .. وبدا اليم القاتم اللون خامداً لانفاس ، والشمس ، وقد افرغت على الارض
كل حيويتهما ، اخذت تنحدر في سيرها المنحني نحو الافق وبعدة متناقلة ...

وأخذ الجميع بروعة الطبيعة في ساعة الاصيل تلك فخيّم عليهم صمت لا يعكروه معكرو ..
وتكلمت جان اخيراً : - كم اتوق الى السفر !

فاجاب النيكونت : - لا بأس . الا انه ان دواحي المثل والذبح ان يسافر
المرء منفرداً والرفيق في الرحيل ضروري للمرء كيما يبادل اراءه وانطباعاته ..
وفكرت : - بالصواب نطق .. وبالرغم من ذلك .. فانا احب ان
اسافر منفردة .. فما اروع ان يحلم الانسان وحده !..

ورنا اليها طويلاً وقال : - ويستطيع كذلك اثنان ان يحلما سوية !
وغضت من ناظرها : اتراه يقصد معنى خاصاً رمز اليه ؟ ربما ...
وعادت تجول بعينها في الافق البعيد كأنها تبغى اكتشاف مادي فيه وسحق .
وعادت تقول بصوت متهرج : - كم اود لو اذهب الى ايطاليا .. الى اليونان ..
آه . اجل الى اليونان ! والى كورسيكا ! . فلا بد ان تكون هذه البلدان على قسط
من الجمال والفتنة يفوق كل تصور ..

اما هو فاعرب عن تفضيله لسويسرا ببحيراتها الساكنة وشلالاتها الصاخبة ...
اما جان فاصرت : - كلا .. كلا .. افضل بلاداً غذاء ككورسيكا .. او
عريقة مفعمة بالذكريات كالليونان . انه لمن اجل الاشياء ان يجد المرء نفسه وجهاً لوجه
امام تلك الاثار التي تركتها عبقرية اقوام درسنا تاريخهم منذ نعومة اظفارنا .. ان
يشاهد الامكنة التي رتعوا بين ظهرايتها والاشياء العظيمة التي خلفوها ...
وتكلم البارون بحماسة اقل : - اما انا فافضل انكلكترا لانها وسط ثقافي
لايضاى ...

ثم انطلقوا بطوفون في آفاق العالم وهم لا يبرحون مقاعدهم ... ناقشوا كل
ما في الاصقاع النائية من متع للعقل والقلب .. من القطب حتى خط الاستواء مرددين
ما علموه عن عادات غريبة وتقاليد اسطورية لبعض الشعوب المجهولة كالصينيين
واليابانيين ... وانتهوا الى القول ان اجل ظن وفي العالم هو وطنهم فرانساً باقلبيها

المعتدل ، الرطب صيفاً واللطيف شتاء ، بريفها الغني وغاباتها الخضراء ، بانهارها الثرة
الهائلة الجريان ، بفنونها الجميلة التي لم تنبتها ارض قط منذ عصر اثينا المجيد . . .

وعاد الصمت فخيم عليهم بعد ذلك . . وبدت الشمس الدانية من الماء كأنها
تشخب دماً . . . كانت تسحب وراءها ذيلًا من نورقان يتدفق صفحة المحيط لامعاً
رجراجاً حتى يلامس زورقهم المنزلق فوق الصفحة البنفسجية اللون . . .

وسكنت آخر هبة من ريع . . فغدت تجهيزات سطح الماء صفحة صقيلة لامعة .
وطفى على الشراع الساكن لون كأنه الارجوان الزاهي . وخيمت سكونية عميقة
على الكون بأسره . . . وبدا البحر كأنه العاشق العملاق يقيم صابراً بانتظار معشوقته
النارية التي لم تلبث ان انحدرت الى لقاءه وقد احمر وجهها وجدأ وحياء لدنو ساعة
العناق . . . وغلفها شفق احمر عريض وتم بينها الوصال ! . . الا انه ، وهو العاشق
الاناني ، لم يلبث ان افترسها وغيبها في العالم المجهول . . .

وهبت نفحة منعشة من الافق الغربي كأنها تنهدات المعشوقة تطلقها على الكون
دلالة على الرضى والارتياح ! . . . ولم يطل الامر بالشفق . فسرعان ما ارخى الليل
سدوله راعش الصدر بالنجوم الخوافق . . . وتناول الاب لستيك المجدافين وضرب
بها سطح الماء الذي كان في تلك الساعة يلتمع كأنه من فسفور .

كانت جان والفيكوت جالسين الواحد بقرب الاخر وقد أخذتا ينظر الانوار
المتلعة لا يلبث الزورق ان يخلفها وراءه . ولم يكونا في تلك الساعة مستغرقين
باحلامها المنحمة كعادتهما بل راحا يتذوقان بلذة جمال ذلك المساء المنعش . . . والقت
جان براحتها فوق حافة الزورق وشعرت باصبع جارها تزحف حتى تمس ظاهر كفها
حدث ذلك كأنه بمجرد الصدفة . . لم تبد حراكاً . . فقد وفرت لها هذه اللمسة
المباغنة سعادة عميقة واختلاجاً لذيداً . . .

ولما اوت ذلك المساء الى فراشها شعرت باضطراب غريب يمور به صدرها . .

الدعوة يخرجها ادنى شيء عن طورها . . .

هي تأثرة الاعصاب

هي نائرة الاعصاب خاضرة الدمة يخرجها ادنى شيء عن طورها ...
ونظرت الى ساعتها .. انها تدق كما يدق قلب عاشق .. وتأملت هذه الساعة
مفكرة : ستكون شاهداً في اتراحها وافراحها .. ورفعتها الى شفتها وطبعت فوقها
قبلة حانية .. انها على استعداد لتقبل اي شيء تجده في طريقها !
وعادت تفكر : اتراه الزوج المقدري بكتاب مكنون ؟ اي قدر خير قد
التمى به في طريقها ؟ اتراه الكائن الذي ابرأه الله خصيصاً من اجلها ؟ أهو الانسان
الذي ينبغي لها ان تكرس له وجودها ؟ اتراها المخلوقين المقدر لها ان يتحدوا منذ
الازل ويمتدوا الى الابد ؟ .. والحب ؟ سيصهرهما في بوتقته ويحبلهما شخصاً واحداً ،
روحاً واحداً وجسداً واحداً ؟ ولم تكن تلك الرعشات العنيفة قد عرفت طريقها الى
اعصابها حتى تلك الساعة .. الوجد والوله والهيام ؟ كلمات سمعت بها الا انها لم تبدا
قبل الآن قط !

لقد خيل اليها انها شرعت تحبه .. فهي تشعر ، اذ يراود طيفه احلامها ،
باستسلام واسترخاء ... ولشد ما كانت تحلم به ! اما لقاءه فكان يزيها طقلمها هزاً ..
فما ان تجد نفسها تحت وهج عينيه العميقتين حتى يعتورها احمرار يتلوه شحوب ..
وما يطرُق صوته اذنيها حتى تسري في جوارحها رعشة تهدهد اعصابها برفق
ولين ودغدة ...

لم تذق طعم الكرى ليلتها تلك الا غراماً ..
ان رغبته العارمة في ان تحبه تتفاقم يوماً بعد يوم . وكثيراً ما لجأت الى سبر
اغوار نفسها واستكناه خوالج قواذها .. وكانت تعمد الى الازهار تستشيرها ، او
الى الغيوم تسألها او الى قطع النقد تلقي بها في الفضاء ...

وقال لها ابوها ذات مساء : - تجلي في غد اذا اصبح جهد طاقتك .

وسأله : - ولماذا يا ابتاه ؟

فاجابها : - هذا سر لن اطلعك عليه الآن !

وعندما نزلت في الصباح رياء هفاة الاعطاف في هندام خلاب رأيت المائدة
متقلبة بعلب الحلوى وفوق احد المقاعد اخمامة زهر ضخمة رفاقة .

ولم يطل بها الامر حتى لحقت عربة ندخل الباحة متقلبة بالاطعمة والفاكهة والأفاويه .
وظهر الفيكونت دي لامار . كان يرغل في فاخر الثياب وقد بالغ في ثأفقه
حتى بدا كالرجال ذوي الست والشارة . كانت طلعتة رائعة وجماله أبدع مما اعتادت
ان ترى . ومرد هذا الاختلاف تغيير الهندام وهذه ظاهرة نلاحظها في اكثر الناس
دنوا منا . وشرعت جان نحدق به دهشة كأنها لم تره قبل ذلك قط . والفته رائعا
في صباه الرقيق الفياض الحليوية . انه سيدمن قمة رأسه حتى اخصبه !

وانحنى باسماء وقال : حسناً أنت متأهبة يا (اشيبنتي) ؟

ونمتت مستغربة كل ما يدور حولها : — ولكن ماذا هناك ؟ اي شي سيحدث ؟
ورد ابوها موضعاً : — ستعلمين توأ كل شي .

ونزلت مدام اديلاييد في هندام فخيم هي الاخرى ، تسندهاروز الي التي ابدت
اعجابها بهندام السيد دي لامار . ونحركات بهم مركبة مشدودة الجياد ...
وقال الاب مازحاً : — قل ايها الفيكونت . يبدو ان وصيفتنا قد اعجبت
بك ووجدتك موافقاً لذوقها !..

واخرج الفيكونت حتى اذنيه الا انه تظاهر بعدم الاصغاء وتناول اخمامة الزهر
الكبيرة وقدمها لجان فتناولتها وقد استبدت بها الدهشة . وقبل ان تسير المركبة
حملت الطامية (لوديفين) الى سيدتها حساء بارداً تستعين به على الجوع وقالت :
— لقد خيل الي ياسيدي ، في الواقع ، ان نمة عرساً !..

وهبطوا بالانجام (لوبور) .. وكانوا كلما تقدموا في شوارع القرية خرج البعازة
في ثيابهم التشبية يحيونهم من على عتبات بيوتهم ثم يسرون اثرهم كما لو كانوا في
حفل ديني .

وسار الفيكونت في الطليعة يتأبط ذراع جان التي لم تدر بما يدور حولها شيئاً .
وبلغوا الكنيسة فتوقفوا . وظهر الصليب الكبير بحمله الطفل خادم الاحتفال
ووراءه طفل آخر يحمل وعاء الماء المقدس غمست فيه مرشته . وتلاه هؤلاء منشدون
ثلاثة احدهم يطلع في مشيته . وظهر الكاهن اخيراً والشعار الذهبي يتأرجع فوق كرشه
المتكور وحيى بابنساء اتبعها باحناء رأسه . . . ثم سار يحف به واركان حربه !
مطبق الجفنين نصف اطباقة متجهاً نحو الشاطيء متمتعة شفتاه بصلاة مبهمه الكلمات .
وعلى الشاطيء وقف جمهور غفير ينتظر وقد احرق بسفينة جديدة زانتها
اكاليل ضخمة من ضروب الزهر وصنوف الاوراد وقد خفت فوق ساريتيها وحبالها
واشرعتها الاشرطة الملونة تتلاعب بها هبات الريح . . . وبدا اسمها باحرف مذهبة
تلتصع في مؤخرتها تحت وهج الشمس وتتألق بهاء وسنى . وقرأ الناس : « جان » .
كان الاب استيك ، قائد هذه السفينة التي بنيت على نفقة البارون يسير في
الطليعة . ورفع جميع الرجال قبعاتهم بحركة واحدة . وتقدم الكاهن بواكبه خادما
القداس فصعد الى ظهر السفينة وتبعه المنشدون فوقفوا في الجانب المقابل . وبدأ
الاحتفال وعلا الانشاد .

كان البحر في سجوه كأنه يشهد هو الآخر الاحتفال بتعميد ابنته الجديدة
ساكناً الا حركة خفيفة عند ملامسته حصى الشاطيء حيث تند عنه ضبعة مخنوقة
محشجة وكانت الطيور ذوات الاجنحة البيض تعبر الجو راسمة فوق زرقة
السماء دوائر ومنحنيات ثم تبتعد لتعود من جديد فتحلق فوق رؤوس الجماهير
كأنها تشهد هي الاخرى الاحتفال الفخم

وانقطع الترنيل بعد (آمين) استمروا يذبحرون بها خمس دقائق . . . وبصوت
رخو النبرات تشدق الكاهن ببضع كلمات لاتينية لم يفهم منها السامعون شيئاً ولم يعوا
سوى نهايتها الرنانة . . . ثم طاف مع حاشيته ارجاء السفينة ورش فوقها الماء المقدس .
وبلغ « الاشبين والاشبيته » فتوقف امامها وهم اجامدان ويد الواحد يد الآخر . . .

كان الشاب محافظاً على هدوء وجهه الجميل .. اما الفتاة فقد عصفت بها اضطراب
كاد يحمده انفاسها .. وراحت ترتجف حتى اضطكت اسنانها بصوت مسموع ...
ان الحلم الذي طالما راود مخيلتها في يقظتها ومنامها كاد ان يتقلب حقيقة واقعة ..
لقد سمعهم يتحدثون عن عرس .. وها الكاهن يبارك رجالاً في ثياب احتفالية منمتماً
صلواته ... اتراهم بزواجها هي يتحدثون؟!!

وانتفضت اناملها بشكل عصبي عنيف وكان هذه الانتفاضة قد انتقلت من
عروقها فبلغت قلب جارها . اتراه فهم؟ ام لعله استنتج؟ ان نشوة الحب قد اجتاحت
هو الآخر كما غمرت منها القواد والجوارح؟! او لعله يثق بفنتته واغرائه الذين لا تثبت
امامها امرأة قط؟!!

وانتهت الى انامله تضغط راحتها بلطف باديء بدء ثم ضاعف ضغطه حتى كاد
يلوي كفها ويحطمه .. ودون ان يتحدث وجها سمعته يقول فلا يسمع صوته سواها،
ولكن صوته كان واضحاً لا ريب فيه : - آه باجان .. لو شئت لكان هذا
العرس عرسنا! ..

وأحنت رأسها بحركة بطيئة جداً .. ولعلها عنت بها قولها : « نعم! »
وكان الكاهن ما انفك يرش الماء المقدس وعبر بها فتناثر الماء فاصاب رشاشه
اناملها! ..

وانتهى الاحتفال . ونهضت النساء من جثوهن . وكانت العودة فوضى ..
فقد انطلق المنشدون وحملة الصليب مسرعين وحث الكاهن خطاهم باثرهم .. اما البعارة
والجمهور فخفواهم الآخرون كي يدركوا مكان الوليمة فلا تفوتهم اطابيحها تلك الوليمة
التي طالما تحلب ريقهم بانتظارها ...

واقبست الوليمة الموعودة بالقصر . ومد الخوان الطويل في الحديقة وجلس
البارون في الجبهة المقابلة الى جانبه المختار وزوجته الريفية الهرمة الهزيلة تنثر تحيات
لأنهاية لها في جميع الاتجاهات .. كانت هذه المرأة القروية تتناول الطعام بضربات
سريعة متلاحقة كأنها تنفقه بانفها كاللدجاجة .

اما جان فقد جلست بقرب « الاشبين » وراحت تهيم في سماءات سعادتها البعيدة
الغور كأنها لا ترى بما يدور حولها شيئاً ولا تسمع بما يقال كلمة فهي صامتة ساكنة
وقد فعل بها السرور فادار منها الرأس وخدر الحواس ...

والتفتت الى جارها وسألته : — ما اسمك الصغير؟

فاجاب : — جوليان . الا تعرفين ذلك حتي الان ؟

وعادت تلوذ بالصمت تائهة في مهامه افكارها مرعدة بينها وبين نفسها : « كم
سأردد هذا الاسم الجليل في آثبات الايام ! »

وما فرغوا من الطعام حتي تركوا الحديقة للمدعوين وانطلقوا الى الناحية
الثانية من القصر .. وشرعت البارونة « بتمرينها » مستندة الى ذراع البارون يواكبها
السكاهن . اما جان وجوليان فقصدا الحديقة في اقصي الحديقة متبعين طريقاً مظلمة
تعانقت فوقها الاغصان . وتناول يدها فجأة :

— قولي . اترضيني زوجاً ؟

واكتفت باحشاءة من رأسها الضاجة فيه افكار من نار ..

وتابع في شبه توسل : — اضرع اليك ... اجيبي !

ورفعت نحوه عينها اللامعتين حبوراً ... وتركته يقرأ فيها الجواب ...



الفصل الرابع

البارون ذات صبيحة غرقة جان ولا تنهض بعد . وقال وهو

ودخل يجلس الى قدمي السرير :

- لقد تقدم الفيكونت دي لامار يطلب يدك ..

وبدرت منها حركة كأنما نود اخفاء وجهها تحت طيات اغطينتها .

وعاد ابوها يقول : - ... وقد ارجأنا اعطاء الجواب الى وقت آخر .

وشمرت بالتأثر يضغط انفاسها فلهث . و اضاف البارون بعد فترة باسم :

- لم نشأ ان نبت بالامر قبل استمزاك وأبك . اما امك وانا فلا نجد مانعاً
يجول دون اتمام هذا الزواج وان نكون ضمني الامل في انك ستجاري معنا في رأينا
هذا . لا بد من انك نظرك الى انك تملكين من التروة ما يفوق ماله منها اضعافاً
مضاعفة . . غير ان المرء الذي ينشد السعادة في الحياة فلما يتم بالمال وحده . واذا
رضيت به بعلاً فسيدخل هذا الفتى عائلتنا لأن ليس له اقرباء او اهل بينها لو تزوجت
سواه فستفادين بيت ابيك الى قوم غرباء . والخلاصة : ان هذا الفتى يرضينا . فهل
تراه يرضيك انت ؟

ونمتت وقد اعتراها احمرار صبغ وجهها حتى مفرقها : - انه يرضيني انا الاخرى
يا ابتاه ! ..

كان الاب ينظر اليها باعاق عينيه وقد افترت شفاهه في ابتسامة عريضة . قال :

- كنت اشك في ذلك بعض الشك ايها الانسة ! ..

واقامت نهارها سكرى بسعادة قلقة لاندرى معها ماذا تص
لا تلبث ان تتركه الى غيره بحركة آلية . واحست تمباً في ساقها وهي لم تمش ، وغلاً
في ذراعها وهي لم تقم باي عمل مضن .

وكانت جالسة وامها تحت شجرة الدلب وما ازفت السادسة مساء حتى رأتا
الفيكوت قادمأ . وراح قلب جان يحب وجيبأ عاليأ جنوبياً ... وتقدم منهما
الشاب لم يعره اضطراب . وما بلغها حتى هم بيد البارونة فقبلها ثم عطف الى الفتاة
فناولته راحة راعشة صب عليها قبلة طويلة حارة . فكأنه يقر لها بحسن صنعها ...

وبدأ عهد خطوبتهما السعيد غاصأ بالرؤى والاحلام .. فكأنما ينتبذان مكانأ
قصياً ينصرفان فيه الى الثروة العذبة الراضية . او يخرجان الى الحقول والجنان
فيجلسان فوق رابية معشوشبة او في روضة فواحة او امام الارض الفسيحة العذراء .
وكثيرأ ما تنزهها في « ممشى الام » فيروح يحدثها حديث المستقبل البسام بينما تنصرف
الى الاصغاء اليه بجماع قلبها وقد اخضوضرت الامال في نفسها الفتية العطشى ...
وكانت ، اذ تصغي اليه ، لاترفع ناظرها عن اثار خطوات امها فوق الاعشاب ..
وشاء جوليان تعجيل الفرحة الكبرى ماوسعه ذلك ووافق الجميع على ان
يكون الاحتفال في نهاية ستة اسابيع اي في منتصف شهر آب ثم يسافر العروسان
في « شهر العسل » .

عندما سألوا جان رأيا حول اي الافطار تفضل زيارتها في رحلة عرسها اعلنت
عن رغبتها القديمة في زيارة كورسيكا . ففي هذه البلاد البدائية يتاح للمرء الانفراد
والانصراف الى رفيقه اكثر مما يتاح له ذلك في مدن ايطاليا او غيرها من البلدان
المتمدنة .

ولم يفرغ صبرهما بانتظار اليوم الموعود ، يوم اتحادهما مرة واحدة الى الابد ...
ذلك انهما كانا في شغل شاغل بما وفرته لها فترة الخطبة من سعادة فياضة وامل مزدهر
بسام .. ولم يقتصر عهد خطبتهما على التعلل بالاوهام بل تذوقا نشوة التقبل الرطبية

وارتعشا لمتعة الدعاب البري. كضبط الاكف وتبادل النظرات المشوقة فتزج فيها
الروحان في صفاء كهفاء تلك النظرات . بينهما كانت الرغبة العارمة ، والنزعات
المبهمة تدبر رأسيهما دواراً هائلاً لا يجد ان منه منفلاً ولا الى اشباعه سبيلاً ...

وقررا ان تقتصر الحفلة على الحالة (ليزون) التي تعيش كسيدة لاجئة في احد
اديرة فرساي . وايزون هذه هي شقيقة البارونة وقد شأت هذه الاخيرة الاحتفاظ
بها بعد وفاة ابيها غير ان العانس فضأت الانسحاب الى مثل هذا المأجج وهو متصورها
انها ثقيلة الظل غير مفيدة لاحد ولا شك في ان الجميع ، وهذه حالها ، يرغبون عنها ..
واقامت في المأجج الا انها لم تنقطع عن زيارة شقيقتها فتضي لديها شهراً او شهرين
من كل عام .

والعمة ليزون امرأة ضئيلة الجرم ، قليلة الكلام ، سرعان ما تختفي فلا تعود
الى الظهور الا ساعة يدعوها واجب ادع . وهي نقضي معظم اوقات اقامتها لدى
شقيقتها معتكفة في غرفتها .

وبالرغم من انها لم تتجاوز الثانية والاربعين بدت هرمة الا ان طيبتها وسمت
بحياها يمس الجمال فعيناهما تضحكان حزناً ولطفاً . وهي لم تكن قط ذات موضوع في
العائلة او بين الاتراب . وحق عندما كانت طفلة لم تجد من يهتم بها او يقبلها لأنها
لم تكن على حظ من الجمال موفور . لذا كانت تلزم الزوايا هادئة مسالمة ومنذ ذلك
الوقت لبثت متوارية ، باهتة الشخصية ، منكرة لذاتها ... ولم يزداد الاهتمام بها حتى
بعد ان كبرت ونضجت انوثتها ..

انها اشبه بظل يعبر عبوراً خفيفاً لا يلفت اليه الانظار .. بل اشبه باحدى تلك
القطع من الاثاث فلا تثير اي اهتمام لكثرة ما اعتادها النظر والقها . اما اختها ،
البارونة ، فاستمرت تنظر اليها كما كانت تفعل وهما في البيت الابوي : نظرتها الى
مخلوق نافرص لا معنى له ابداً !

اما اسمها « فليز » ولشد ما سبب لها هذا الاسم القبي الرنان متاعب وازعاجاً .

لا انهم ، عندما ادر كوا انها لم تتزوج ولن تتزوج ابدأ حرفوا اسمها من ليز الى « ليزون » ومنذ مولد جان اصبحت « الحالة ليزون » .. وهي بالاختصار : قريبة متواضعة ، نظيفة ، رائعة في خجلها الذي لم يكن ليفارقها حتى حبال اختها وصهرها . اما هذان الاخيران فيكنان لها حبا حقيقيا يشوبه شيء غير قليل من عدم الاكتراث والتهاون في امرها .

و كثيرآ ما كانت البارونة تقول ، لتجدد وقتآ مامن اوقات طفولتها الاولى : .

— حدث ذلك عندما اصاب ليزون لوثنها ...

كانت تكتفي بهذا القدر من القول فلا تعطي ايضاحاً قط . وبقيت قصة هذه اللوثة التي نزلت بليزون مغلفة في ضباب السر المكنون ...

اما كيف حدث ذلك : فخلاصته ان ليزون الفت بنفسها ذات مساء الى البحر . كانت في ربيعها العشرين ولم يستطع احد معرفة الدوافع الحقيقية لمحاولة الانتحار تلك . لم يكن ثمة ما يشير الى مثل هذا المصير في حياتها الخاصة او بدواتها الظاهرة او بما ينم عن هذا الجنون المفاجيء .. وتلقفها الصيادون وهي تكاد تلفظ انفاسها .. ولم يمر اهلها الامر كبير اهتمام بل نقضوا ايديهم منه واكتفوا بالامشارة الى جنون ليزون كما يشيرون الى حادثة الجواد « كوكو » الذي كبا فكسر ساقه فاضطروا الى اعدامه لينقذوه من آلامه ...

ومنذ ذلك اليوم اخذوا عن ليزون فكرة ضعف العقل .. ومرعان ما سرى هذا (الاحتقار اللبق) من دائرة العائلة الى كل معارف العانس المسكينة . وحتى جان الصغيرة قد انسافت بحب التقليد الطبيعي لدى الاطفال ، الى عدم الاكتراث بالحالة ليزون . فهي لم تكن تذهب اليها قط فتعانقها في سريرها كفعلها مسع بقية اهلها . وحتى غرفتها قلما ولجتها . وكأن روزالي الطيبة هي الوحيدة التي كانت تعرف موقع غرفة الحالة فتدخلها لتهتم بتربيتها وتنظيفها .. وقد اقتضت علاقة جان بخالتها على تقديم جهتها لها لتطبع عليها قبلة عندما يكونون الى المائدة ...

لم تكن ليزون تشغل اي فراغ ، اديا كان او معنوياً . فهي من ذلك الضرب من
البشر الذي يمر فلا يؤبه به . . ولومات لما ترك فراغاً ذا بال في المحيط الذي يضطرب
بين ظرائفه . . ذلك الضرب الذي لا يوحى بسوى الاسف العابر . . انها ، بالاختصار ،
من تلك المخلوقات التي لانجيد ولوج القلوب التي تعيش بينها . فاذا ما قبل « الحالة ليزون » ،
فكان يقال : « ابريق القهوة او وعاء السكر ! » دون ان تترك هاتان الكلمتان
اثراً في النفوس قوياً كان او ضئيلاً . . .

ووصلت ، مثقلة بالهدايا ، وقد شارف تموز منتصفه . وكان اضطرابها متفاقماً
بسبب هذا الزواج المباغت . . اما هداياها فلم تستوعب كبير اهتمام لجزءاتها هي
التي حملتها . . .

وكادوا يتناسونها بعد يوم واحد على وصولها .

كانت لاتفارق بعينها الخطيبين الشابين ذلك ان شعوراً غريباً بدأ يخنمتر في
اعماق نفسها الممقدة . واندفعت تهتم « بجهاز » العروس اهتماماً فريداً محمواً . .
تمضي جل وقتها سجيئة غرفتها منصرفة الى الحياطة والنطريز . وفي كل لحظة كانت
تحمل للبارونة مناديل فرغت من تطريزها او ثياباً اخرى وشتما وزينتها بحروف
مطرزة . وكانت تسأل : - اهو كذلك يا اديلايد ؟

فتفحصها الام باكثر اقليل ونحيب : - لشدما تمنعين نفسك باليزون المسكينة !
وذات يوم من اواخر الشهر ، وكان القمر قد برغ رائعاً بعد يوم لاهب ،
والليل نيراً فاتر الانفاس ، انه من تلك الليالي التي تثير في النفس كل ما كنت من
مشاعر سرية سحرية . وهبت نفحات الحقول الندية فتخللت النوافذ وافعمت اجواء
البيت بشذى معطار . كان البارون وزوجته يلعبان الورق بتراخ تحت الدائرة المنيرة
التي يرسمها غطاء المصباح فوق الطاولة وقد جلست بينهما ليزون منهكة بالتطريز بينما
استند الشبان برفقيها الى حافة النافذة المفتوحة وغرقا في تأمل الليل الساجي والحديقة
المعمقة ضياء . . .

كانت خمائل الحديقة ترسم ظلالها فوق العشب شاحبة لامعة متحركة بهبات
نسيم الليل الرخي ... وجذب سناء الليل الشابين بجاذب لا يقاوم ..
واستدارت جان وخاطبت اباهما قائلة : - سنقوم بنزهة بالابتاه امام القصر
فوق العشب الندي ..

فاجاب البارون دون ان تفارق انظاره الورق : - امضيا يا ولدي ..
وعاد الى شأنه . وخرجا فسارا بخطى وثيدة فوق المرج المنور الجنبات حتى
بلغا الحيلة الصغيرة في الطرف الآخر من الحديقة . ومرت الساعات لا يفكران
بالعودة . وادرك البارونة التعب فشأت ان تصعد الى غرفتها الا انها تنهت الى
غياب الخطيبين فقالت :

ينبغي مناداة العاشقين !

وأجال البارون ناظره في ارجاء الحديقة فوقعت عيناه عليها يشيان بهدوء متخاصرين .
قال : - دعيهما . ان الجو على غاية من الجمال في الخارج . ستقيم ليزون
بانتظارهما . البس كذلك ياليزون ؟

ورفعت العانس عينها القلقتين وقالت بصوتها الخمر :

- بكل تأكيد . سأنتظرهما ..

ونفض البارون وزجه وكان هو الآخر يشكو صداماً اورثه اياه حر النهار
واعلن وهو يخرج عن رغبته في ان يأوى الى فراشه حالاً . وانطلق يزوجه .
وبعد خروجهما نهضت الحالة ليزون تاركة فوق ساعد المقعد شغلها الصوفي
وابرتها الضخمة وجامت تستند برفقها الى حافة النافذة وتبجل في الليل الخلاب
نظراتها الوجلة ...

كان الخطيبان يشيان فوق المشائش لا يدركهما غناء او نصب ، ذاهبين جاثين
في المشى الطويل . وكانت راحتاهما متعاقبتين وقد خيم عليهما العمت وكانت

روحها قد انطلقتا الى اجواء علوية فامتزجتا بالنفخ السحري المنبثق من الارض .
ولمحت جان بغتة شبح الحالة العانس يرسمه نور المصباح في اطار النافذة المفتوحة المصراعين .

قالت مخاطبة رفيقها : — انظر ! الحالة ليزون تراقبنا ...

ورفع الفيكسوت رأسه وقال بصوت خارج عن حيز ارادته :

— اجل ! الحالة ليزون تراقبنا ...

كانت رطوبة ناعمة ، منبعثة عن ندى يفسر الاعشاب ، قد غشت في مشاعرهما
ودغدغت حواسها ...

وتابعا مشيهما الوئيد .. الهين .. حالمين ...

قالت : — لنعد . لقد طال بنا الغياب ..

وعادا على اعقابها ...

كانت الحالة ليزون قد رجعت الى ابرتها وصوفها ، عندما دخلت الردهة ، حانية
الجهة مرتجفة الاصابع المزيلة كأن بها برداً يرعشها .

واقتربت إجان وقالت : — سنأوي الى مضاجعنا الآن ايها الحالة .

واستدارت اليها العانس برأسها كانت عينها حراوين كأنها قد ذرفت دمعاً
غزيراً . الا ان ذلك لم يستوعب انتباه العاشقين . وتنبه الشاب فجأة الى ان حذائي
حبيبته الدقيقين قد بللها الندى فادركه لذلك قلق وخاطبها بحنو :

— الان تحسين برداً في قدميك الصغيرتين العزيزتين ؟

ولدى سماع هذه الكلمات اهتزت اصابع الحالة اهتزازاً شديداً جعل النسيج
يفك منها فتنداح كرة الصوف فوق البلاط بعيداً ... وحملت راحتيها بسرعة الى
عينها واندفعت في بسكاه عصبي مرير ...

وجهد الخطيبان وهما ينظران اليها مندهشين . وخفت اليها جان وركعت

بفرجها ونذاوات ذراعها وقد استبد بها الاضطراب واندفعت تقول : ايتها الحالة
ليزوت !.. ماذا دهاك ؟ ماذا دهاك ؟. وجمجت الفتاة المسكينة بصوت غارق
بالشهقات والزفرات :

-- لقد سألك : ه الا تشعرين بي .. ر .. د .. في ... في .. قدميك
العزيزتين ؟ ... ، اما انا فان احداً لم يقل لي مثل هذا القول مطلقاً ... مطلقاً ...
واذكرت جان ، رغم دهشتها وحنوها ، رغبة عنيفة في الفقهة اذ خيل اليها
انها ترى عاشقاً يغازل ليزون .. اما الفيكوت فقد استدار ليخفي ابتسامة عريضة
هازئة ...

ونفضت ليزون فجأة فتركت صوفها فوق المقعد وانطلقت الى غرفتها لا تلاوي
على شيء ... وبقي الشبان منفردين يتبادلان النظرات وفي صدرهما حب يعتلج
وهيام يفور ...

ووجدت جان نفسها تردد : - باللعالة المسكينة ! باللعالة المسكينة !

وعلق جوليان : - بخيل الي ان اللوثة قد عاودتها هذا المساء !

كانا متهاسين بالا كف دون ان يحزما امرهما على الافتراق .. وهدهو .. وهدهو ..
كاي .. تبادلنا قبلتها الاولى ... امام مقعد الحالة ليزون الخاوي ... دون ان
تراود دموع العانس المسكينة خاطرهما بعد ذلك .

لقد حمل الاسبوعان الاخيران هدهو الى نفس جان انساها ثورات عاطفتها فيما
مضى من ايام .

لم ينح لها وقت للتفكير حتى صبيحة اليوم الفاضل ... وشعرت بتخاذل في
قواها وهوار يجتاح رأسها وانحطاط جسدي خيل اليها معه ان لحمها وعظامها قد ذابت
فلم يبق منها اثر تحت جلدها ! ولحظت ان اناملها ترنمش وتنفض كلما همت بتناول شيء ..
ولم تعاودها سكينتها الا امام المذبح يوم الاحتفال .

تزوجت ؟ اجل لقد تزوجت ! وهكذا انتهى كل شيء في مثل ايامه !
لقد بدا لها هذا التداخل والاختلاط في الاحداث منذ الصباح ، والمفاجآت
المتوالية ، كأنها اضغاث احلام . ان الاشياء ، مهما كانت معتادة ، في مثل هذه
المواقف الفاصلة ، ذات لون جديد ومعنى غير معروف . الكلمات والاشارات وكل
شيء .. حتى الوقت لا يظهر لنا سائراً في طريقه المعتاد ...

انها مضغعة الفكر ، ضالة التفكير ، زائفة البصر ...

وهبط المساء ليجمل البهاية راحة او اي تخلص من القلق ! .. وكل ما في
الامر ان آمال حياتها الموعودة بدت لها دانية القطوف بانهة الثمرات قريبة المنال !
لقد رقدت امس في فراشها فتاة عذراء ضاح صدرها بالرغاب .. وسترقدها
المساء لتستفيق امرأة ذات بعل .. ياله من تاريخ في حياتها فاصل خطير ...

لقد عبرت اذاً هذا الحاجز الذي يجلب كل ما في المستقبل من متع ومسررات
وسعادة طالما حملت بها الفتيات اذا ما خلين الى مضاجعهن ! لقد فتح امامها الباب
السري .. وهامي توشك ان تاج العالم الجديد الذي طالما راودها في احلام يقظتها ومناهما !
وانتهى الاحتفال . وعادوا ادراجهم عبر المعبد شبه الفارغ فقد اقتصر الحفل
على عدد ضئيل من المدعوين ...

ما ان ظهر العروسان على باب الكنيسة حتى عكر الفضاء رشق من طلقات
نارية عبر بها الفلاحون عن ابتهاجهم بالحدث السعيد .. وواكبوا الحفل مستمرين
باطلاق النار حتى بلغوا القصر وقد تقافم دعر البارونة لهوت النار ...

وقدمت وجبة خفيفة للعائلة وكاهني شاتلات وإبور والشاهدين الذين تم اختيارهما
من فلاحي الجوار . وقبل ان يجلسوا الى المائدة قاموا بجولة في ارجاء الحديقة .

كانت هتافات القرويين المتعالية من الناحية الاخرى للقصر تشق عنان السماء
ونصك الأذان يعبرون بهذا الضجيج المصم عن ابتهاجهم وقد تحلقوا حول اسطلة

أطعام والحرق المدودة تحت أشجار التفاح . لقد عم الفرح كل المنطقة ولم يبق صر على الكبار بل تعداهم الى الاطفال الذين نوافدوا متواكضين متلاحقين حتى كادت تنص بهم الحديقة على اتساعها ...

اما جان وجوليان فقد عبرا الحديقة واجتازا الخائل ثم تسلفا الرابية المشرفة على البحر وراحا ، صامتين ، يتأملان المائج الازرق . . .
كان الجو ، رغم اننا في منتصف آب ، على شيء من البرودة فريح الشمال تنفخ والشمس تلتصع حادة في كبد سماء صافية الزرقة .

و شاء العروسان اللجوء الى مكان ما هربا من الشمس ، فاجتازا المنبسط الرملي وانعطفا الى اليسار باتجاه الوادي المتعرج المشجر والمأبط نحو الجبور

وما ان بلغا الادغال الملتفة على جانبي الوادي وتوغلا فيها حتى شعرا بالهواء يخنق فلا تب عليها نسمة ، فعادا عن الطريق ليتخذوا سبيلاً ضيقة عبر الاغصان المتعانقة . كافا يتقدمان بعناء ومشقة . والتفت ذراع جوليان حول خصر عروسه . كانت صامتة ، لاهثة ، متوتبة القلب متقطعة الانفاس . وداعبت الاغصان الدائبة شعرا ، ولاست منها الوجه والنحر ... ومدت يدها فقطفت ورقة فاذا بمحشرتين ملتصقتين فوقها ..

قالت بهدوء وبراعة : - هي ذبي عاتلة !.

ومس جوليان في اذنها : - ستكونين هذه الليلة امرأتي ...

صحيح انها كانت قد عرفت اشياء كثيرة عن الحياة الجنسية تعلمتها في الريف ، الا انها لم تكن تحلم من الحب بغير ما فيه من شاعرية وروحانية ... لقد ادهشتها قوله : امرأته !؟

ولكن الم تصبح امرأته حتى الآن ؟!

وراح يكسو عنقها وصدغها وشعرها الاجعد اللعات قبلاً قصيرة سريعة .

ومالت برأسها محاولة نحاشي هذه القبل ، قبل رجل .. ومع ذلك فقد طغى عليها
تأثير مفاجيء . لذيد .

وما لبثا ان وجدا نفسيهما في اقصى الغابة . فتوقفت دهشة لما قطعاهما من مسافة .
ماذا سيقولون عنهما ؟ قالت : لنعد .

وجذب ذراعه التي كانت تلف خصرها وتصر قوامها اللدن العود ، اللين المحس ،
واستدار فتواجهها واحسا بانفاسهما تلهب منهما الزوجين .. وتبادلا نظرة ! نظرة ثابتة ،
حاددة نفاذة ، مزجت منها الروحين .. وراحا يبحثان في اعماق اعينهما ، فيما وراء
سوادها ، في ذلك العالم الانساني المجهول الخفي . وراء المقل ، محاولين سبر تلك الاعماق
واجتلاء تلك الآفاق باصرار وغناد .. ماذا سيكون الواحد منهما بالنسبة للآخر ؟
كيف ستكون هذه الحياة التي كتب لها ان يقضياها متلازمين لا يفترقان ؟ هذه
الحياة التي يطلقون عليها « الزوجية » ؟ وادرك الواحد والاخر انه لم يعرف رفيقه
حق المعرفة حتى الآن .

والتي جوليان بذراعيه فجأة الى كتفي زوجته ورشقها بقبلة حارة عميقة كالم
تذق مثلها قبل الآن .. واحس ، وهو مطبق بثفره فوق ثغرها ، نارا اكولة
تلهب شفتيها الشهيتين .. وتغلغل هذه القبلة في عروقها وتمشت في اعصابها ...
فادر كنها هزة عصبية وانتفاضة مباغتة من العنف بحيث دفعت جوليان عنها بجماع
قواها فالقت به ارضا .

وارتبكت .. غير انه هب واقفا .. فتمتت : - هيا بنا . هيا بنا .

ولم يجبها واكتفى باخذ يديها بيديه واحتفظ بهما مدة ثم قفلا راجعين .

وسارا صامتين حتى بلغا المنزل . ومر بعد الظهر طويلاً بملأ .

وجلسوا الى المائدة عند هبوط الليل . كان العشاء بسيطاً قصيراً على غير
ما جرت عليه العادات النورمندية . وقد خيم شيء من الضيق على المدعوين . اما

السكاهنان والمختار والفلاحون الاربعة فقد كانوا على شيء من الابتهاج الذي يرافق الاعراس عادة غير ان الضحكات لا تلبث ان تموت فوق الشفاء اذ تحرقها احدى تلك المختار السمجة . وحوالي التاسعة قدمت لهم القهوة . واما خارجاً ، تحت اشجار التفاح فقد بدأ الرقص القروي ... كان المشهد يظهر بوضوح من النافذة : عشرات القرويين والقرويات قد انتظموا في حلقة الرقص الربيعي الجميل على ايقاع الاناشيد والاهازيج البلدية المثيرة لكوامن الاحساس .. وكان في الحشد حملة المشاعل بنيرون الحلبة للراقصين والراقصات . وصاح المختار وقد استبد به الطرب : - يا للسماء ! كل شيء على خير صورة ! كأننا نشهد احد اعراس « كاناش » !

وتجاوبت ضحكات مكبوتة .. وعارض الاب ييكو العدو الطبيعي لكل سلطة مدنية :

- تريد ان تقول عرس « قانا » ؟

ولم يرق الاعتراض للمختار فاجاب : - كلا ياسيدي السكاهن . لقد قلت « كاناش » وانا اعني ما اقول .

ونمضوا وعبروا الودعة ثم انصرفوا الى جماهير الشعب الطروب فاختلطوا بها . ولم يطل الامر بالمدعوين فانصرفوا .

لودنا احد من البارون والبارونة في تلك الساعة لسمعها يتشاجران بصوت خفيض .. فمدام ادبيلايد ترفض بشدة وبثورة اعصاب الاستجابة الى ما يطلبه زوجها وانتهت بان رفعت صوتها بعض الشيء وقالت :

- كلا باصديقي . انا لا استطيع . لا اعرف كيف اقوم بمثل هذه المهمة الوعرة المسالك !

وانصرف عنها الاب . ومشى الى جان وخاطبها قائلاً : - أتريدين يا بيفيني مرافقتي في نزهة قصيرة ؟

واجابت وهي تنهض متأثرة : - سمعاً وطاعة يا ابي . وخرجوا ..

ولفمهما هواء جفاف هب عليهما من ناحية البحر ، هواء بارد يهب في اواخر

الصيف معلناً دنو الحريف وكانت الغيوم المكمدة متلاحقة في اعالي السماء تخفي
النجوم تارة وتسفر عنها اخرى ..

وضغط البارون ذراع ابنته فوق صدره وشد على يدهما بجنود ورفق عظيمين .
وسار بها بضع دقائق .. صكان على اضطراب وتردد كبيرين .. وحزم امره
قليلاً وقال :

- اسمعي يا جميلتي . سأقوم الآن حيالك بواجب عسير كان الحري بامك القيام
به الا اني ، وقد رفضت امك ، لم اجد مناصاً من اتمام المهمة بنفسي . ثمة اسرار يجهد
الاهل باخفاؤها عن الاطفال عموماً والفتيات منهم خصوصاً .. ذلك ان الفتيات تفرض
فيهن الطهارة والنقاوة وصفاء النفس حتى الساعة التي يأخذهن فيها الاهل ويلقوهن بين
ذراعي الرجل الذي يتوسمون فيه اسعادهن . ان مهمة امانة اللثام عن اسرار
الحياة الزوجية الجميلة تقع على عاتق الرجل . بيد ان كثيرات من الفتيات يثرن في
وجه الحقيقة الكبرى اذ يصدمهن شيء قليل من قسوة تختبيء دوماً وراء الاحلام
وتتوارى ابدأ خلف الاماني العذاب .. ذلك انهن ، يا جميلتي ، يكن صفحة ناصعة
لم يחדشها مخدش .. وتأتي ساعة يجردن انفسهن فيها وقد دميت منهن الارواح
والاجساد فينهدن الى رفض حق طبيعي للرجل اقرته قوانين البشر واقوت به
نواميس الطبيعة الحكيمة .. لا استطيع الايضاح باعزيزتي ولا الاستفاضة بالحديث
غير اني لأرى مندوحة عن تذكريك بانك غدوت مدكاً حلالاً لزواجك جسداً
وروحاً يتصرف بكيانك المادي والروحي تصرف المالك المطلق ..

ماذا فهمت من الموضوع ؟ ماذا استخلصت من هذه الاقوال ؟ لقد أحست
رعشة نهز كيانها هزاً عنيفاً غدت معها كريمة في مهب ربيع صرصر ... وجشت
فوق صدرها كآبة خانقة كأنها حدس ونبؤة عما يجنيء لها مستقبلها المجهول الذي بدأ
ينكشف لها منذ هذه اللحظة على جهومة وقبح ..

وعادا الى المنزل وسمرنها فوق العتبة مفاجأة : كانت السيدة ادبلايد قد
انخرطت في البكاء المرير فوق صدر جوليان ..



كانت نشيجها صاخباً ضاجاً كأنه يخرج في وقت واحد من انفها وعينها وفمها
اما الشاب فكان مرتبكاً ، برماً ، يسند حماته الضخمة الجثة بذراعيه .. وكانت
تقطع زفراتها الفينة بعد الاخرى ، لترصيه بابنتها المعبودة .. بعزيمتها الوحيدة .. جان ..
وبادرها البارون قائلاً : - دعينا من هذه المشاهد المسرحية ! .. ارجوك ..
هدئي فيضان هذه العواطف الدافقة ! واخذها بذراعها فأجلسها فوق مقعدها بينما
انشغلت هي بمسح الدموع المذرفة فوق وجهها المليء المتورل . ثم التفت الى جان
واهاب بها قائلاً : - هيا يا صغيرة ! قبلي امك واهضي الى فراشك .
كانت توشك ان تنفجر باكية .. فاسرعت بتقيل والدتها وانطلقت مسرعة
لانتلوي على شيء ..

اقام البارون وزوجته مع جوليان على انفراد فاحالة ليزون قد اوت هي
الاخرى الى فراشها . كان الثلاثة على شيء من الاضطراب حتى ان احدهم لم يذبت
ببنت شقة . كان الرجلان واقفين الواحد ازاء الآخر وهما بلباس السهرة . اما
البارونة فكانت جاثمة فوق مقعدها تجتر من حنجرتها بقايا الشهقات والزفرات ..
وطال بهم الصمت حتى غدا ثقيلاً لا يحتمل ، واثار البارون موضوع الرحلة
التي ينوي العروسان القيام بها بعد ايام قلائل .

وامتسحت جان الى وصيفتها الباكية روزالي ، فخلعت عنها ثيابها ...
فكانت اصابعها المضطربة تبحث هبشاً عن العرى والازرار والمشابك .. انها ولا
ريب اشد اضطراباً من سيدتها . اما جان فلم تكثر مطلقاً بدموع الفتاة . فقد خيل
اليها انها ولجت عالمًا غير العالم الذي عهدته ، انها حملت الى ارض غير الارض التي
اعتادتها ، انها فارقت كل ماشغفها في ماضيها واحبته بجماع فؤادها ، كان كل شيء
يبدو لناظرياً ، منقلب الاوضاع .. كل شيء .. حتى افكارها .. ونساءات مراراً
وهي تستغرب مثل هذه الفكر : « اتراها تحب زوجها ؟ »

في الواقع انه بدا لها كأنه غريب لم تعرفه قبلاً .. لم تعرفه الا لماماً .. فقبل
ثلاثة اشهر لم تكن تشعر بوجوده لم تكن تعلم انه يعيش وبضطرب في عالم الاحياء ..

وها هي الآن ... زوجته ! .. امرأته ! .. ملكه ! .. لم هذا يا الله ؟ لم يسقط
المرء في احبولة الزواج كما في هوة فاعرة تحت قدميه ؟

وما فرغت روزالي من الباسا اوردية نومها حتى خفت الى فراشها فانزلت بين
طياته فشعرت رعشة باردة تمشت في اوصالها للامسة الاغطية الباردة ، فضاغت هذه
الرعدة شعورها بالبرد والوحشة . هذا الشعور المقبض الذي عرف طريقه الى
روحها منذ ساهتين .. منذ ان انفرد بها ابوها ..

واختفت روزالي وهي لانفك تذرف الدموع ، اما جان فاقامت تنتظر ..
اقامت تنتظر ، متوقفة الاعصاب ، معتصرة الفؤاد ، هذا الجهول المنتظر الذي
اخطرها به ابوها بكلمات مبهمة مقتضبة ، هذا الشيء السعري .. سر الحب الاكبر ..
وسمعت بابها يقرع ثلاثاً .. دون ان يسبق القرع خفق خطيئاً او وقع
اقدام .. وانتفضت مرتاعة ولم تجب .. وعاد القرع يعلو .. ثم ادير المقبض ...
وسارعت باخفاء رأسها تحت الاغطية كأن سارقاً وليج غرفتها .. ودنت منها خطيئاً
خفيفة الوقع .. واحتت يداً تلمس سريرها ..

وقمشت في اعصابها وعدة عنيفة كعدة المقرور .. ولم تستطع امساك صرخة
قصيرة ندت عنها وازاحت الغطاء عن وجهها فاذا بها وجهها لوجه امام جوليان وهو
يرنو اليها باسماء بشره .. قالت : - آه ! لكم اخفقتني !

فسأل لانفارق ابنسامته الشهوانية شفتيه : - اذاً انت لانتظرينني ؟
لم تجب فقد اعتراها خجل هائل عقد لسانها اذ وجدت نفسها مضطجعة امام
مثل هذا الرجل المهذب ..

كانت ، في زينتها القليلة الكاملة ، براءة الحسن فسيمة الوجه ..
ومكثت صامتة لم يؤاتها مانقول ، ولم تعرف ماهي فاعلة ، دون ان تجرؤ
على رفع عينها اليه او خفضها الى نفسها .. بالساعة الجدية الفاصلة ان سعادتها في
حياتها المستقبلية مرتبطة بهذه الساعة اشد ارتباطاً !
ولعله ادرك ، هو الآخر ، اي خطر تنطوي عليه مثل هذه الحركة ...

وما تتطلب من سيطرة تامة على نفسه واعصابه ، ونعومة مخافته في تصرفاته وبدواته ، فعليه تجنب خدش خفر عروسه ورقة حاشيتها ومثالية روحها العذراء التي طالما غدتها الاحلام وهددهتها الاماني .

وبهدوء تناول راحتها فلثم اناملها ثم جثا بالقرب من السرير كأنه امام مذبح وغم بصوت خفيض كالهمس :

— اتريدين مبادلتي الحب ؟

اعادت هذه الكلمات اليها هدوء روعها فرفعت اليه رأساً غارقة بالدنتلا وقالت باسمه الثغر :

— لقد احببتك يا صديقي .

وعاد يرفع الى سفتيه اناملها الرقيقة .. وقابع بصوت غير نبرات غليان دماؤه في عروقه :

— او تريدين تقديم البرهان على ماتقولين ؟ ..

لم تدرك تمام الادراك مارمى اليه .. الا انها عادت نحس الاضطراب يأخذ مجامع نفسها . وتذكرت كلمات ابها فاجابت : — اني لك يا صديقي !

وكسا راحتها بقبله الندية ثم استقام قليلا وزحف يدنو من وجهها الذي عادت تخفيه من جديد ، والقي باحدى ذراعيه فوق الاغطية بينما انزلت ذراعه الاخرى تحت الوسادة فرفعها والرأس التي فوقها ، وبصوت خفيض سأل عروسه : — اتريدين اذاً ان تفسعي لي مكاناً صغيراً بالقرب منك ؟

وشعرت بالخوف يفزو فؤادها ، خوف غريزي ، وغممت :

— آه . ليس الآن .. ارجوك ..

وكانه اخذ بقولتها على حين غرة ، فاعتراه شيء من اضطراب ، وعاد يقول بصوت مسترحم الا انه قوي النبرة :

— ماجدوى التأخير يا عزيزتي ونحن بالعين ذلك عاجلاً او آجلاً ؟

وشامت الرد عليه الا انها حزمت امرها على الاستلام .. فعادت تردد :

- اني لك يا صديقي ..

وسرعان ما اختفى في غرفة الزينة ، وكانت نسمع بوضوح حفيف ثياب تنفسي ،
ورنين نقود في الجيوب ، واخيراً سقط الحذائين المتتابع .. ورأته يجتاز الغرفة
بغثة وهو في مبادله ويضع ساعته فوق المدفأة واستدارت جان وقد اغمضت عينيها
اذ احست به يبلغ السرير .. وانزلق فيه الى قريبا وغمر عنقها بقبلات نعمة ..
وادركها رعب رعب ورغبة غنية بالوثوب من السرير والانطلاق من الغرفة
والاختفاء بعيداً عن هذا الرجل .. واستكان جوليان بقرنها لحظة . فافروا ..
ورأت ان ليس امامها الا الاستدارة اليه ومعانقته ..

وقال لها بصوت حزين وكان جام صبره قد فرغ :

- انك لاتودين اذاً ان نكوفي امرأتى الصغيرة ؟

واجابت متمتة خلال اصابعها : - اولست لك امرأة ؟

فعاد يقول منزعجاً : - كلا يا عزيزتي . انك تهزئين بي !

وحركت نبرة صوته الحزين اعماق نفسها فاستدارت اليه لتستمعيه عذراً
فاحتواها بذراعيه وراح يغدق على وجهها وعنقها قبله الالهة العطشى ... وتركت
ذراعيها تسقطان وهي لاتدري ما ينبغي لها ان تفعل فقد كانت افكارها من الاختلاط
بحيث لم تعد تفقه شيئاً ..

ومزقها بغثة الم حاد .. واعتصرها جوليان بين ذراعيه بقوة فراحت تئن
انيناً موجعاً .. ثم امتلكها بعنف شديد ..

ماذا حدث بعد ذلك ؟ انها لاتذكر شيئاً فقد فقدت ذاكرتها تماماً .. وكل
ما علق في خلدائها انه كانت يطر شفتيها بوابل من قبل فصيرة حانية اعترافاً منه
بجميلها .. ثم كان عليه ان يخاطبها وان تجيبه .. ثم عاود محاولاته فقاومه هذه المرة
بعنف عنيد ..

وفكرت آتئذ وقد تغافل البأس حتى اعماق نفسها ، فقد تصورت سكرة
الحب الكبرى على غير ما رأت من عنف ووحشية ! فكرت : هذا اذاً ما يسميه :

ان اصبح امرأته !؟ انه هذا ! انه هذا ! واستمرت على مثل هذه الحال من اليأس
القاتل بينما استكان هو فوق ظهره وقد يأس من امتلاكها مجدداً ..
كانت مضضعة الحواس وعيناها الزائعتان تهبان فوق الطنافس السكسية
الحائط .. الحاملة اساطير الحب ... الحب ! ياله من شيء قاس وحشي ! الا لقد
كذبت الاساطير !

واحت جوليان ساكناً هامداً فرنت اليه بهدوء قادر كـت انه قد استسلم
الرقاد ! كان بنام مفتوح الغم نصف انفتاح .. هاديء التقاطيع كل الهدوء ! ..
انه ينام ! ..

لم تعتقد انه يفرق في سباته بهذه السرعة ! ان في عمله هذا لاهانة لها ! اهانة
آلمتها اكثر من وحشته بامتلاكها ! او يقوى على الرقاد في مثل هذه الليلة ! افلا
يحمل ما حدث اي معنى مثير في نظره ؟ ! آه لشد ما كانت تفضل لو هاجمها ، لو
اغتصبها مجدداً ، لو اثخنها بدعابه الكريه حتى تفقد الوعي وتخلو من الشعور .
واستمرت في سكونها ، مستندة الى احد مرفقيها ، منحنية فوقه ، مصغية الى
توديد انفاسه خلال شفتيه ، هذا التوديد الذي كان ينقلب ، حيناً بعد حين ، شخيراً
مرتفعاً منفراً !

وانبلج الصبح ، شاحباً اول امره ، ثم اسقنار ووضع .. وردياً ثم قانيداً
فساطعاً .. وفتح جوليان عينيه الثقلي الا جفان ببقية من نعاس .. وتناهب ..
ومطى بذراعيه .. وروا الى امرأته وابنسم وسأل : - أنمت جيداً يا حبيبتي ؟
ولحظت انه يخاطبها بصيغة المفرد فاجابته دهشة : - اجل . وانت ؟
قال : - انا ؟ آه ! كأحسن ما ينبغي ..

ودنا منها فعانقها ثم راح يتحدثها بهدوء مستفيضاً في وصف مشاريع الحياة
المستقبلية بلهجة رجل اقتصادي .. ولم تخل جان من دهشة لكثرة ما ردد على مسعياً
كلمة : اقتصاد توفير .. وكانت تصغي اليه دون ان تفقه لكلامه معنى .. فهي تنظر
اليه حقاً الا ان عقلها كان شاردأ وراء الوفاء الافكار التي تعبر به لانتكاد تمسه الا
مساً رقيقاً ..

ودقت الساعة الثامنة فقال : - هيا . ينبغي لنا ان ننهض . ان بقاءنا طويلاً
في السرير مثير للسخرية ولا سيما هذا اليوم بالذات ! .
وقفز من السرير . وبعد ان فرغ من هندامه انفتحت الى زوجته وراح يساعدها
بلطف على تسوية شأنها ذلك ان الوضع لا يسمح باستدعاء روزالي . .
وكانا على وشك الخروج عندما استوقفها قائلاً : - اتعلمين اننا نستطيع ،
عندما نكون منفردين ، ان نتخاطب بصيغة المفرد . اما تجاه اهلك فينبغي لنا ان
نستمر فترة اخرى في استعمال صيغة الجمع . . ولن يصبح ذلك طبيعياً الا بعد عودتنا
من شهر العسل .
واعتكفت جان نهارها في غرفتها لا تنظر الا اوقات الوجبات . وزرقت النوار
كالاعتاد كأن شيئاً لم يكن قد حدث . . وكل ما في الامر ان عدد الرجال قد
ازداد واحداً في ذلك البيت ! . .



الفصل الخامس

وصلت المركبة التي اقلت العروسين الى مرسيليا بعد اربعة ايام ..
وكانت جان ، بعد مفاجآت الليلة الاولى ، قد اعتادت قرب جوليان منها
ودعا به اللذيذ لها بالرغم من ان نفورها من الاستسلام اليه لم يكن قد خف .
لقد وجدته جميلاً .. فاحبته .. ثم نفرت منه لعنفه في امتلاكها .. الا انه
عاد فحسن في عينها فاستعادت مرحها وسعادتها .
كانت ساعة الوداع مقتضبة لا أثر فيها للحزن والدموع ، والوحيدة التي اظهرت
غماً هي البارونة . والقت في راحة فئاتها ، ساعة تحركت المركبة ، كبساً منتفخاً
ثقيلاً كأنه الرصاص ، وقالت :

- هذه لمصاريفك الخاصة ايها الزوجة الشابة .
تناولت جان الكيس ورمت به الى حقيبة يدها .. وانطلقت المركبة
بملء سرعتها ..

وسأل جوليان زوجته : كم اعطتك امك في هذا الكيس ؟
لم تكن قد فكرت بذلك ابدآ . فتناولت الكيس وافرغته فوق ركبتيها
فاندھق الذهب في حجرها سبلاً : الفا قطعة . وصفت بيديها قائلة :
- سأعمل بها اشياء جنونية . واعادتها الى كيسها ..
وبعد مضي ثمانية ايام ، ذات يوم قانظ ، بلغا مرسيليا ..
وغداة اليوم الثاني حملهم مركب يدعى « الملك لويس » الى اجاكسيو وهو
بطريقه الى نابولي ماراً بكورسيكا ...
كورسيكا ! الادغال ! الاشقاء ! الجبال ! يا لوطن نابليون الساحر !

وخيل الى جانٍ انها تخرج من عالم الواقع ، مستبقة ، لتوغل في دنيا
الحالات والاحلام !

كانا فوق جسر السفينة جنباً الى جنب واعينها معلقة بالصخور المجددة بالابتعاد
فوق شاطيء « بروفانس » .. كان البحر ساكناً لازوردياً كأث نور الشمس
قد ارهقه وقد استرخى تحت السماء الممتدة حتى تختلط زرقتها الشاحبة بزرقة اليم
القائمة عند قوس الافق الجنوبي !..

قالت بعد فترة سهوم : - انذكر يا جولييان نزهتنا البحرية في مركب الاب
لستيك ؟ وكان جوابه قبلة رشتها بها فوق اذنها ..

كانت العجلة البخارية للمركب تصفع الماء الراكد فتعكر سبائه العميق ..
تاركة وراء المركب ثلماً طويلاً شاحباً من زبد توج فيه الماء جائشة كأنها الشمبانيا ..
يمتد الى مدى البصر مستقيماً وراء السفينة الماخرة العباب .. وظهرت بفتة سمكة
ضخمة من نوع الدوفين تتوثب فوق سطح الماء ثم عادت فغطت برأسها واختفت
واعترى جان جزع لرؤية الحيوان البحري الهائل فندت عن صدرها صرخة ثم ألقت
بنفسها فوق صدر جولييان .. ثم انفجرت ضاحكة من خرفها الصباني وبعثت بناظرها
يرقبان السمكة التي لم تعد تظهر ... ولم تلبث ان عادت تذرع سطح البحر وورقتها
اخرى من نوعها .. ثم ثانية فثالثة .. كأنها الحاشية تحف بالامير .. وشرعت
السمكات تتراقص وتتواذب حول المركب في ايقاع طروب ..

كانت جان ، وقد افرخ روعها ، تصفق بيديها مستطارة اللب غبطة لدى ظهور
السباحات الرشيقا وشرع قلبها يتواذب بين حناياها كتواذب تلك الحيوانات
البحرية ، في موجة طاغية من حبور صباني مجنون ..

واختفت السمكات فجأة . وعادة فظهرت في عرض البحر بعيداً .. وادرك
جان حزن حقيقي لابتعادها .

وهبط المساء هادئاً ، ساحراً ، مليئاً بالتي اخاذ ، ساكناً سكناً
سعيداً وانياً ..

كان الهواء راكداً فلا يحرك الماء الساجي ... وغمر هذا السجو المهيم على
المساء والسماء النفوس فاستغرقها استغراقاً بعيد المدى عميق القرار .. وانزلت
الشمس الهائلة الجرم متاهلة ، وثبده الخطو ، صوب افريقيا المحتجة وراء سحج
الافق .. افريقيا ! يا للأرض الالهة ! كأن وهج سميرها يصل اليهم .. الى عرض
المتوسط الازرق .. وهبت نسمة رطبية داعبت الوجوه عندما اختفت ملكة النهار
وراء ستائر مخدعها المجهول ..!

لم نجد جان وجوليان رغبة في الايواء الى قرتهما ذات الرائحة الملمعة الخانقة بل
تددا جنباً الى جنب فوق الجسر والتقا بالاغطية الصوفية . وما اسرع ما استسلم
جوليان للسبات . اما جان فاستمرت مفتوحة الاجفان تمنع روحها بسحر الليل
الزاحف فوق صدر البحر متشداً ..

وعلفت انظارها الحاملة بمواكب النجوم التي شرعت تزين صدر هذه العروس
من الزنج . السماء ! وتركت لدوي العجلات هدهدة مسامعها بصوتها الرتيب المبهم ..
بالصفاء هذه الليلة وبالسحر سماء الجنوب !
لم تم جان ليبتها تلك الالماما . واستيقظت على جلبة وغناء . انهم بحارة
المركب يبدأون يومهم بتنظيف المركب . وهزت زوجها الفارق في نومه ،
العبيق . ونهضا .

توقفت جان قليلا لتعب من الضباب الملح المحجب الكون ملء رثتها .. كان
الماء يحرق بالمركب من جميع جهاته .. ومع ذلك فقد بدا امامهم فجأة شيء رمادي
مبهم العالم ، في الفجر الوليد ..
ما أشبهه باكوام من غيوم متراكمة دقيقة رؤوسها ، بمزقة اوصالها ، منحطة
فوق زبد الامواج ..

واخذ المنظر يتأثر للوضوح شيئاً فشيئاً .. وانخذت القمم اشكالاً في السماء
المنورة فبدت سلسلة ضخمة من جبال مدببة القمم غريبة الاشكال : انها كورسيكا.
حسنا وراء خمار رقيق شفاف !

ولم تلبث الشمس ان بزغت خلف ظهورهم فأبانت ما اجهم من خطوط الجبال
وتعرجاتها بما الفت عليهما من ظلال قائمة ضاربة الى الزرقة .. ولم يلبث النور ان غمر
تلك القمم بفيضه الذهبي بينما ظلت الافسام المنخفضة من الجزيرة ، المعوفة بنقاب من
ضباب رقيق خلاب ..

وخاطب ربان السفينة جان قائلاً : - انشمين هذه الرائحة الفواحة ؟

وكانت في الواقع تشم اريج نبات بري فريد ممطار ..

وعاد الربان يقول : - انها كورسيكا المزدهرة دائماً هكذا ياسيدي .. انها
حسنة دائمة التبرج فواحة المطور . واني لأميز هذا الارج ولو غاب عن انفي عشرين
سنة انه هو (١) ، هنالك .. في سانت هيلين ، لايل التحدث عن عطر بلاده
الاريج .. كما يجبل الي .. او تعلمين اني امت بصلة قرابة اليه ؟!

ورفع الربان قبعته محبباً كورسيكا .. ثم حسي ، باحتوام وتأثر عظيمين ،
عبر الاقيانوس ، الامبراطور الكبير . ابن عائلته .. ذلك النسر المهبض الجناح ،
المكبل بالاغلال وراء الامواج ..

وبلغ التأثير من جان مبلغاً اوشكت معه ان تذرف دموعاً سخينة ..
وبدأت الجبال تبين معالمها شيئاً فشيئاً .. واستطاعوا ، بمعونه الربان ،
تميز جنباتها ... وبرزت المدينة فجأة ، قاصعة البياض ، في اقصى الخليج ، جاثمة على
رمال الشاطي المائج تحت اقدام جبال شامخة شماء ...

وكان في الحوض بعض سفن ايطالية راسية . وخفت الى سفينتهم اربعة او
خمس زوارق لتقل الركاب .

وسأل جوليان زوجته وهو منهمك في اعداد امتعتها : - الاترين ان عشرين
فرشاً تكفي كمكافأة للخدم ؟

انه منذ ثمانية ايام لا ينفك يحرجها بمثل هذه الاسئلة . واجابته وقد فرغ صبرها :

نابوليون بوناپرت

- عندما لا تكون واثقاً من كفاية ما تدفع ، ادفع مبلغاً كبير .
كان دون انقطاع يشتبك مع خدم الفنادق والحوذين والبائعين من كل نوع ،
في جدال ونقاش فاذا ظفر ، نتيجة لمساومته العنيدة ، بتنزيل جزء من المبلغ ، قال
لجان وهو يفرك راحتيه اغتباطاً :
لا أحب ان أسرق !

كانت ترتعش عندما يقدم لها حساب ما . فهي واثقة من ان نقاشاً ومساومة
سينشبان على كل نبذة ، فكانت تكاد تذوب خجلاً ويتخرج خدامها تحت نظرات
الاحقار يرشقها بها الخدم الذين يمدجون زوجها بأعينهم شذراً وقد أطبقوا الأكف
على هباته الهزيلة ..

ولم يسلم صاحب الزورق الذي أقلها الى البر من مثل هذه المساومة .
ووقعت انظارهما ، أول ما وقعت ، على نخيلة من نخيل الشاطيء ...
ونزلا في فندق وطلبا الغداء فوراً ، والفندق واقع في طرف ساحة فسيحة
دانية من الشاطيء . وما فرغوا من تناول الفواكه حتى نهضت جان وبودها لو
تطوف في ارجاء المدينة غير ان جوليان اخذها بين ذراعيه وهمس في اذنها بركة :
- الا ننام يا قطي ؟

وفغرت فاهها دهشة وقالت : : - ننام ؟ ولكنني لست نعبة مطلقاً ! ..
ولشبت بها وقابع يقول : - ان بي اليك لرغبة . أو تفهمين ؟ منذ يومين لم !! ..
وتلعنت وقد غمرت الدماء وجنتها :
- آه ! الآن ؟! ولكن ماذا يقولون عنا ؟ ماذا يظنون بنا ؟ كيف ستطلب
اعداد الغرفة في رابعة النهار ؟ آه ! جوليان ! ارجوك !
بيد انه لم يصبر عليها : - لا اهتم بما سينقولون به . سترين كم انا متضايق !
وفرع الجرس .

ولاذت بالصمت وعيناها الى الارض ، كان التمرد في روحها وفي جسدها لا يفتأ
يتحرك امام رغبات هذا الزوج النهم ، ولم تكن لتليبه الا بقرف ، متنازلة عن كل

شيء ، مهانة في انوثتها فهي لا ترى في هذا العمل ، كما يمارسه هو ، الا معنى حيوانياً منحطاً ... نوعاً من القذارة ..

كانت حواس جان ما تزال نائمة ومع ذلك فقد عاملها زوجها كما لو كانت تقاسمه رغبته .

وحضر الخادم فطلب اليه جوليان ان يقودهما الى غرفتهما ، الا ان الخادم الكورسيكي الغدير الشعر ، الكث اللحية ، لم يفهم مرمى جوليان فاجاب ان الغرفة لن تكون معدة قبل الليل .

وأوضح له جوليان قائلاً : - كلا تريدان الان ، فقد أورتتنا الرحلة تعباً ونود ان نستريح .

وطافت بشفتي الكورسيكي ابتسامة بيناودت جان لو انشقت الارض وابتلعتهما .. وعندما هبطا بعد ساعة كانت جان تنعاش النظر الى من صادفهم واثقة من انهم سيتغامزون ويتهايمسون وراء ظهرها ، ووجدت في قلبها على جوليان لأنه لم يدرك واقع الامر ، لم يقدر ما فيها من خفرو حساسية وغريزة مهذبة ، وشعرت كأن حجاباً انسدل بينها ، كأن حاجزاً قد رفع بين قلبيهما ؛ لقد ادركت ه هذه الساعة انها شخصان لم يستطع احدهما النفاذ الى مكونات صدر الآخر ولم يتمكن من سبر اغوار روحه ، انها يسيران اغلب الاحيان جنباً الى جنب ، متغاصرين الا انها غير متازجين .. وان شخصية كل منهما ستظل ، طوال الحياة ، مفردة لارفيق لها .

أقاما ثلاثة ايام في هذه المدينة المختبئة في زاوية ذلك الخليج ، وقد أسدلن الجبال من حولها ستاراً يحول دون هبوب الدسام المملطفة لسير جوها الخائق ، ومن ثم رسما الحطة لمتابعة رحلتهما ، وكبلاً يضطرا الى التلصق امام ما يعترضهما من عقبات في الطريق قررا استئجار جوادين من جباد كورسيكا ذات العيون الغضبي ، الضامرة من الشدة والقوة .. واتخذتا سبيلهما ذات صباح عند بزوغ النهار يرافقهما دليل يركب بغلاً يحمل لهما زادهما فالفنادق فادرة الوجود في هذه البلاد البدائية . وقطعا ارضاً قاحلة في معظم بقعها ، وكثيراً والتقيا بجبلي راكباً جواداً او

مقتعداً ظهر اتانه يحمل بندقيته المشوة وقد علاها الصدا الا انها ، في كفه ، سلاح رهيب .

كان الهواء كشيئاً بأريج النباتات البرية الفواحة ، وبدأ الطريق يتسلقهما جبلا وعرة المسالك والدليل يشير الى القمم ويسميهما لها ، ويرفع العروسان انظارهما دون ان يتوصلا الى تمييز شيء مما اشار اليه الدليل ، وبعد لأي تقع منها الانظار على كوم من صخور جرداء معلقة فوق احد المنحنيات ، انها احدى تلك القرى المستقرة في الاعالي كأنها عش طائر ضائع في مغارات الجبل الوعر الشعاب .

واثارت هذه الرحلة الشاقة الطويلة اعصاب جان ، قالت : لركض بجوادينا قليلا . واندفعت بمطبتها دون ان تنتظر جواب زوجها ، بيد انها لم تلبث ان جذبت العنان وتوقفت ذلك انها لم تسمع وقع سنابك جواد زوجها فاستدارت تستطلع جلبة امره .. وانفجرت ضاحكة يجنون اذ لمحتة يحاول عبثاً الركض بجواده وقد شعب وجهه وتثبت بعرف جواده المتواثب بشكل غريب . وبما ضاعف الصورة الهزلية التي بدا عليها ، جمال طلعتة واستقامة فرعه كالفـسان ..

ولما ادر كها سار الهديبي في طريق مسطحة تعبر بين غابتين متراميتي الاطراف تمتدان فوق الشاطي . فتكسوانه كأنها المعطف السابغ ، انها أدغال كورسيكا الشهيرة حيث تفت جميع ضروب الشجر مشكلة فوق سفوح الجبال معاصياً لا يمكن ولوجها .

وأدر كها السغب فقادها الدليل الى احد تلك الينابيع الكثيرة في البلاد الجبلية كان التبع خيطاً دقيقاً من ماء مثليج يخرج من قلب الصخر ويسيل من ميزاب هو ورقة كستناء عريضة ركزت فيه بحيث يتاح للشارب تناول الماء بفيه . وشعرت جان بسعادة عظيمة لم تتوصل معها الا بجهد كبير الى كتات صبعات السرور .

وعادوا في الاصيل ، سيرهما فاجتازوا قرية «كارجيز» التي بناها جماعة من اللاجئين اليونانيين المبعدين عن وطنهم .

كان العابر ينبع القرية يشاهد عصابة من فتيات حسناوات بمشوقات القوام
أنبيقات الملبس ذوات فتنة خاصة ، والقي عليهن جوليان تحية المساء فأجبنه بنغم
موسيقى بلغة وطنهن الأم .

وبلغا قرية « بيافا » وكان عليهما ان يستضيفا احد السكّات كفعل المرء في
العصور القديمة أو في البلاد المجهولة .

وهز السرور جان اذ رأت الباب الذي طرقاه يفتيح امامها ، انها رحلة بكل
ما تحمل الكلمة من معان ، كان البيت لعائلة صغيرة استقبلتهما كما يستقبل رجل الدين
مبعوثاً الهيا ! ووفر لهما مضيفوهما فراشاً من قش الذرة في احدى زوايا بيتهم
العتيق المشاد بالخشب النخر .

ولما اصبحا تابعا رحلتها فعبرا بغابات خلاصة الجمال ، رائعة الجلباب ، تقعم
جوها موسيقى ساحرة تنبعث عن ألوف الاطيار المجهولة .. فكأنها بما هي عليه من
سحر اخاذ ، مسرح للاشباح أبدعه خيال احد الآلهة الافاقين ...

ولزمت جان الصمت المطبق العميق .. ثم تناولت يد جوليان وجذبته اليها !
انها تبتغي الحب من معين الحب امام هذه الطبيعة المتبرجة المزدانة باروع ما ابداع
الخالق من فائن خلّاب !

وتابعا سيرهما فاشرفا بعد ساعة على خليج جديد شاطئاه من صخور ظرانية
حمراء تلتصع امام زرقة الماء اللازوردي .

وقامت جان : - اوه ! جوليان !

ولم ترد وقد اخذت بمشاهد الطبيعة الفاتنة فكأن يداً تضغط عنقها فلا تقوى
على الكلام ..

وتدحرجت دمعان فوق خديها . فنظر اليها جوليان دهشاً وهتف :

- ماذا بك يا قطي الجميلة ؟!

وامرعت نغم خديها وتبسم وتقول بصوت مرنجف النبرات :

- ليس بي شيء .. لقد اثارت الطبيعة كوامن اشواقي .. لست ادري ..
في الواقع .. مايي لشد ما انا سريعة التأثر بانفخ الاشياء ..
لم يفهم لتأثرها معنى ، هذا التأثر السريع الذي يدم قلوب هذه المخلوقات
الحساسة فيحرقها بفتنة ... او يروغها بقسوته . لقد وجد في دموعها سخفاً . وقال
وقد انصرف بكليته الى الاحتراز من وعورة الطريق :

- نحنين صنعاً لو راقبت جوادك .
وتابعا سيرهما في طريق تكاد تكون غير مطروقة قبلاً بغية بلوغ الخليج ثم
انعطفاً يميناً فاجتازا وادي و اوتا ، المظلم .
وبدت الطريق مخوفة مخوفة بالاعطاش ، اقترح جوليان ان يبطاها ماشيين .
ولم تكن جان ترجو خيراً من ذلك . فلشد ماسرها ان تمشي ، ان تنفرد
برجلها بعد ان بلغت اعصابها من التوتر غايته ..

وتقدمها الدليل ببغلته والجوادين وسارا هما بخطى وثيدة .
كان الجبل المتهدم القمة ينفتح امامها فيجر به الشريك محاطاً بجدارين هائلين
ينحدر فوقها سيل عارم .. وقد بدت لها البقعة الزرقاء فوق رأسها مدهشة عجيبة .
وانتفضت جان اذ صلت مسمعيها حركة فجائية بالقرب منها . انها صادرة عن
طائر اقلقه وقع الخطى فانطلق من احدى ثغرات الجبل . انه نسر واسع الجناحين
حتى لكانها موشكان على ضرب جانبي المفازة .. ولم يلبث ان حلق عالياً في الفضاء
الازرق وغاب عن ابصارها .

كانت جان تسير في الطبيعة خفيفة رشيقة تتطاير الحصى تحت قدميها .. وكان
جوليان يقتفي خطواتها لاهناً وعيناه الى الارض خشية التعثر .
وغمرتها الشمس فجأة اثر بروزها من فرجة النفق . واحسا عطشاً . ووقعت
منها الاعين على نبع قريب فاسرعا اليه . وركعت جان فوق ركبتها وراحت
تعب من مائه العذب النسيم . وفعل جوليان فعلها .
ودنا جوليان منها ، اذ كانت منصرفة الى ورود الماء ، واف بذراعه خصرها

اللدن .. وحاول تقبيلها فأبدت مقاومة فكانت شفاها تلتقي وتتنافر .. ثم
تعمد الى ميزاب النبع فتعضه محاولة للتشبث به لحماية شفتيها من فم جوليان انهم
فيكان خيط الماء الدقيق يتجاذبه الفنان فيتكسر فوق الشفاه ثم يعود الى تماسكه
متناثر القطرات فوق الوجنتين والعنقين والذراعين والتياب ، وعلقت بشعرها
فطرات منه كأنها اللؤلؤ .. وجرعت مع الماء السلسيل قبلات رجلها فوجدتها ،
للمرة الاولى ، حلوة المذاق ..

وشمرت جان بغتة ببدء الحب ! وافهمت جوليان ، وثغرها الى ثغره ، انها
تريد منه ان ينقع غليلها ..

والقت برأسها الى الوراء متطاولة بعنقها الاثلع تاركة شعرها الساحر يسدل
فوق منكبيها في استرخاء اخاذ واستسلام مثير .. وباعدت بين ذراعيها .. وخف
اليها جوليان واحتواها بين ذراعيه واحتلها الى رابية معشوشبة .. وعب من
جمالها ماروى غليلها معاً ..

واسندت جان رأسها الى صدره بدل ناعم وفؤادها مسرع في وجيبه ،
ونهداها يرفان وجفناها متكسرات كأننا قد بللا ماء .. وتمتمت بصوت خفيض :
- جوليان .. اني أحبك .

وعاد يجذبها الى صدره فاستلقت وقد اخفت براحتيها وجهها المخرج خفراً ..
واحتواها مجدداً بذراعيه بشوق لاهب .. كانت لاهة الانفاس مقيمة بالانتظار ..
وطال بها المسير حتى بلغا القمة فقد كانت جان مازال مرتجفة الاوصال راعشة
الاطراف ولم يبلغا ايفيزا ، الا مع المساء الملبط حيث استضافها قريب لدليلها
يدعى « باولي بلا بديتي » فادهاا مضيفها الى غرفة خصصها لها ، غرفة حقيرة مشادة
بجمر عار الا انها فريدة بالنسبة لهذه البلاد حيث يقيمون في منجاة من الاثافة
والرفاهية . وشرع المضيف يحدثها بعامة الكورسيكية ، هذا المزيج من الفرنسية
والايطالية وقد فيها من حديثه انه يرحب بها وينزلها على الرحب والسعة . وظهرت
فجأة لها سيدة سمراء ذات عيني سوداوين كبيرتين وبشرة حارة وقامة قصيرة

وضمكتها لانفارق ثغرها تاركة لاسنانها سبيلا الى الظهور وبشكل دائم ودنت من جان فقبلتها وشدت يد جوليان ثم قالت : - ممي مساء ياسيدي . عم مساء ياسيدي كيف انتما ؟

وتناولت القبعات والمعاطف والشالات وامرت زوجها ان يتقدم الضيفين فيريهما القرية وصدع الرجل بالامر وسار بهما لايفكك يحدثها بلهجته العامية الغربية . وتوقف فجأة وقال : في هذا المكان قتل « مانيولوري » ابن عمي جان . كنت بالقرب منه . وعندما ظهر مانيو على عشر خطوات منا صاح بجان : - جات . لاتذهب الى « البتراكس » او اقتلك . اقول لك !

وامسكت بذراع جان وقلت : - لاتذهب يا جان . انه خليف بتنفيذ وعيده ! واذا سألتما عن سبب ذلك ففتاة علق بها الشبان . ولم يقبل جان التهديد فشرع يصرخ : - سأذهب يا مانيو . انك لن تستطيع منعي وعندئذ خفض مانيو بندقيته ، قبل ان يتاح لي سبقه الى ذلك ، واطلق النار وسقط جان واختفى مانيو بين أشجار الكستناء .. هناك .

وحقق العروسان بشاهد هذه الجريمة النكراء بمزيد من الدهشة . وبعد لحظة صمت سأله جان : - والقاتل ؟

وسعل المضيف وقال : - لقد لجأ الى الجبال . ولم يستطع اخي قتله الا في العام المنصرم . لاشك في انكما قد سمعتما باخي : الشقي فيليب بلابريني . وارتعشت جان وقالت : اخوك ... شقي ؟

وطافت ايامضة من كبرياء فوق جبين الكورسيكي الرزين وءاد يقول : - اجل ياسيدي . انه شهير هذا الشقي . لقد تمكن من صرع ستة من رجال الامن . وقد قضى هو ونقولا مرزاللي بعد ان حوصرا ستة ايام في (بنولو) واستمرا في كفاحهما حتى اوشكا ان يقضيا جوعاً . ثم اضاف بنبرة طيمنية : - ان طبيعة البلاد تتطلب مثل هذه الاعمال .

قال هذا بنفس اللهجة التي يقول فيها : - ان هواء الوادي طري منعش كإتريان !

ثم عادا لتناول العشاء فاستقبلتهما الكورسيكية الصغيرة كما لو كانت معرفتها
بهما تعود الى عشرين سنة خلت . بيد ان قلقاً عاد يعكر صفو هناءة جان : اتراها
ستشعر في مقبلات الايام بتلك الرعدة البحرية التي هزمتها هزاً عنيفاً ، وهي بين
ذراعي جوليان ، فوق المنحنى المشوش قرب النبع ؟!

وارتجفت اذ انفردت به في الغرفة ووجدت ان قبلاته لم تعد تحرك فيها عصباً
ما .. الا انها سرعان ما استعادت رباطة جأشها .. وكانت تلك ليلة غرامها الاولى ..
وودت ، في الصباح ، عندما ازمعها السفر ، لو لم تفارق هذا المنزل المتواضع
الذي عرفت فيه معني جديداً للحب لاعد لها به من قبل . وقبل ان تتحرك بها
المطايا دعت مضيفتها وسألتها عما تود ان ترسل اليها من باريس لدى مرورها فيها
بطريق العودة فرفضت المرأة الكورسيكية عرض جان بادىء بدء الا انها نزلت
اخيراً عند الحاحها .. وكما كانت دهشة جان عظيمة اذ طلبت اليها الكورسيكية
الشابة اهداءها مسدساً صغيراً تقتل به اخا زوجها .. واوضحت لجان قائلة :

— ان زوجها لايعرف الغيرة . لأنه مريض وبارد الطباع ، اما اخوه فشديد
الغيرة نيابة عنه .. وبالرغم من انها امرأة لاغبار على سلوكها فان اخ زوجها
يلاحقها بمراقبة صارمة وقد توصل الى طعنها بخنجره في ذراعها فاوشك ان يقطعها .
ولذا فقد قررت الانتقام منه ، ووعدتها جان بارسال السلاح عندما تطلأ قدمها
أرض باريس .

وقابعا رسالتها .. ولم تكن البقية من هذه الرحلة الا حلاً مذهب الحواشي ،
واستكانة محبة لذبذة ، ونشوة تمشي كالحما في الاوصال .. وفقدت جان لاستغراقها
في احلامها ، كل اهتمام بما تصادف من مناظر أو اشخاص أو اشياء .. كانت عينها
معلقين ابدآ بجوليان .

وبدأت كؤوس الهوى المترعة تنبأدها شفاهاها .. فكان قلب جان قد
استفاق بعد ان طال به المجوع .. فاذا تخاطبا فبتلك الاسماء الصغيرة المحببة ، بتلك
الكلمات السخيفة اللذيذة .

وكان عليه ، عندما بلغا باستنيا) ، ان يحاسب الدليل ليصرفه ، فراح يبحث في جيوبه فلا يجد ما هو بحاجة اليه من نقود ، فتوجه الى جان قائلاً :
- بما انك باعزيزي ليست بك حاجة الى الالف فرنك التي اعطتك اياها امك ،
فهايتها فهي في محفظتي اكثر اماناً فضلاً عن انها توفر عليّ البحث عن نقود صغيرة كلما
كنت بحاجة الى ذلك .

ونواته المبلغ لم تنبث ببنت شفة .

وبلغا ليفغورن ، وزارا فلورنسا وجنوا وكل الشاطيء .
وذات صباح ذي ريع شمالية بلغا مرسيليا . وكان قد مضى شهرات على
مغادرتها قصر (بوبل) فتحن الآن في منتصف تشرين الاول .
وشعرت جان بانقباض عندما لفحتها الريح الشمالية الباردة الانية من بعيد ،
من نورمنديا ، كما ان جوليان بدا ، منذ مدة ، متغيراً ، نعباً ، بارداً في علاقاتها .
وادركها ما يشبه الخوف دون مبرر منطقي . . لقد خيل اليها انها انتهت من
جولة سعادتها . .

وواصل سيرهما اخيراً . .

وكان عليهما ان يتبعا من باريس كل ما يحتاجانه من حطام ضروري لسكناهما
نهائياً في القصر . وسر جان ان يتاح لها شراء كل ما ترغب في اقتنائه بفضل هدية
امها . . وكان اول ما خطر لها ان تبر بوعدها لمضيفتها الكورسيكية في (افيزا) .
وخاطبت جوليان قائلة :

- تكرم باعزيزي بارجاع النقود التي وهبتي اياها امي اذ ان بودي ابتباع
بعض الحاجيات .

والفت اليها بوجه علاه الانزعاج وسألها : - الى كم نحتاجين ؟
وجمدت امام لهجته وتمنت : - ولكن . . اعني . . كما تشاء . .
فتابع : - سأعطيك مائة فرنك شريطة الا تبذريها . .
ولم تحر جواباً لما اعتراها من دهشة واستغراب .

واخيراً توصلت الى ان تقول متلثة : - ولكن .. لقد اعطيتك
نقودي .. كي ..

ولم يتركها تكل : - صحيح تماماً .. لكن مجوزتك او مجوزتي .. شيء
واحد ! فهل ثمة فرق بين جيبك وجيبي .. وانا لا املك منها بدليل اعطائي إياك
مائة فرنك ..

وتناولات القطع الذهبية الخمس دون ان تضيف كلمة واحدة .. الا انها لم
تجرؤ فيما بعد على طلب شيء . واكتفت بشراء السدس وارسلته الى مضيفتها
الكورسيكية واتخذت طريقها بعد ثمانية ايام متجهين نحو « بوبل » .



الفصل السادس

كانت العائلة بومتها ، والخدم جميعاً ، باستقبال العروسين ، وقوفاً امام السور الابيض ذي العوارض القرميدية الحمراء . وتوقفت عربة البريد . . . وكانت عناق طويل . . . ودموع غدار فاضت بها في مآقي الام . . . اما الأب فكان متجلداً يززع الارض بخطاه العصبية .

وتحدثت جان ملياً . فجاءت على ذكر كل شيء خلال نصف ساعة ماخلت بعض التفاصيل الصغيرة التي تغرب عن الذاكرة لالحالة في مثل موجات السرور العاجلة هذه .

وانصرفت الزوجة الشابة الى افراغ حقائبها فخفت لمساعدتها الوصيغة روزالي بالغة التأثير . . . وبعد فراغها ذهبت روزالي الى شأنها بينما انحطت جان فوق أحد المقاعد وقد احست تعباً يهد جسمها .

وتساءلت عما تعلمه . انها تبتغي مايشغل روحها وبدها . . . ولكن عيشاً بحث ، ولم تشعر رغبة في النزول الى الردهة حيث نوم امها فوق مقعدها المريح . وفكرت بالقبيا بنزهة الا ان الطبيعة كانت من الكآبة بحيث اثارت نظرة واحدة عبر النافذة كوامن اشجان قلب جان الفتي .

واذكرت الآن ان ليس لها بعد اليوم ماتعمل . . . صحيح ان صباها المسجون بين جدران الدير قد امتلأ بجهودها لاعداد مستقبلها . . . فكانت احلامها بمنحة خلافة . . . وقد ملأ تماوج هذه الاحلام ماضيا بالذكريات الغوالي والاماني العذاب . . . الا ان احلامها لم تلبث دفعة واحدة ان تحفقت فور خروجها من اسر تلك الجدر القواتم . لقد التفت برجلها فاحبته وأملته وتزوجته . . . لقد تم كل ذلك بمنى ايامضة

لم تترك لها مجالاً للتفكير او وقتاً للتلذذ بطعم آمالها المحقة ..
وهاهو ، الواقع العذب ، الذي عرفته في أيامها الاولى ، قد غدا عادة يومية
ملازمة فقدت معه كل تلك الآمال العريضة المترامية الابعاد ..

لم يعد لها ما تفعله اليوم ولا غداً ولا بعد غد .. وعزمت على الخروج بعد ان
تأملت فترة قصيرة السماء حيث تطوف سحب قاتمة جامحة ..

اهذا هو الريف باعشابه واشجاره ؟ اهذه هي البوية التي عرفتها في شهر ايار
المنصرم ؟ ماذا دهمى الاوراق الرخصة المغمورة بأشعة الشمس البازغة في الاصباح
الندبة ؟ وأين ذلك النفع الشعري الذي كان كامناً في المروج الخضر الملتمة فمـ
أزهار كأنها نجوم السماء ؟ أين الشقيق القاني كالنجيب ؟ الافحوان الأنور ؟ أين تلك
الفرشات الصفر المعلقة في أطراف خيوط سحرية لاترى ؟ أين تلك الارتعاشات التي
تبعثها في الاوصال هبات النسيم المشعونة بنشوة الحياة وسحر الوجود ؟ وأين ..
أين ذلك الارج الفواح المتغلغل حتى أعماق الصدور ؟ .. انها لانجد لكل ذلك
أثراً .. لقد مضى ذلك العهد الاخضر المفنـاج ! ..

كانت المياهي مكسوة ببساط أصفر من أوراق الخريف الذاوية وقد بللها
المطر .. مطر تشرين والريـح الصرصر ترعش الحور فترقص هياكله العارية المنتصبـة
كأنها الاعمدة الفقرية للعملاقة ! وكانت بقايا من أوراق الربيع معلقة في أطراف
الأغصان الراءشة وقد جارت عليها يد الخريف فامتصت دماءها الخضراء واستنزفت
حيويتها البليـة .. فكانت لاتنفك تتطاير في الفضاء الرمادي وكأنها ، لصفرتها ،
نقود ذهبية كبيرة .. تدور وتدور ثم تنأوى مترافعة كارتقاص الطائر الذبيح ..
اما الجدر الخضر التي كانت بهيجة المنظر فقد تعفرت وقبحت في كل عين .. واذا
هبت الريح اصطكت الأغصان العارية كاسنان المقرور .. ونهاوت الاوراق في
خشيش كعشـرجة المغالب سكرات التزع .. وثمة طيور صغيرة مذعورة تقفز من
غصن عار الى آخر مطلقة صرخات قصيرة باحثة عن ملجأ لها يحميها غائلة الخريف الداهـم !
وسارت جان بنحطى وثبـدة هـب الممشى الذي اعتادت الأم التنزه فيه ..

واحست شيئاً يحشم فوق صدرها كأنه حدس عن حياة سأم وملل بدأنها .
وجلس فوق الرابية التي حدثها فوقها جوليان المرة الاولى حديث الحب . .
ومكنت هكذا مهومة مع أحلامها لانفكر بشي 'معين' وقد تغلغل الانقباض حتى
اعماق سويدائها . . ودهمتها فجأة رغبة في الاستسلام للنوم نخاصاً من تعاسة يومها .
ولحت بغتة طيراً بحرياً حملته الزوبعة فذكرها منظره بالنسر الذي رآه
هناك في كورسيكا يعبر فضاء وادي (اوتا) المظلم . وانتفضت في أعماقها كتلك
الانتفاضات التي تدهمنا اذ نستعيد ذكريات عذاباً قد انقضت .

وعادت الى مخيلتها مشاهد الجزيرة الخلابة وعبت في أنفها نشرها البري المعطار
وغمرها فيض من أشعة شمسها الالهة التي تنضج البرتقال والليمون ، وتوات لها
جبالها الموردة القمم وخلقجانها الصافية الزرقاء وانهرها الثرة ومساقط شلالاتها العارمة . .
واستفاقت من هذه الرؤى لتعود الى واقعها المقبض . . وسرعان ما حثت
خطاها الى غرفتها وهي تكبت بجهد دموغاً أو شكت نسال من مآقها المقرحة . .
ولم تنتبه اليها امها العارفة في تهويها أمام وهج المدفأة وقد اعتادت قضاء مثل
هذه الاوقات الكثيرة .

كان البارون وصهره يتنزهان وقد غرقا في حديث مشاغلها اليومية .
وهبط الليل فغمر الردهة الواسعة بظلاله الكثيفة المقبضة . . لا يخترقها سوى
ومضات نار الموقد المترافضة اللسن .

كانت بقية من ضياء لانتزال تنير المناظر الرمادية اللون في الحارج فبدت
المرئيات تحتها كأنها لطخت بالالواح . ودخل البارون وجوليان . وقرع هذا
الاخير الجرس ونادى :

... عجلوا . عجلوا بالنور . ما أشد كآبة هذه الحجرة هكذا !
وجلس أمام المدفأة وراح يفرك راحتيه بارتياح . وقرب من النار حذائيه
المبتلين فتصاعد منها بخار خفيف وأخذت قطع الوحل بالنساقط عنها بعد ان
جففها وهج النار .

قال البارون : - اغلب ظني ان السماء مستلج فقد بدأت تتكشف في الشمال ..
والبدر التام في مثل هذه الليالي القرة . انها أدلة على قرب تساقط الثلج .
واستدار الى ابنته وقال : حسناً أينما الصغيرة . امسرة انت بعودتك
الى بلادك ومنزلك بالقرب من أبويك الشيخين ؟

كان هذا السؤال العابر كافياً لاثارة أشجان جان فما كان منها الا ان اقلت
بنفسها بين ذراعي ابها وقد فاضت بالدمع عيناها وراحت تعانقه بعصبية ..
انها رغم كل جهد بذلته ، لم تتوصل الى التخلص من أحزانها العميقة وانقباض
صدرها البعيد الغور فكرت بما ينتظرها من مبايع وعتد قلبها بها اذ تعود الى كنف
البيت الابوي .. ولشد ما ادهشها برودها ونحوها وهذا الشلل الذي أصاب عواطفها
كما يحدث للمرء اذا ما فكر كثيراً باغراء شط بهم المزار وطال بهم البعاد حتى فقد
اعتياده على رؤيتهم اليومية فاذا ما عاد اليهم أدركته أول أمره خيبة أمل لا يلبث
ان يتخلص منها عندما يستعيد الفته لهم .

واستمر العشاء طويلاً . وكان الصمت مخملاً فكان جوليان قد تناسى زوجته .
واسلمت جان نفسها لما تبعته نار الموقد من دفيء لذيذ . وكانت أمها مستغرقة
كمعادتها في نومها الهنيء بالقرب منها . ودنا البارون من الموقد وعرض راحتيه للوهج
القوي وقال :

- انها نار طيبة هذه الليلة ! الجو مثلج يا أولادي .. مثلج .

ثم القى بكفه فوق كاهل جان وقال مشيراً الى النار :

- أرين أينما الفتاة . ان أجمل ما في الحياة موقد .. موقد تنظم العائلة حوله ..
لا شيء يفوقه جمالاً ... ولكن .. اما أن لكما ان تأويا الى غرفتكما فانتما ولا ريب
متعبان يا ولدي .

وساءلت المرأة الشابة نفسها وقد خلت في غرفتها : ه كيف يمكن ان تختلف
اوبتان الى مكان واحد محبوب ؟ ما هو مبعث هذا الشعور المقبض ؟ هذه التعاسة ؟
هذا البرم الذي يحتم فوق صدرها ثقبلاً حتى ليبدو كل شيء مثيراً للأعصاب ؟

واللمرة الأولى بعد زواجها اوت وحيدة إلى سريرها فقد اتخذ جوليان لنفسه غرفة أخرى مدعياً التعب ، فضلاً عن انه كان من المقرر مسبقاً ان يكون لكل منها غرفته الخاصة .

وجفاهما النوم طويلاً . . . ولشد ما استوحشت اذ لم تشمر بجسد يلتصق بجسدها حقاً لقد فقدت عادة النوم منفردة . . وتعاونت الريح المعولة فوق السطرح مع استيعاشها على طرد النوم عن جفنها وابعاده عن مضجعهما .

وانعما التفكير فاستسلمت للرفاد وقد تصرم من الليل اكثره . . ولم تستغث الا في الصباح عندما غمر سريرها نور قوي فصبغه بلون الارجوان . . وبدأ زجاج نوافذها أحمر قرمزياً وقد غطته بلورات الجدد فكان الأفق كله قد انتقل اليه . . ووثبت من فراشها وتجليبت بمعطف صابغ وخفت الى النافذة تفتيحها فهبث نسمة مثلبة نقية لاذعة دحات الغرفة وصافحت بشرتها فتمشت في أوصالها برودة حادة أجرت الدمع من عينها . .

كانت شمس هائلة الجرم ، منتفخة الأوداج ، كأنها وجه التل ، تصعد في سماء قمرزية تبرز بقع منها خلال الاغصان العارية في حديقة القصر .

أما الأرض فقد غطتها طبقة من جليد صلب كانت تتكسر وتنسحق تحت وطأة اقدام الفلاحين وراء الأسوار . . .

كانت الية المنصرمة كافية للاطاحة بكل ماتبقى من أوراق الحور من فوق أغصانها . . . ووراء الأرض المنبسطة بدا خط الامواج مخضراً تشوبه بقع بيض من زبد راغ .

وبعد ان طال بها تأمل هذا المنظر الفريد مشت الى غرفة المائدة .

وانقضى اليوم كسابقه في تلكؤ وبرود .

وكذا انقضت ايام الاسبوع جميعاً . .

وشيثاً فشيثاً خف حنينها الى الآفاق المجهولة التي طالما حلمت بها . . وشمرت

برغباتها تنصاع للواقع وترضى بالملوس . لقد غلفت عاداتها الجديدة حياتها كما تغلف

الماء البكسية مانغمزه بطبقة من كلسها .. فتولد عندها اهتمام بالوف الاشياء اليومية التافهة ، وتبلور في أعماقها نوع من السكابة الحاملة ، وضرب من التبلد الغامض ما الذي هي بحاجة اليه ؟ ما الذي تبتغيه ؟ انها لاتعرف .. انها تريد شيئاً تجهل كنهه .. انها لاتشعر احتياجاً الى أي شيء مادي ولا عطشاً الى أية مسرة حتى ولا إلى تلك المباحج السهلة المثال . ماذا بها اذاً ؟ وكما جال لون المقاعد القديمة في الردهة مع مرور الزمن هكذا وصلت ألوان الحياة بناظرهم — وبدأت تمحي ثم اتخذت شكلاً كئيباً شاحباً .

أما علاقاتها بجوليان فقد طرأ عليها تغير كلي . فلشد ماتبدل بعد رجوعها من شهر العسل فكانت المثل يعود الى وجهه الطبيعي بعد ان فرغ من اداء دوره . فهو لا يكاد يعيرها أي اهتمام فلا يكلمها الا لماماً أما الحب فقد زال كل أثر له من علاقاتها .. وما أقل الليالي التي كان يمضيها في غرفتها !

واسندت اليه ادارة الثروة والبيت معاً . فكان يراجع الحسابات ويرفق الفلاحين ويضغط النفقات .. وقد اتخذ حمة المزارع النبيل ففقد رونقه وانافته كما عهدته جان يوم تحابا انه لايخلع عنه ثوب الصيد المحملي القديم ، المرصع بالبقع ، ذا الأزرار النحاسية الصدئة وقد عثر عليه مهجلاً في خزانة ثيابه صدفه يوم كان غائباً .. واكتسب عادة الأشخاص الذين لا يحرمهم إرضاء الغير بمظهرهم فاهمل حلاقة لحته التي طالت بشكل غير منظم فاضفت عليه سيا قبح لا يصدق ! كما فقد عادية العناية بيديه . وبدأ يشرب الخمر فهو يجرع منها أربعة أو خمسة كؤوس مع كل وقعة . وإذا حاولت جان توجيه بعض الملاحظات الرفيعة اليه أجابها بشراسة :

ألا دعيني وشأني .

فانقطعت عن تقديم النصح اليه وفقدت كل اهتمام به وتم هذا الانقلاب في نفسها بسرعة أدهشتها هي . لقد أصبح زوجها غريباً بالنسبة اليها . غريباً حتى ان قلبها قد اوصد دونه . وكثيراً ما كانت تفكر وتساءل نفسها كيف امكن ان يتم ذلك بعد ان التقيا وتحابا وتزوجا بدافع واحد هو الحب .. امكن ان تعتبره

مجهولاً من قلبها كأنه لم يقاسمها فرأىها قبل اليوم ؟ وكيف لا يعمل هذا المجران
فيما إبلاماً ؟ أهي الحياة هكذا ؟ أم تراها قد خدعا ؟ اهذا ماخبأه لهاغدها المأمول ؟
ولو ان جوليان احتفظ باناقته ورقة حاشيته وجاذب روحه لكان ألمها مضاعفاً !..
وكان من المقرر ان يقيم الزوجان في القصر بمفردهما بعد رأس السنة اذ ان
الأب والام سيقصدان روان فيقيان في بيتها هناك . أما الزوجان الشابان فعليهما
ألا يغادرا القصر هذه السنة كيما يتفرغا الى اعداد سكنها فيه واعتياد الحياة الجديدة
والامتزاج بالمسكان الذي سيفضيان فيه الحياة كلها . وكان لهما جيران قدم جوليان
لهم زوجته فتم بينهم التعارف . أما الجيران فهم آل بريزفيل وكوتيليه وفورفيل .
غير ان الزوجين الشابين لم يقوموا بزيارتها لهؤلاء الجيران بسبب عدم صلاحية
عربتهما وحاجتها الى طلاء جديد . واستقدموا اخيراً من قام لهم بالطلاء ، وشاء
جوليان مدفوعاً بحبه للاقتصاد ، ان يحدث فيها اصلاحات جديدة وتغييرات هامة
فقد أحال الخوذي القديم للعمل بالبلستان وشرع هو نفسه يقود العربى ولما كان لا بد
من شخص يسك باعنة الجياد عندما يغادر العربى ركبها فقد اتخذ جوليان لهذا العمل
خادماً صغيراً يدعى ماريوس . وعهد جوليان كذلك الى بيع جوادي المركبة
ليوفر غذاءهما بعد ان استنبط طريقة فذة لاستدراك هذا النقص وهي ادخاله في
عقد إيجار خادمين من خدمه مادة تنص على تقديم جواد من قبل كل منهما مرة في
الشهر وبالتاريخ الذي يحدده هو .

وهكذا جاءه الاول بجواد ضخم الجثة أصهب اللون والثاني بفرس طوبلة
الوبر صغيرة الجرم .. وشد الحيوانان الى المركبة جنباً الى جنب وقاد ماريوس
هذا الموكب المضحك أمام رب القصر وكان هذا الخوذي الصغير غارقاً في رداء
قديم كان للأب سيمون ..

كان جوليان قد اغتسل وسوى شيئاً من هندامه فاستعاد بعض هيئته القديمة
واناقته السالفة .. الا ان لحيته الطويلة اضفت عليه مسحة سوفيه .
وتأمل العربى والجوادين والخوذي الصغير فاستخلص ان كل شيء على مايرام .

والشيء الوحيد الذي استرعى انتباهه بكثير من الاهتمام هو الشارات العائلية التي اعيد طلاؤها فوق أبواب العربية بعد ان كان قد أمر بإزالة شعار عائلة زوجته واثبات شعار عائلته .

وهبطت البارونة تستند الى ذراع زوجها وصعدت الى المركبة بعناء واستوت فيها تحديقها الوسائد من كل جانب . وظهرت جان بدورها . وضحكت أول الامر للتناقض البادي في حجم الجواردين وشكلهما . . . ولاحظت ان الابيض يبدو وكأنه حفيد الاصب وما لحت ماريوس حتى انطلقت في ضحكة رنانة طويلة لم تستطع مقاومتها ، كان وجهه غارقاً في قبعة عريضة الحوافي فلا يبدو منه سوى انفه كما اختفت يداه في كمي ردائه الفضفاض وهو يستدير الى الوراء بحركات غير متزنة لييلي أوامر سيده وهو في ذلك الزي العجيب .

واستدار البارون وتأمل الفتى الغارق في زيه المضحك فانتقلت اليه عدوى الضحك من ابنته فانفجر مقهقماً ونادى زوجته وهو لا يكاد يقوى على الكلام :
- انظري .. ما .. مار .. ماريوس ! .. اليس غريباً في شكله ؟ يا الهي ما أغربه !
وانحنت البارونة فوق باب العربية وراحت تتأمله فانتابتها أزمة ضحك هي الاخرى جعلت المركبة تهتز فوق نوابضها كأن رجات دهمت عجلاتها .
وشعب لون جوليان وتوجه اليهم سائلاً : - لا بد انكم جنتم ! ما الذي يضحككم بهذا الشكل ؟

واقنعت جان العتبة وحذا البارون حذوها واحست قواها تنحدر لشدة ماضحكت .. أما البارونة فظلت في العربية . فريسة لنوبات القهقهة تكاد تخنق بها . وبدأ معطف ماريوس يهتز فقد أدرك انه هو مبعث هذه العاصفة من القهقهة .. ولم يسمعه الا مشاركتهم وهو قابع في طباط أرديته الواسعة .

واندفع جوليان شديد الانفعال .. وبصفعه اطار القبعة الهائلة من فوق رأس الحوذي ثم استدار الى حميه وراح يتلفظ باقوال وصوته راجف الذبرات :
- يبدو لي ان ليس لك ان تضحك .. فلو لم تكن قد بذرت ثروتك وبعموت

مالك لما وجدتنا على مثل هذه الحال . انت التبعة لتقع عليك انت الذي دمرت نفسك وجررت علينا الحراب !

وهذأت العاصفة الطروب .. ثم تلاشت تماماً . ولأذ الجميع بالصمت . وصعدت جان الى قرب امها والدموع تسكاد تنفجر من مآقها . واستوى البارون مأخوذاً جامداً أمام المرأتين واتخذ جوليان مقعده في مجلس الخوذي بالقرب من الغلام الدامع العيين المتنفخ الوداج .

كانت الطريق طويلة مبرمة لما خيم على الركب من صمت واستياء . ولم يشأ أحد من الثلاثة الصامتين المكتئبين التعبير عما يختلج في أعماق صدره . انهم يدركون حق الادراك انهم ان يقولوا هلى التحدث بشيء آخر طالما ان هذه الفكرة المؤلمة تشغل نفوسهم لذا فضلوا الاعتصام بالصمت على تجاذب اطراف حديث ذي شجون . كانت المركبة تجتاز الحقول مخبج جوادها خيباً غير منظم ودجاجات سوداء كبيرة تفر من أمامها وتختفي وراء الاسيجة ، أو يظهر كلب - ذئب يطارد العربية مزججراً ثم لا يلبث ان يعود الى مأواه وهو لا يكف عن نباحه .

كانت المركبة تطوي في اندفاعها الحقول والسهول طياً وتعرضها حفر موحلة نيل بها ذات البين وذات البسار فتند عن صدر ألام صرخات قصار .

وبلفوا غابة طريقهم حيث قام حاجز أبيض مغلق الباب خف اليه ماريوس ففتحه ثم داروا حول مرج مترامي الجنبات ليقفوا أمام بناء عال كئيب مغلق النوافذ . وفتح باب في صدر البناء بفتة برز منه خادم شيخ أشل يرتدي صدرية حمراء ذات خطوط سود مخفي مريوله الأسود قسماً منها . وراح يهبط درجات السلم بخطى متعامة . وبعد ان استوضح امر الضيوف وعرف أشخاصهم سار بهم الى ردهة مكسوة بالبياض . كان هواء الحجرة المغن ، المحبوس ، ينفذ الى الرأتين بارداً مثلبجاً فيشيع حزناً وانقباضاً وتقرزاً .

وجلس الجميع وأقاموا ينتظرون . وبلغت مسامعهم أصوات خطى تسير في الطابق العلوي على عجلة من أمرها . كانت جان جالسة بالقرب من امها كئيبه

منقبضة النفس : أما البارون فكان يستند بظهره الى رخام المدفأة خافض الجبين .
وانفزع باب عال أخيراً وظهر الفيكونت والفيكونتيس دي بريسفيل : كانا
على قصر وهزال يسيران قفزاً ولا يعرف لهما من على وجه التحديد . وبالغيا في
الحفاوة والمجاملة : كانت المرأة رافلة في ثوب حريري مقلم وقد تقبعت بقبعة صغيرة
ذات أشرطة طويلة كالتي ترتديها الارامل : أما الزوج فقد حشر جسمه الضئيل في
معطف رسمي فخم ودنا فحيا بانحاء من ركبتيه .

كان بكل ما فيه ، شعره ، عيناه ، رداؤه ، يلتصع التاعشي . أحسنت الاعتناء به .
وبعد المجاملات المعتادة وتبادل التمنيات بحسن الجوار لم يعد لاحد ما يقوله .
فعادوا الى عبارات المجاملة يتبادلونها من جديد معربين عن أملهم باستمرار علاقات
حسن الجوار . كما أشاروا الى تبادل الزيارات بينهم تسلياً كبرى لهم هم المقيمون
كل سنتهم في الريف .

كانت هواء الحجرة البارد ينفذ حتى العظام ويشيع في الحناجر ما يشبه الصداً
وسعلت البارونة ثم أعطت إشارة النموض . واصر بريسفيل قائلاً : - كيف ؟
أبطل هذه السرعة . اقيموا بعض الوقت ايضاً .

غير ان جان قد استجابت لاشارة امها بالرغم من ان جوليان قد عبر بالاشارة
ايضاً ما معناه ان الزيارة كانت شديدة الاقتضاب .

وشاء أصحاب البيت قرع الجرس لاستدعاء الخادم كيما يعد العربة الا ان
الجرس حزن فلم يعلوله ونين فخرج رب الدار وعاد ليعلم ان الحبول قد ادخلت
الاسطبل ولا بد من الانتظار ريثما تخرج وتشد الى المركبة . وانتظروا . وراح
كل منهم يبحث عن كلمة تقال . تحدثوا عن الشتاء المطير . وسألت جان وقد اعتوتها
ارتعاشة رغماً عنها :

— بم يشغل الزوج والزوجة وقتها وهما على مثل هذه العزلة طوال السنة ؟
لشد ما أدهش السؤال آل بريسفيل لانها كانا دائمي الانشغال بالكتابة الى
أقربائهما من النبلاء الموزعين في كل ناحية من فرنسا كما كانا يملآن فراغ يومهما بمشاغل

صغيرة . أما تصرفات الواحد منها حيال الآخر فشكات على قسط كبير من
الرسيمات كأنها غريبان . فهما يتعدتان بكثير من الجد عن أشياء تافهة لا خطر
لها ولا معنى .

وخيل لجان ان هذين الزوجين الدقيقين المرتبين من بقايا نبلاء القرون الماضية .
ومرت المركبة أخيراً بحرها حيوانها المتنافران ، من أمام النافذة ، إلا
ان ماريوس لم يكن في مقعده فقد خيل اليه انه حر حتى الماء فانطلق الى الريف
يلهو فيه .

وغضب جوليان غضباً شديداً ورجا مضيفهم ان يرسل الخادم المتخلف ماشياً
ساعة يعود .

وبعد فيض من عبارات الوداع اتخذوا طريقهم الى القصر .
وما ان اغلقت أبواب المركبة حتى شرعت جان وابوها يضعكان ويقلدان
حركات آل بريسفيل الا ان جان بالغت في ذلك حتى خرجت عن نهديها فانتهرنها
الأم ولامتها ولم تعف عن زوجها فليس لهما ان يجزأ بمثل هؤلاء القوم الطيبين
الغريقي المسب .

ولم يسمهما الى الصمت اكراماً للأم . وما أطلوا على القصر حتى خاطب
المرن جان قائلاً :

- ان فصرك ياسيدة جان شديد البرودة ولا شك فهو البحر المثلج يلعب
ببه كفعله كل يوم .

وتوقفت المركبة أخيراً ، وسموا جوليان يتنادي شخصاً خلف العربة فانحلت
جان وانحنى أبوها من فوق الباب فبصرا بشخص غريب الشكل يسير نحوهما مسرعاً
كانت مسافاه تتعثران بردائه الطويل المتطاير الاعطاف وقد أمت باصرتيه قبعة لا تقياً
تنقلب عن رأسه . . كان كاه يسطفتان اصطفاق جناحي طائر مذعور او ذراعي
طاحنوة هراء . . وهو يخوض في سيرة حفراً موحلة تصدمه حجارة هنا وهناك . .
قافزاً . . واثباً . . قد لطمه الوحل . انه ماريوس يتبع المركبة بكل ما أوتي من قوة .

ما ان بلغ الغلام المسكين العربية حتى خف اليه جوليان فتناولوه من ياقته وجذبه اليه ثم افلت خناقه لينال عليه بقبضيه لكماً وصفعاً ففرقت قبضته حتى بلغت كتفيه تحت وقع الالك والصفع فكانت تدوي كأنها الطبل تقرعه عصاً غليظة ! وكادت جان تفقد صوابها أمام المشهد القاسي فهتفت : - أي .. آه .. ابتاه .. انظروا .. أما البارونة فزاحت تضغط ذراع زوجها وقد ثارت فيها اشتزاز مرير وقالت :
- ولكن .. الا تمتعه بإجارك ! ..

وانزل البارون زجاج النافذة الامامية وتناول وجهه من كمه وهتف به بصوت مرتجف :

- ألم تنته بعد من ضرب هذا الغلام ؟

واستدار جوليان الى حميه مأخوذاً : - ألم تذا في اي وضع مذوي غدا نوب هذا الشقي .

وأجاب البارون وقد مدرأه بين الاثنين : - وهل يتطلب ذلك كل هذه الوحشية ؟

واحتدم جوليان غبطة من جديد وقال : - اتريد ان تنصرف الى شأنك ؟ هذا شيء لا يمتنيك .

ورفع يده يريد ان يهوي بها على الغلام المسكين بيد ان قبضة حميه كانت أسرع الى الامساك بذراعه المرفوعة بقوة وجذبها فصدمت خشب المقعد وصاح به بشدة :

- اذا لم تكف فوراً عن ضربه نزلت اليك وعلمتك كيف تقف عند حدك .. انا ..

وتراجع جوليان فوراً .. وبضربة من سوطه انطلق الجوادان باقصى سرعتهم . ولزمت المرأتان الصمت وقد اعترهما شعوب شديد . وكان وجيب قلب البارونة يطرُق المسامع بوضوح تام .

وعلى المائدة أبدى جوليان مزيداً من اللطف كان شيئاً لم يحدث . وكذلك

فعل الباقرن فتظاهروا بتقاضي الحادث فجاروا الصهر بمرحى . وشيعت جان فتحدثت
عن آل بريسفيل فما كان من زوجها الا بحارنها بمرحى ولكنه لم يلبث ان قال :
- انهم قوم على جانب من اليسر عظيم .

لم يقوموا بعد ذلك بزيارات قط . فكلهم كان يخشى تكرار حادث ماريوس .
واكتفوا بارسال بطاقات بمناسبة عيد الميلاد معربين فيها عن عزمهم على القيام بواجب
الزيارة في الربيع عندما يصحو الجو . . .
وهلت ليلة عيد الميلاد . وحكان على ما يندبهم السكاهن . والخنار وزوجته .
ودعوم مرة ثانية بمناسبة رأس السنة . فكانت هذه الولايم هي الترويج الوحيد
الذي ادخل بعض التغيير على حياتهم الرتيبة .

كان على الاب والام مغادرة القصر في ٩ كانون ثان ، وشابت جان التمسك
بها الا ان جوليان لم يبد أي تشبث ببقائها مطلقاً . اما البارون فكان رده على
برودة صهره ان استقدم من روان عربية اجرة . وبعد ان فرغوا من اعداد الحقائق
ليلة السفر قررت جان وابوها السير الى ابور وكان الليل نيراً مثلجاً . فيها منذ
عودة العروسين من كورسيكا لم يزورا ابور . . .

واجتازا الغابة التي طوفا فيها ليلة الزواج جوليان وجان . هذه الغابة التي
حملت الي جسدي جان اول رعدة من رعشات الحب . فتحت ظلالها عرفت الحب
الحسي الذي لم تعرفه بعد ذلك الا في وادي (اوتان) بالقرب من البنبوع الذي
ورداه وامتزجت بانه قبلاتها العذبة .

كانت الغابة عارية عن اوراقها ، وقد اختفت منها تلك النباتات المتسلقة . .
لاشيء فيها سوى حفيف الاغصان وذلك الضجيج الجاف الذي يملو من الادغال
ايام الشتاء .

ودخلا القرية الصغيرة . كانت شوارعها الحاوية الصامتة تفوح برائحة البحر
والسمك . وكانت الشباك العريضة معلقة أمام الابواب كبا تحف أو منشورة فوق
عصي طويلة . .

كان البحر الرمادي البارد ذو الزبد الهادر قد بدأ جزره كاشفاً عن صخور (فيكامب) الحفراء الجائمة تحت أقدام الساحل الصخري المرتفع . وفوق الشاطئ الرملي كانت الزوارق ملقاة فوق جنوبها كأنها الحيتان الكبيرة الميتة . وهبط المساء . وزرف الصيادون عائدين يجرون أقدامهم المتهذبة نهالاً ثقالاً وقد انوا حول أعناقهم شالات من صوف وفي أيديهم زجاجات الحمر والمصابيح النقالا .. وداروا حول الزوارق والقوا بشباكهم .. ثم دفعوا بزوارقهم الى البحر ووثبوا اليها .

كانت جماعة من نساء الصيادين ذوات القامات الفارعة ملتفات بثيابهن الرقيقة قد وقفن فوق الشاطئ، يرقبن انطلاق آخر زورق وقد عكر صفو الشارع لعظهن الصاخب .

ووقف البارون وابنته يرقبان هؤلاء الرجال الذين ينطلقون كل ليلة معرضين أنفسهم للموت سداً للوقت وهم ، رغم ذلك ، على جانب من البؤس لا يعرفون معه اللحم طعماً .

وقم البارون وقد عمره رعشة وهو يتأمل المنظر المؤثر :
- إنه مخيف بجماله . هذا البحر . ما أروعه والليل يرخي عليه سدوله ! .. انه يحمل على متنه الوف النفوس فيتنصرف بحيوانها تصرفاً مطلقاً .. إنه رائع ! البس كذلك باجانبك ؟

وأجابت بصوت بارد النبرات :- ولكنه لايفوق البحر المتوسط جمالاً .. ورد أبوها مستنكراً : - البحر المتوسط ؟ انه لمن زيت ؟ بل كأن ماء عذب واكد ! ولونه ؟ ! ان له زرقه ثياب غسيل ! انظري ! انظري الى هذا المحيط ! كم هو مخيف بهذه الجبال من زبد الجياش ! فكري ! فكري بكل هؤلاء الرجال الذين ركبوا متون لوجه الصاخبة . لقد اختفوا في افقه الجهم المريض .. كان ذكر البحر المتوسط كافياً لطير بخيال جان ويذهب به شعاعاً .. الى تلك البلاد البعيدة التي ما برحت تلهب منها الخيال وتثير فيها كوامن الشوق والحزن .

وبدلاً من ان يعودا بطريق الغابة قفلاً واجمعين على موازاة الشاطئ* بخطى
وثيدة لا ينبشان بقولة ولا يثيران موضوع فراقهما المنتظر .. وتراعى جان ان ذهنها
أخذ يتفتق عن أشياء جديدة غير منظورة .. وحملتها رؤية تلك الانوار المبعثرة بين
المزارع على التفكير في الوحدة انباء طة الجناح فوق كل هذه المخلوقات ..
وبصوت جازم قالت :- ليست الحياة متعة في كل الاوقات ..
وأجاب البارون وقد أطلق تنهدة حرى :- ماذا تريدن يا فتاة ! اننا لانقوى
على تغيير شيء ...
وفي صبيحة اليوم التالي سافر الاب والام ومكثت جان وحيدة مع جوليان.



الفصل السابع

دخلت العاب الورق في حياة الزوجين ، ففي كل مساء ، بعد العشاء ، كانا ينصرفان الى هذه التسلية بينما يروح جوليان يدخن غليونيه ويرتشف الكؤوس على مهل . وما ان يفرغا من ذلك حتى تصعد جان الى غرفتها وتجلس الى النافذة تشتغل بلبوتها او تتأمل المطر المتون يقرع الزجاج والريح الصرصر تهز المصاريع هزاً عاتياً.. واذا ما اضناها الجلوس رقت ناظرهما وارسلت بها صوب البحر الجائش الفوارب.. ولا تلبث ان تعاود حملها بعد دقائق من تأمل حالم ضائع في مهامه بمجولة القرار.. لم يكن لها ، عدا ذلك ، ما يشغلها . فقد جمع جوليان بيده كل ادارة البيت ارضاء لتزغته الى السيطرة وتبعاً لميله الى القصد في النفقات .

كان مقتراً صارماً في تقديره . لا يعطي منجاً مالية للخدم مطلقاً وقد عمد الى خفض كميات الطعام الى حدها الادنى الضروري . ولا حظ ان جان ، منذ قدومها الى (بويل) ، كانت تومي الحجاز ان يجيء لها كل صباح فظيواً دسماً فرأى ابطال هذه العادة واضطرها الى تناول المادي من الحبز .

وتفادياً للاستبضاع والمشااحنات والجدل لزمت الصمت حينما تنصرفاته الغريبة بيد انها كانت تتألم بالغ الالم فكانت بدوات هذا الشح ابر تخذها وخذاً موحهاً . انها تنظر الى مثل هذه التصرفات نظرها الى انحطاط نفسي وخسة طبيعية هي التي ربيت في بيت لا يقيم للمال وزناً . فكم سمعت اباها يقول :
- ولكن المال خلق لينفق !

اما جوليان فهو لا يفتأ يردد على مسميها : - الا تستطيعين ابدأ ان تقلعي عن عادة القاء المال من النوافذ !

وفي كل مرة يتوصل الى توفير قروش هزيلة من شراء سلعة ما كان يلقاها
في صندوقه وهو يردد مبتهجا : - ان الجداول الصغيرة هي التي تشكل الانهار
الدافقة الذائخة !

ولم تنقطع جان عن الهيام مع احلامها كفعلمها يوم كانت فتاة عذراء . الا
ان صوت جورليان لا يلبث ان ينتزعها من عالمها السحري اذ يصك اذنيها وهويلقي
الى الاب سيمون باوامره الصارمة . . فكانت تعود الى شأنها وهي تقول لنفسها :-
لقد انتمى كل شيء ...

وتسقط دمة حري وتسيل فوق خدها الا سبل تكاد تحرق بشرته الرقيقة . .
ولحقت جان ، ذات يوم ، ان روزالي قد اصبحت حالها غير ما كانت عليه
في ماضيات الايام ، فقد اعتري هذه البنية انقلاب مفاجيء ، هذه الفتاة المرحية ابداء ،
الباحكة السن ليل نهار . . لقد فقد خداهما رواءهما الزاهر وغاضت منها دماء
الحوية فظهر كائنهما معفران بالتراب وبرزت عظامهما تصدم العين .

وكثيرا ما استفسرتها جان عن حالها : - امرضة انت يا بني ؟
وكان جواب الخادمة الصغيرة لا يتغير : - كلا . لبس بي شيء يا سيدني .
وبصعد شيء من الدم الى وجنتها وتسرع بالخروج ...
كانت فيما مضى لا تسير الا قفزا . . اما الآن فهي تبحر قدما جريا وقد
فارقها كل فتنتها الماضية ووسامتها السافة كما انها صرفت عن ابتياع تلك الحاجات
الصغيرة الجميلة من الباعة الجوالين فعبثا كانوا يفرونها بما يحملون من ادوات زينة
براقه واثرطة حريره زاهية وغير ذلك مما يطير له قلب النساء من زينة و بهرج .
ولم تقتصر الكتابة على ساكني النصر بل تعدته الى مظهره الخارجي فقد عملت .
الامطار بالواجهة البيضاء عملها وتركت فوقها خطوطاً طويلة ومادية اللون .

وازداد الجو اكفهراراً في اواخر كانون الثاني . وتساقطت الثلوج ، وتراكت
في الافق الشالي البعيد غيوم هائلة منبهة من قلب المحيط المظلم . . وغمرت الثلوج
الدهول المجاورة ولما اصبحت كانت الاشجار كاسية حلالاً بيضاً فاصعات ...

وأهتم جوليان باستئجار هذا الطقس فانتعل حذائه الكبيرين وتكعب بندقيته وراح يتقرب الطيور المهاجرة .. وكانت طلة . انه غمزق الصمت المبيت الحميم فوق بساط الثلج الناصع البياض فتدعر جماعات الغربان فتنتطلق من فوق الاشجار محلفة في الفضاء الرمادي الجامد ...

وادرك جان ضجر قاتل فخرجت الى العتبة فبلغ اذنها ضجيج آت من بعده فوق البساط الابيض الشاحب الصامت .

وذات صباح كئيب من هذه الاصباح كانت جان جالسة الى الموقد تستدفي . بينما راحت روزالي تهتم بتنسيق الغرفة وقد نضجت معالم وجهها بالم دفين مكتوم واشتدت عليها وطأة حالة صعبة لا تبشر بالخير .. وندست عن صدر البنية المسكينة زفرة حارة طرقت اذني جان فسألتها دون ان تستدير برأسها اليها : - ما بك يا روزالي ؟

- وجاءها جواب الخادم المعتاد : - لا شيء يا سيدتي .

بيد ان صوتها كان منكسراً محسراً .

وانصرفت جان الى التفكير باشياء آخر .. وانتهت فلم تشمر بحركة الفتاة خلفها فنادت :

- روزالي ! فلم تظهر بغير صمت مطبق . وعادت تنادي بصوت

اقوى وقد خالنها غادرت الغرفة : - روزالي !

كانت تؤمك ان تمديدها الى الجرس تفرعه عند ما طرق اذنها انين عبق ينبت من ورائها جعلها تقفر وقد اعتوتها رعشة خوف عنيفة .

كانت الخادم الصغيرة مستلقية فوق الارض شاحبة ضائعة النظرات وقد مدت ساقيها واستندت بظهرها الى خشب السرير .

وخفت اليها جان هاتفة : - ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

ولم تنبث ببنت شفة ووجدت لا تبدي ولا تعيد . كانت تركز على سيدتها عيني زائغتين مغمورتين بالدوع وقد لهنت منها الانفاس وعلا صدرها وانخفض

منسارعاً فكان الماء هائلاً يمزق أوصالها تمزيقاً وحشياً . . وانهارت فجأة بكل
جسمها وقد خنقت بين أسنانها صرخة الم يمزق . . .
وبدا شيء يتحرك تحت ثوبها بين فخذيها المتباعدين . . . وندت عن صدر الفتاة
نهدة عن حنجرة تخنق . . ثم ارتفع مواء طويل . . . شبيه باستغاثة رقيقة مؤلمة
أول نداء يصدر عن مخلوق يلج باب الحياة . .
لقد وضع كل شيء أمام عيني جان ! وخفت الى الباب ونادت وهي تكاد
تفقد صوابها :

- جوليان . . . جوليان . .

واجابها صوت زوجها من اسفل : - ماذا تبغين ؟ !
ووجدت صعوبة قصوى في التعبير : - انها . . . انها . . روزالي !
واندفع جوليان فقفز الدرجات زوجاً زوجاً . . وبلغ الغرفة ودنا من الفتاة .
وبضربة واحدة ازاح ثوبها عن ساقها فظهر بين فخذيها العاريتين مضغة من لحم جمدة ،
متشنجة ، لزجة ينبعث منها انين حاد مخنوق اشبه بمواعد صغار الهررة حديثة الميلاد .
ورفع جوليان وجهه الخبيث الى زوجته الضائعة لللب ودفعها بكلتا يديه خارجاً
وهو يقول : - اذهبي . اذهبي . هذا لا يعنيك . . ابعثي الي بلوديفين
والاب سيمون . .

وهبطت جان مرتعشة الاوصال الى المطبخ ونفذت منه الى ردهة الاستقبال
التي لم تعرف النار منذ ذهاب والديها واقامت ، مقرودة ، متفاقة القلق ، تنتظر
تطورات الموقف .

ولم تلبث ان لحق الحاد مخرج مهرولاً ثم يعود بالارملة « دانتو »
قابلة المنطقة .

وحدث فوق السلم هرج عظيم كأنهم ينتقلون جريماً ثم جاء جوليان فانبأ جان
انها تستطيع الصعود الى غرفتها . كانت ترتجف كأنها امام حادث مفرع . وعادت
تجلس امام نارها وتساءل نفسها :

- كيف هي الآن ؟ ولحق بها جوليان بعد قليل :

كان جوليان مشغول الفكر ، ناثراً الأعصاب ، يقطع الحجرة بخطى مراعى كأن غضباً هائلاً يعصف بين حناياه . وتوقف بعد لحظات وسأل :

- ما الذي تنوين فعله بهذه الفتاة ؟

لم تدرك مرمى قوله زوجها فنظرت إليه مستفهمة : - ماذا ؟ ما الذي نقول ؟ لا اعرف شيئاً أنا ؟

وصرخ بغتة وكان ثورة غضبه بدأت تنفجر :

- نحن لا نستطيع ، على اي حال ، ان نحفظ تحت سقفنا يولد سفاح . .

وانتهب جان ارتباك شديد ثم ، بعد صمت طويل ، قالت :

- ولكن . . . يا صديقي . . . باستطاعتنا ايكال امره الى مربية ما . . .

ولم يتركها تكمل : - ومن سيدفع النفقات ؟ انت ولا شك ! . .

وفكرت طويلاً باحثة عن حل . وقالت اخيراً : - ولكن الا يهتم أبوه به ؟ . .

واذا ارتضى هذا المحرم الزواج من روزالي انقضى كل اشكال . .

وكاد جوليان يفقد سيطرته على اعصابه . قال مزججراً : - أبوه ؟ أبوه ؟ أو تعرفين اباه انت ؟ كلاً طبعاً . . حسناً . . وبعد ذلك ؟

واحتدت جان وقد بلغ منها التأثير مبلغه : - انه لن يدع هذه الفتاة هكذا . بكل تأكيد . . انه اذا لجبان ! سنعرف اسمه . ونغشي اليه نساءه تفسيراً لتصرفاته . .

كان جوليان قد استعاد شيئاً من هدوئه . وعادود زرع الغرفة : - انها لا تريد التصريح باسم الذي اغواها . . الا لي انا . . . واذا لم يرتض الزواج منها ؟ .

نحن لن نستطيع في هذه الحالة الاحتفاظ تحت سقف بيتنا بفتاة - ام ووليد سفاح . أو تفهمين ؟

واصرت جان : - انه شقي هذا الرجل . . ولكن . . لأبد من معرفته . .

وعندئذ يكون لنا معه شأن . وغمر الدم وجه جوليان بيد انه وجدوجهاً للاعتراض :

- وبانتظار ذلك ؟

ولم تكن قد حزمت امرها فبألته : - وما الذي تقترحه انت ؟
وسرعان ما صرح برأيه : - آه ! انا ؟ ارى ان ننقدها بمضى المال ونرسلها
مع وليدها الى الشيطان !

ولم يرق هذا العرض للمرأة الشابة فرمته بنظرة احتقار وقالت :
- اما هذا فلا ! انما اختي بالرضاع هذه المنكودة ! لقد نشأنا سوية . وها
هي ترتكب فعلة شنعاء . . فليكن ! انه حظها من ايامها . . انه تكدر طالعتها غير
اني لن القي بها خارجاً من اجل ساعة ضعف ادركتها . . واذا اقتضى الامر فسأعنى
انا نفسي بتربية الوليد . . .

وفقد جوليان كل سيطرة على اعصابه : - وسيكون لنا اسم نظيف نحن !
وشرفنا . . وعلاقتنا سيقولون في كل مكان اننا نحمي الزلات ونؤوي السافطات . .
وسيمتنع القوم الشرفاء عن وطأ ارض بيتنا . . باله من تفكير اخرق حقاً !
المجنونة انت ؟

وظلت مسيطرة على زمام اعصابها حتى تلك الساعة :
- لن اترككم تلقون بروزالي خارجاً ابداً ! . . واذا ابيت الاحتفاظ بـ
استودنتها امي . . ولكن لا بد من معرفة والد الطفل . . .
وخرج عندئذ وقد فرغ منه الصبر وصفق الباب خلفه صائحاً : - ما اغبي
النساء وما اشد حقهن !

وصعدت جان بعد الظهيرة الى قرب الفتاة النفساء . كانت ساكنة في سريرها
والمعجوز دانتو تقوم بامرها . كانت عيناها مفتوحتين معلقتين بالمعجوز التي احتضنت
الطفل وراحت تهدده .

ما وقعت عينا روزالي على سيدتها حتى اندفعت تشقى بالبكاء واخفت بالاغطية
وجبهها وقد هزها اليأس هزاً عنيفاً . . ومشت اليها جان وانحنت فوقها تحاول تقبيلها
الا انها قاومت وهي تحفي وجبهها . . ولكنها لم تلبث ان استسلمت الى قبلات
اخنها ، وهي تشقى بالبكاء !

كان البرد شديداً وثار شاحبة تتراقص السنن في الموفد . وشرع الوليد يبكي .
ولم تشأ جان ان تحذنها عن الصغير خشية ان تسبب لها نوبة اخرى .
وتناولت يد خادمتها وهي تردد : -- لا نخشي شيئاً . . لا نخشي شيئاً . .
كانت الفتاة المسكينة تسترق النظر الى القابلة فتفتنض لدى سماعها صرخات
الوليد فتندفع بقايا الحزن من صدرها تنهدات تشنجية بينما تروح تشرق بدموعها
المنسكبة في حنجرتها انسكاباً . . . انها تزوح تحت آلام ثقال . . نفسية وجسدية . .
وعانقتها جان من جديد وتمت في اذنها بصوت خفيض :
- لا تبتشي يا بنيتي . سنعتني بالوليد كل العناية .

وخرجت من الغرفة عجلت وقد اوشكت الخادم المسكينة ان تفص بالعبراث .
لم يمض يوم لا تصمد فيه جان مراراً الى غرفة النساء ، فماتشاهد روزالي سيدتها
حتى تنفجر باكياً ، واوكل امر الطفل الى جاره مرضعة . اما جوليان فقلم حدث
زوجته كانه يحمل لها الحقد الدفين لانها رفضت طرد الخادمة المسكينة . وحاول
مرة ثانية الخوض في الموضوع بيد ان جان تناولت رسالة تلقفتها من البارونة تقول
فيها انها تنتظر ارسال الفتاة اليها اذا كانوا لا يرغبون بالاحتفاظ بها في المنزل .
وصرخ جوليان محنداً : ان امك اشد جنوناً منك . الا انه لم يصر .
مضت خمسة عشر يوماً استطاعت النساء في نهايتها ترك السرير والهودة الى
مزاولة عملها

وذات صباح نادتها سيدتها فاجلستها الى قربها وتناولت راحتها وتاملتها بنظرة
وقالت :

- اسمعي يا بنيتي . . حدثيني بكل شيء . . .
وارتعشت روزالي وجمعت : - عم يا سيدتي . .
- لمن هذا الطفل ؟

وسرعان اكمدت الفتاة وانجمت شفاتها كأن يأساً مقبلاً قد دهمها . . وحاولت
يجنون تخليص يديها لاختفاء وجهها براحتيها . . بيد ان جان جذبتها الى صدرها

وغائتها رغماً عنها وغمرتها قائلة :

- انه لا امر تعيس . ماذا تريدن . كنت ضعيفة .. الا انك لست الوحيدة التي انزلت في هاوية الغواية فاذا كان الوالد يرضى الزواج منك فليس لنا ان نشكو .. ومقدورنا ان نلحقه بخدمتنا معك ..

وعلا أنين روزالي كأن سياتاً لاذعة تشغها وكانت بين يدي سيدتها ترقص ارتقاص طائر ذبيح بغية التخلص من قبضتها .

وعادت جان تقول : - افهم جيداً انك خجلى .. غير انك تلاحظين اني لم اغضب فانا اشفق عليك واحديثك بكل لطف . فاذا كنت اسألك عن اسم مغريك فما ذلك الا حرصاً مني على مصلحتك فانا اشمر بآلامك اذ تجاهلك رجلك واسمى للعبولة دون حدوث شيء من هذا . وعندما تصرحين باسمه سيمشي اليه جوليان يحدثك حديثك وسنجهره على الزواج منك ولما كنا سنحتفظ بكما عندنا فنضطره الى اسعادك في المستقبل .

وما فرغت جان من حديثها حتى كانت روزالي قد غمكت ، بحركة مباغته ، من التخلص من قبضتها وانطلقت كأن مساً قد أدركها .

قالت جان لجوليان وهما الى مائدة العشاء : - لقد حاولت عبثاً افناع روزالي بالتصريح باسم الرجل الذي أغواها . حاولت كل أساليب الاقناع فلم أفر بطائل . لم لا تحاول انت من ناحيتك فقد تنجح حيث فشلت فلا بد من ارغام هذا التعس على الزواج من ضحيته المسكينة .

وغضب جوليان : - آه . اعلمي اني لا اريد سماع شيء عن هذه القضية . لقد شئت الاحتفاظ بهذه الفتاة . احفظي بها شريطة الا تصدعي رأيي بحديثها في كل مناسبة ...

كانت اخلاق جوليان قد ساءت منذ حادثة روزالي . وعمد الى عدم توجيه الكلام الى زوجته فاذا اضطر الى ذلك فصراحاً وكانه غاضب باستمرار اما هي ، فعلى عكسه ، كانت خفيفة الصوت ، لطيفة المعشر ، مستسلمة الى قدرها ، كيما

تتعاشى كل جدال .. وكثيراً ما كانت ترف الدمع السخين في سريرها عند ما يجن الليل وتنفرد بنفسها .

وبالرغم من ثورته الدائمة ، كان جوليان يعبر الى مخدع زوجته كل ثلاث ليال او اربع ..

وسرعان ما استعادت روزالي صحتها كاملة وفقدت شيئاً من اكتئابها بالرغم من انها قلقة دائماً نهياً لحوف مجهول . وكانت تفر من جان كل مرة تحاول استيضاحها بشأن ابي طفلها .

وبدا جوليان ، بغتة ، اشد لطفاً وايناساً فعادت الزوجة الشابة تنسب بآمال ذاوية الا انها استعادت بعض مرحها القديم دون ان تتخلص من قلقها نهائياً ، ذلك القلق المبهم الذي لا تعرف كيف تعبر عنه وبم تهره ...

اقامت جان ترقب ، بشوق متجدد ، هبوب نسائم الربيع ، زاعمة ان الشتاء القاسي سبب لكل ما يزعجها من آلام . فهي تارة تفقد شهيتها وطوراً تشعر بسوء هضم او لم في القاب فيعلو وجيب قلبها ، او تدركها ارتعاشة شديدة تتركها تعيش في قلق واضطراب لا يطاقان .

وهبط ميزان الجو ذات مساء . وارتعش جوليان برداً وهما يغادران غرفة المائدة التي لم تعرف النار نتيجة لتقتير جوليان وبخله . وفرك يديه وقال واسنانه نصطك :

- انه لمن المستحسن ان نرقد سوية هذه الليلة ... اليس كذلك يا قطتي ؟

وضحك ضحكته الصبيانية كما كان يفعل في الماضي . ووثبت جان الى عنقه . وطابت على شفقيه قبله مشوقة ... غير انها احست بانها ليست على ما ينبغي فهي متألمة ، نائرة الاعصاب . ثم راحت ترجوه ان يتركها تنام وحيدة هذه الليلة وشرحت له ببضع كلمات ما يؤلمها :

- ارجوك يا عزيزي . اؤكد لك اني لست على حالة حسنة . وسأتمثل للشفاء غداً ولا شك .

ولم بصر : - كما تشابين يا عزيزتي . فاذا كنت مريضة فعليك العناية بنفسك .
ثم انصرفا الى الحديث بأشياء أخرى .

واوت الى فراشها مبكرة . وتمت الاعجوبة بأمر جوليان فاشعلت نار في
غرفته الخاصة ! وعند ما اخبروه ان النار قد ادفأت الفرقة جيداً قبل زوجته
وانصرف الى فراشه .

كانت جات تنجف في سريرها وقد خيل لها ان البيت برمه غارق في لجة
من صقيع .

ونفضت مرتين لتطعم النار مزيداً من حطب او لتأني بدثر وثياب تثقل بها
اغطينها . واقتنعت ان لا شيء يمكنه بث الدفء في جسدها المقرور .

وامسكت اسنانها وارتمشت يداها وضاق صدرها وشرع قلبها البطيء يجب
وجيباً عالياً مخنوقاً وكأنه يتوقف او كأن الهواء قد جمد فلا ينفذ الى رثتها ..

كان البرد ينفذ حتى عظامها . ودمها انقباض هائل وضيق مروع ... وخيل
اليها انها مهجورة مهلة تكاد تلفظ انفاسها الاخيرة في وحدة باردة مظلمة ..

وفكرت : سأموت .. اني اكاد اموت ...

وسيطر عليها رعب مروع فوثبت من سريرها . وقرعت الجرس تستدعي
روزالي ... وانتظرت . وعادت القرع ... وانتظرت ثانية راعشة مثلجة الاطراف
غير ان الخادمة الصغيرة لم تأت . انها ولا ريب غارقة في اول رقادها العميق
فلا يقوى شيء على ايقاظها منه ..

وبلغ الرعب واليأس من جان مبلغاً كادت تنقد معه صوابها .. وانطلقت
فوق السلم عارية القدمين وتسلفت الدرجات دون ضجيج منلمسة طريقها في الظلمة
واهتدت الى باب الوصفة ففتحته وفادت :

- روزالي ! ..

كانت ما تزال تتقدم في الفرقة فاصطدمت بالسرير وجاستت بيدها بين
طبائنه .. انه فارغ .. كان فارغاً .. بارداً .. كأن احداً لم يرقد فيه تلك الليلة .

وقالت مأخوذة ،ستطارة اللب : - كيف ؟ .. ابن هي ! ؟ لعلها ذهبت في مثل هذا الليل المثلج .. والى اينه ؟ ..

وكاد قلبها يشب من بين حناياها . ورأت ان تسير الى جوليان فتوقفه لبيحنا عن الفتاة . وبلغت غرفته فوجلتها بعنف يدفعها شعورها المبهم بانها مستبوت . . . ستفقد ادراكها ... فلا بد لها من رؤيته قبل ذلك ..

وعلى وميض اللهب المشرج في الموقد لمحت ، الى جانب رأس زوجها ، فوق الوسادة ، رأس روزالي ! واطلقت صرخة هائلة وثب لها الاثنان مذعورين وجدا لحظة لمول المفاجأة ... اما هي فقد لاذت بالفرار كأن مشبهاً مريعاً يعنف في مطاردتها ... وناداهما جوليان وهو يكاد يفقد صوابه فشعرت قشعريرة هائلة اذ طرق صوته اذنيها .. انه سيخلق الاكاذيب ليفسر تصرفاته .. انها لا تريد ان تراه ... وعادت تتطلق هابطة السلم ...

وركضت في الظلام بكل قواها معرضة نفسها للسقوط فوق الدرجات ... انطلقت الى الامام تحشها رغبته في الحرب فهي لا تود رؤية شيء او سماع شيء . وبلغت اسفل القصر فتهاكت فوق احدى الدرجات ، بقميص نومها ، عارية القدمين ، شاردة اللب مضضعة الحواس

ووثب جوليان وارتنى ثيابه بسرعة واندفع يهبط السلم في اثرها وهو يصرخ : - اصفي الي يا جان ..

كلا انها لا تريد الاصفاء اليه ولن تسمح له بعد اليوم ان يمسا بطرف اصبعه . واسرعت تختفي في غرفة المائدة كأنها تفر من مجرم قاتل . كانت تبحث عن مكان تنوارى فيه ، عن نجباء ، عن زاوية مظلمة عن سبيل تتعاضاه فيه . ولم تجد سوى المائدة فانزلت تحتها . وفتح الباب والمصباح بيده وهو لا ينفك ينادى : - جان . ووثبت خفيفة كالارنب ولجأت الى المطبخ فدارت فيه مرتين كأنها الحيوان الحبيس الا انها وجدت نفسها ، بفتة ، امامه وجهاً لوجه ... وفتحت باب الحديقة وانطلقت في الاوض النضاء ...

كانت نفوس باقداها العارية في الثلج حتى ركبتيها . وكان لهذا الاحتكاك
بالغ الاثر في بث النشاط البائس في نفسها . لم تحس برداً بالرغم من انها تكاد تكون
عارية فهي ، في استغراق روحي قوي طغى على مشاعرها فبلد احساساتها .. كانت
تعدو بيضاء كالثلج .. فوق الثلج الابيض .

وسارت باتجاه الممر العريض فاجتازت الحديقة ثم عبرت المرج ...
لم يكن في السماء قر . الا ان النجوم كانت تلمع كأنها جذوات نار
مبثوثة في صفحة السماء القاتمة والسهل منور بضوء شاحب وصمت عميق يحتم فوقه
وسكون مطبق يهيم عليه .

وتابعت جان سيرها لا تلوي على شيء ولا تفكر بشيء . ووجدت نفسها
فجأة على الشاطئ الصخري . وتوقفت بحركة غريزية خالية الذهن من كل فكرة
مجردة من كل ارادة .

كان البحر ينسط امامها من خلال انفراج الصخور غير واضح المعالم ، نفوح
منه رائحة ملحة وقد تقلص مآزده عن اليابسة بفعل الجزر .

اقامت هنالك طويلاً في جمود فكري وسكون جسد . وشرعت ترتعش فجأة ..
ارتعشت بجنون كأنها شرع في مهب ريح صرصر . كانت قوة غير منظورة ترجف
يديها وساقها ارتجافات عنيفة مفاجئة . وعاولها الادراك ، بغتة ، واضحاً جلياً ..
وعبرت أمام ناظرها مشاهد قديمة التار يخ .. تذهنها معه في زورق الاب
لسنك .. حديثها . تعميد السفينة .. وسايرت ذكربانها حتى بلغت بها تلك الليلة
حيث هدهدتها الأحلام اثر نزولها في (بوبل) .. اما الآن .. الآن .. لقد
حطم حياتها .. لقد انتهى كل سرور وانقضت كل سعادة .. وكل أمل أضى
مستحيلاً .. بالمستقبل المغم بالآلام ! انه غد مغم خيانة ويأساً ! فباليتها ماتت
وانقضى بموتها كل هذا الشقاء !

وصك سمعها صوت آت من بعيد : - هنا .. هنا .. هذه خطاها .. سريماً
من هنا .. سريماً . انه جوليان يجد في طلبها ..

آه ! انها لانود رؤيته .. وطرق سمعها هدير الموج المهبم بصخب تحت الصخور ..
ونفضت وتحفزت للوثوب .. شاءت ان تودع الحياة وداع اليأس المظلوم .. فند
عن صدرها أنين كأنين المحضر .. فكأنها جندي تثقب صدره الحراب في المعركة ..
ولم تستطع الثبث بسوى كلمة واحدة .. قصيرة .. مقتضبة .. - أمي !

وسرعان ما عبرت ذكرى امها في خلدها . فرأتها بعين خيالها تنتحب ..
ورأت اباها راکماً فوق جثتها الغريق .. وادركت حينئذ مبلغ اليأس القتال الذي
سلبه لها .. لهذين الـكائنين العزيزين ..

وتراخت كل عضلة فيها . وانهارت فوق الثلج كأنها البناء الواهي الدعائم ..
ولم تسعها قواها بالمرب عندما أدركها جوليان والاب سيمون وماريوس يحملون
المصابيح . فبادروا اليها وحملوها بذراعيها ليباعدوا بها عن الامواج التي كانت منها
قيد أغلة ..

واستسلمت اليهم لاتبدي ولا نعيد . فليفعلوا بها مايجلو لهم . وشعرت بهم
يسرون بها ثم يلقون بها فوق سريرها .. ثم راحوا يدلكون جسدها بأقشة حارة ..
واحى بعد ذلك كل شيء من ذهنها .. وفقدت كل ادراك ..

وبزغ النهار .. ولم تستطع جان مغادرة فراشها فهي نحس كابوساً مريعاً يحجم
فوق صدرها الواهي يكاد يكتم انفاسها .. ما بها ؟ ماذا دهاها ؟ لم تخر جواباً ؟
وعاودتها القنبوبة .. ورأت فيما يرى النائم فأراً يخرج من جحر في الجدار ويشب
فوق سريرها ثم يتلوه ثان فتالت فراجع .. وأخيراً يغطي خبش لجب من الفران
كل ما في غرفتها وينزلق بعضه تحت غطاءها فيحتك بجسدها فتعتريها قشمية مؤذية
وتغد يدها الى الفران محاولة القبض على بعضها الا ان راحتها تنطبق دائماً على هوا ..
انها تكاد تختنق .. لبها تقوى على الفرار .. وندت عن صدرها صرخة حادة وخالت
ان ثمة من يشدها فيسرها في سريرها فلا تستطع حراكاً .. انها تشمر باذرع
قوية تكبلها وتشل كل حركة من حركاتها .. وتفرست في الفراغ ... ولكنها
لم تر أحداً ..

. واستفاقت .. استفاقت محطة الاعصاب ، مضغعة الحواس ، رازحة تحت
ثقل الم.مضن .. وادركها شيء من هدوء بعد ذلك فاستكانت اليه .. وفتحت
عينها ولم تدهشها رؤية امها الى جانب سريرها ... ورأت كذلك ، الى قرب امها ،
رجلاً ضخماً الجثة لم يكن لها به عهد من قبل .

كم كان لها من العمر ؟ ليست تدري ! .. وخالت نفسها مازالت طفلة حديثة
تجربو .. لقد فرغ رأسها من كل ذكرياتها .. نبخرت .. اضمحلت .. ذهبت
مع الريح ..

وتكلم الرجل الضخم : - هدي روعك ياسيدي البارونة . ها ان بقدوري
اجابتك الآن .. ولكن ينبغي الا يكلمها احد الآن .. يجب ان ترفد .

وحاولت جان ان تفكر فشعرت كأن نعاساً ثقيلاً يبهظ جفניה .. كأنها
قضت شهوراً طويلة غارقة في لجة السبات .. لم تحاول تذكر شيء اطلاقاً .. فكأن
خوفاً مبهماً يجيدها عن مواجهة حقيقة مرة ستمود الى مخيلتها .. وعادت تفرق في
عدم ادراك بعيد الغور فاقدة كل حس ..

كم طالت بها هذه الغيبوبة ؟ .. ليست تدري .. وفتحت عينها لتقعا على
جوليان .. كان وحده الى قربها .. واستعادت فجأة كل شيء .. لقد انزاح الستار
الكثيف الذي كان يججب عن عيني عقلها كل حياتها الماضية .

وعصف بفؤادها الم هائل عضاض فودت لو تفر من وجه هذا الرجل ..
فدفعت باغظيتها بحركة مذعورة ووثبت من سريرها لتسقط فوق الارض لأن
ساقها لم تقويا على حملها ..

واندفع اليها جوليان . فراحت تزجر وهي تذبذبه عنها متعاشية مسه فتدحرجت
بكل جسها فوق البلاط .. وفتح الباب .. وخفت اليها الحالة ليزون والارملة
وانتو ثم ابوها واخيراً وصلت امها لاهنة الانفاس ضائفة اللب .
واعادوها الى فراشها فاغلقت جفניה حالاً كيما تفكر على هواها ..

وانهمكت امها وخالها بالعناية بها . وسألناها : - او تسميها ... يا جان ..
يا جان الصغيرة .. يا صغيرتنا العزيزة جان ..

وتظاهرت بالصمم فلم نجر جوابا . وتأكدت من ان النهار يلفظ انفاسه
والليل يرخي على الكون سدوله . ولم يغادرها اهلها . فهم الى سريرها كالخوس
الشاكي الحراب . وبين الفينة والاخرى كانوا يناولونها ما تشرب .. فكانت
تتناول الكأس لاتنبت ولا تختلج فيها جارحة .. وجفاها الثوم فلا يعقد اجفانها
ابداً .. كانت تفكر بعناء . باحثة عن اشياء اخطأتها ذاكرتها كأن ثقوباً قد
حدثت في كيان هذه الذاكرة فظلت بقعاً بيضاء ولم يسجل فوقها شيء ابداً ..
وشيثاً فشيئاً ، وبعد جهود مضنية ، استعادت كل ما حدث لها ..
وشرعت تفكر باستغراق ثابت ..

لقد استقدموا اباه وامها والحالة ليزون .. فلا بد ان يكون مرضها خطيراً ..
ولكن جوليان ؟ ماتراه قال لهم ؟ او علم اهلها بحقيقة الموقف ؟ وروزالي ؟ أين
تراها الآن ؟ ما عليها هي ، جان ، الزوجة المدعوة ، ان تفعل الآن ؟ ماذا
تفعل يا الله ؟

واستنار عقلاها بفكرة برزت من العدم : تعود مع ابويها الى روان كفعلاها
قبل ان تزوج ، وسنعبش كإرملة . هذا كل ما في الامر .

وانتظرت وقد اعارت اذنيها لكل ما يتروّد حولها ففهمت كل شيء دون ان
يبدو عليها انها فعلت . وكنيت خبر عودة ادراكها .. فكانت جلدة مخاتلة ..
ووجدت نفسها ، مساء ذلك اليوم ، منفردة بامها فنادتها بصوت خفيض :-

امي الصغيرة !

واستغربت صوتها هي نفسها فقد بلغ اذنيها كأنه صوت انسان آخر .
وتناولت الأم راحة فئاتها وقالت بصوت يذوب حنواً وانعطافاً :

- جان ! يا بنيتي العزيزة ! يا صغيرتي جان ! اتعرفيني ؟ ..

- اجل يا اماء .. ولكن لا تبكي فلدي يا اسره لك .. وهو كثير ..

هل اصدقكم جوليان الخبر؟ هل قال لكم لماذا فررت الى الثلج؟

- اجل يا حبيتي .. فقد دهمتك حمى خطيرة ..

- ليس هذا هو السبب يا أماء .. اما الحمى فقد اصببت بها بعد ذلك .. ولكن الم

يقول لكم من الذي سبب لي تلك الحمى ولماذا فررت وتوغلت في الليل والثلج ..؟

- كلا يا حبيتي ..

- سأقول لكم بنفسى اذآ : لقد ضبطت روزالي الحادة في فراش

جوليان ... زوجي ..

وخيل للبارونة ان ابنتها جان ماتزال على هذيانها .. فعمدت الى مداعبتها قائلة:

- هدئي من روعك .. نامي .. نامي يا حبيبتي .. حاولي ان تنامي ..

الا ان جان عادت تقول باصرار :- لقد استعدت كل قواي العقلية في هذه

اللحظة فانا لا اهرق باقوال جنونية شأني في ايام مرضي الاول : لقد ادركني مرض

ذات مساء .. فدعوت جوليان .. ومرت الى غرفته في صميم الليل فاذا بي أجد

روزالي في سريره فاضاعت الصدمة صواحي فانطلقت في الثلج ابغني الفناء نفسي من

فوق صخور الشاطئ ..

وعادت البارونة تقول غير مقتنعة :- أجل يا حبيبتي ... لقد كان

مرضك شديداً ..

- ليس هذا هو السبب يا أماء .. اقول لك اني ضبطت روزالي في فراش

جوليان .. وانا ارفض العيش مع هذا الخائن المنحط .. ستعودان بي الى روان

كما كنا نفعل في الماضي ..

ومحلاً بنصيحة الطبيب لم تعارض البارونة :- كما تشائين يا حبيبتي ..

وأوشكت المريضة ان تفقد صبرها :- أرى جيداً انك لا تريدني تصديقي ..

ادعي والدي فهو يصدقني اخيراً ..

ونفضت الام بتناقل وتناولات عصويها وخرجت نجر قدمها ولم تلبث ان عادت

بصحبها البارون وهي تتوكأ عليه ..

وما استقر بها المقام حتى شرعت جان تتكلم : روت لهما كل شيء ، اخلاق جوليان الشرسة ، طباعه الفظة ، خشوته ، بخله .. وانتهت بان وصفت لهم حادث الحيانة الذي زلزل كيانهما وافقدها صبرها عليه .

وما فرغت من كلامها حتى كانا قد اقتنعا من انها لا تهزي .. واحتار البارون بامرء .. فما تراه فاعلاً ؟ بم يجيب ابنته ؟

وتناول يدها بجنون كما كان يفعل في الماضي اذ يرفدها في سريره - ويروي لها القصص :

- اصفي الي يا حبيبتي . ينبغي لنا ان نتصرف بحكمة فلا نتسرع ، أما انت فعليك ان تتظاهري باحتمال كل شيء حتى نتخذ في المسألة قرارنا .. انعدبني بذلك ؟ وتمتت : - لا بأس برأيك يا ابتاه .. ولكنني ان اقيم واية تحت سقف واحد لحظة بعد ابلالي بما انا فيه .. ثم اضافت بصوت خفيض : - أين هي روزالي الآن ؟ ..

فاجاب البارون : - لن تقع منك عليها عين . فعادت تقول بلهفة : - ولكن أين هي ، يجب ان اعرف ما حل بها . واعترف لها ان الخادمة لم تغادر القصر بعد الا انها ستطرد قريباً شر طردة وما خرجا من غرفة المريضة حتى بدا البارون يحرق الارم غيظاً وحنقاً وجرح قلبه ، قلب الاب ، ينزو دماً ومشى الى لقاء جوليان وباغته بقوله : - جئت ياسيدي اسألك حساباً عن تصرفاتك حيال ابنتي لقد خنتها مع خادمتها ، انه عمل مزدوج الحقارة .

ومثل جوليان دور البريء المظلوم فانكر واصر على الانكار واستشهد الله على ذلك . اي دليل لديهم ؟ اولم تكن جان مجنونة ؟ او لم تصب بحمى دماغية ؟ لم تهرب فوق الثلج ذات ليلة اذ دهمتها نوبة صرع وهي في بدء مرضها ؟ واثناء هذه الازمة العصبية هبت تطوف ارجاء البيت شبه عارية وقد خيل لها جنونها انها رأت خادمتها في أحضان زوجها ! هذا كل ما في الامر ...

وغضب جوليان . وهدد بفتح تحقيق ، وظهر بمظهر البري . المهان المهدور
الكرامة ظلماً وعدواناً ...

وتراجع البارون امام هجوم صهره المعاكس ، وعمد الى الاعتذار والاستغفار
ومد يده لصهره فرفض هذا الاخير تناولها .

ونقل البارون جواب الزوج الى جان فلم تغضب بل اجابت : انه يكذب
يا ابتي غير اني سأنتهي باقناعه انه لاجدوى من كذبه .

ومرت عليها ليلتان وهي نهب للقلق والتفكير والتأمل .

وابدت في اليوم الثالث رغبتها برؤية روزالي . الا ان البارون رفض
استقدام الوصيفة مدعياً انها ذهبت . ولم يقنع زعمه جان فقالت : - ليذهب أحد
فيأتي بها من حيث تكون .

ودخل الطبيب فاعتري جان اضطراب .. فعدثوه بكل شيء . وطلبوا اليه
حكمه . وانخرطت جان في البكاء وقد ثارت اعصابها كما لم يحدث لها ذلك من
قبل . كانت تردد في شبه صراخ :

- اريد رؤية روزالي ، اريد رؤيتها ..

وتناول الطبيب كفها وخاطبها بصوت خفيض النبرات : - هدئي روعك
بلسيدي . ان كل ثورة قد تؤدي الى نتائج خطيرة .. فانت .. حامل ..

وجدت كأن لكمة هائلة صرعتها وخيل اليها ان شيئاً بدأ يضطرب في
احشائها فوراً .. ثم لزمت الصمت وانصرفت عن الاصغاء الى ما يقال حولها وقد
فارت حواسها في لجج افكارها الجائشة . وجفاها الرقاد ليلتها تلك وقد ارقتها
افكارها .. فهذا الجنين الحبي المضطرب في احشائها .. ماهو الا ابن جوليان !
بالمصير التمس ! ..

ودعت اباهها ذات يوم وقالت : - لقد حزمت امري جيداً يا ابتاه ! اريد
معرفة كل شيء ! والآن دون اي وقت آخر ! اسمع ؟! اريد ! وانت لا تفهم ان
معاندي ، وانا على ما انا عليه ، تبحر الوبال .. اصغ الي جيداً . ستدع بوقاتي

بالكاهن . اني بحاجة اليه كبا حول دون روزالي والكذب ، وما ان يحضر حتى تأتيني بها هي الاخرى وستكون انت وامي حاضرين لتسما بأذانكما ، وحذار ان يوقاب جوليان في شيء .

ماضت ساعة حتى كان الكاهن قد دخل غرفة المريضة لاهت الانفاس ، فهو كالبارونة ، يشكو السنة . وما استقر به المكان حتى شرع يمازح جان حول موضوع الحدث السعيد المنتظر راجياً ان يكون المولود غلاماً ليسهم بنصيب في الذهب عن حياض الوطن .

ولم يلبث الباب ان انفتح ، وبدأت على عتبة روزالي ، مضضعة الحواس ، دامعة العينين ، تقاوم في الدخول منشئة بحاجز الباب ، وفرغ صبر البارون من مقاومتها فدفعها بجناح يديه دفعة القت بها في وسط الغرفة متدرجة بين الاقدام . . غير انها استقامت وغطت عينيها براحتيها وشرعت تنشق :

أما جانت فما وقعت عيناها على غريمها حتى انتفضت واقفة ثم عادت فجلست وقد ابيض وجهها حتى حاكمي لونه لون اغطية فراشها . . وعلا وجيب قلبها حتى حركت نبضاته القبيص الرقيق اللاصق بجسمها . لم تفه بكلمة . فهي تنفس بصوبة كلية . . حتى لكانها تخنق . . واخيراً استطاعت ان تقول بصوت قطعه الزفرات : - لم تعد بي حاجة لسؤالك . . حسبي خجلك وصغارك وموقفك المهين أمامي . .

وتابعت بعد فترة صمت فرضها عليها اضطرابها المتفاقم : - اني اود معرفة كل شيء . . كل شيء . . لقد استقدمت الكاهن كيما يكون قواك بمثابة اعتراف . . اتسمعين ؟

كانت روزالي جامدة كأنها سموت الى الارض ، وبدأت تطلق ، بين راحتيها ، ضرخات قصاراً وزفرات حارة .

وقبض البارون على ذراعيها وقد استبد به الغضب وهزها بعنف ثم القى بها الى الارض فسقطت على ركبتيها أمام سرير سيدتها ، وصاح بها : - تكلمي . . اجبي !

واستكانت في جثوها كأنها أمام مذبح .. وكانت فبعتها قد سقطت الى قربها
كما طارت مزيلتها فوق البلاط .. ثم عادت ففطت بحباها بيديها من جديد .
وجه اليها الكاهن الكلام عندئذ قائلاً : - هيا .. يا بنيتي !! اصفي الى ما يقال
لك واجبي نحن لانبغي الحاق اي اذى بك انما نود معرفة ما حدث .
ونطاولت جان عبر فراشها وراحت تتأمل الوصفة المسكينة .. وقالت :
- اصحيح انك كنت في سرير جوليان عندما فاجتكت ؟
وانت روزالي من خلال راحتها : - صحيح ياسيديتي .
وعلا بكاء البارونة فجأة .. واخنتق صوتها بالزفرات حتى فاقت بتنهداتها
التشعبة روزالي المسكينة وعادت جان تسأل من جديد وعيناها لا تفارقان الوصفة :
- الى متى يرجع تاريخ هذه العلاقة ؟
وجمعت روزالي بحبيبة : - الى يوم جاء الى القصر ..
ولم تفهم جان فاستوضعت : - يوم جاء ؟ .. اذاً .. منذ الربيع ؟ ..
- اجل ياسيديتي ..
- منذ ان دخل هذا المنزل ؟
- اجل ياسيديتي ..
ومضت جان تسأل بصوت ملح فكان الاسئلة تتدافع الى طرف لسانها اندفاعاً :
- ولكن .. كيف حدث ذلك ؟ كيف طالب اليك ذلك ؟ كيف امتلكك ؟
ماذا قال لك ؟ ومنى وكيف استسلمت اليه ؟ كيف استطعت اعطائه جسدي ؟
واذاحت روزالي راحتها من فوق وجهها وقد ادركتها هي الاخرى رغبة
في الكلام ، في الافضاء بكل شيء ، في الاعتراف .. : - حدث ذلك يوم يوم تعشى
هنا للمرة الاولى ، فقد جاء الى غرفتي واختبأ في مستودع المؤونة .. وفاجأني فلم
اجرؤ على الصياح كي لا اخلق المتاعب .. وقضى ليلته في فراشي .. لم اكن اعرف
تماماً ما ينبغي عمله في تلك الساعة .. وقضى مني لباته .. لم أفل شيئاً لاني استلطف
فعله تلك ا..

وندت عن صدر جان صرخة هائلة ..
— ولكن .. ولدك .. طفلك .. اهو منه ؟
واجابت روزالي منتحبة : — أجل ياسيدي .
ولاذت المراتان باذبال الصمت .
ولم يعد يعكر السكون سوى بكاء روزالي ونشيج البارونة ..
وشمرت جان بعينها تقبضان وقد جثم فوق صدرها هم مريع .. وسالت
الدموع بصت فوق وجنتها .
ان لطفها وطفل خادمتها اباً واحداً .. وانهار فيها غضبها . وحل مكانه بأس
قام اجتاح كيانها بطيئاً ، عميقاً ، لامتناهياً .
وعادت تقول وقد تغير منها الصوت ، وبللته الدموع : — ولما عدنا من
هناك .. من شهر العسل .. متى عاودتما فعلتكما ؟
وتمتت الخادم الصغيرة وقد فحاذت وانهارت الى الارض : — في الليلة ..
الاولى .. جاءني . كانت كل كلمة تقال تشغن قلب جان ..
هكذا اذاً .. في الليلة الاولى .. ليلة عودتها من شهر العسل ، هجرها الى
هذه البنية .. من اجل هذه الخادمة تركها تنام وحيدة تلك الليلة ..
لقد عرفت ما كانت تود معرفته . أجل لقد عرفت ما فيه الكفاية .. لم تعد بها
رغبة لمعرفة المزيد وصرخت بالفتاة الذائبة صغراً : — اغربي !! اغربي !
ولم تتحرك روزالي .. كانت «نهاراً متخاذلة تماماً» . فنادت جان اباه :
— خذها .. انصرف بها ..
ووجد السكاهن ، الذي كان حتى تلك اللحظة لا تذاً بالصمت ، السانحة مناسبة
لإلقاء موعظة :

— ان ما اقدمتي عليه يا بنيتي سي* جداً . والله العزيز لن يغفر لك سريعاً ،
فكري بالرحيم الذي ينتظرك اذا لم تنتهجي بعد اليوم نهجاً مستقيماً ، اما الآن ،
وانت أم لطفل ، فعليك السير على غير هذا السبيل ، وسيدتي البارونة لن تتخطى

عنه وستكاتف لايجاد زوج لك . لقد طال به الكلام وازجاء النصح ، وما فرغ حتى تناول البارون ووزلي من منكبها وجراها حتى الباب ثم دفع به الى الممر كأنها غراوة أو حطام ..

وعاد الكاهن يقول اذ دخل البارون وقد فاق ابنته شعوباً :

.. ماذا تريد ، ان اغلب النساء في هذه المنطقة على هذه الشاكلة ، انه تخل من الله ! ولكن ماذا بوسعنا ان نفعل ؟ لابد للضعف البشري من بعض المداواة .. وقلما نتزوج فتاة دون أن يسبق لها الحمل والوضع ! .. هكذا دائماً ياسيدي .. وأضاف باسمياً : - حتى ليخيل الى المرء انها عادة متبعة هذه الحلة الذميمة . ثم تابع بصوت يفضح احتقاراً : - وحتى الاطفال .. يفعلون مثل هذا ! .. ألم اعثر ، في السنة الماضية ، بين المقابر ، على طفلين من صف التعليم الديني .. صبي وبنت ! واخطرت أهلها ! اتدرون ما كان جوابهم ؟ : - ماذا تريد ياسيدي الكاهن لسنا من لقنهم هذه العادة القذرة ! اننا لانستطيع حيالهما شيئاً .. وهاهي خادمك ، ياسيدي ، تسير على غرار الآخرين ..

بيد ان البارون قاطعه محتدماً : - هي ؟! ماذا يهمني ! لنذهب الى الشيطان ! ان جوليان هو الذي يصمنا بالعار ! ان في عمله منتهى الصغار ، لن اترك ابنتي لنذل مثله ...

ثم نهض يذرع الغرفة فاثراً اقواله النارية :

- باللعنة ! بهذا الشكل الفاضح يخدع ابنتي ! انه عاهر هذا الرجل ! انه حقير ! سافل ! تعس ! .. سأجبه بهذه الصفات .. سأضربه .. سأصفعه .. سأمينه تحت عصاي هذه ! ..

غير ان الكاهن الذي كان قد انصرف الى عب التبغ بالقرب من البارونة المنتعجة ، شاء اتمام مهنته الاصلاحية فقال :

- اصغ الي ياسيدي البارون ، والكلام بيننا ، لم يفعل صهرك الا مايفعله جميع الناس .. او تعرف الكثير من الازواج المخلصين ؟ ..

واضاف بطيبة خبيثة : - دعنا .. اني اراهن انك انت الآخر ، مثلاً ، فعلت يوماً فعلته .. ها أنا ارفع يدي واحلفك بشرفك .. أليس هذا صحيحاً ؟
وتوقف البارون أمام الكاهن ، فتابع هذا الأخير : أجل ، يا بني ، لقد فعلت كالأخريين .. من يدري فقد تكون ، انت الآخر ، قد أغويت خادمة صغيرة كهذه .. ان كل الناس يفعلون ذلك اقول لك ، وزوجتك ؟ .. أأثر ذلك على سعادتها او حبيبها ؟ .. كلا طبعاً .. ليس كذلك ؟ ..
كان البارون بالغ الاضطراب فلم يبد حراكاً ..

باللسماء ! ان ما قاله الكاهن صحيح .. لقد حدث له ان فعل فعله صهره ! ومراراً أيضاً ! وكلما استطاع الى ذلك سبيلاً .. انه لم يحترم مطلقاً الحقوق الزوجية وهو لم يججم مطلقاً من اغواء وصفقات زوجته اذا كن جميلات ! أتراه ، بسبب ذلك شقياً ؟ ولم يحكم بمنزل هذه القسوة على سلوك جوليان في الوقت الذي لم يحكم أحد عليه ، ولم يحكم هو على نفسه ، مثل هذا الحكم ..

وعبر بشفتي البارونة ظل ابتسامة اذ عادت بها الذكرى الى صبرات زوجها فهي من عرق عاطفي بالسليقة فسرعان ماتحن وتصبو فالمغامرات العاطفية ، في نظرها ، جزء الوجود الحلو ..

كانت جان غارقة في بحران افكارها الواخزة ، منهارة الأعصاب ، بلهساء النظرات ، مستلقية فوق ظهرها ، مصالبة ذراعها فوق صدرها ، وهي تجتر بعض أقوال روزالي فتخترق صدرها كالنصال الرهيفة وتوغل في سويداء قلبها كالسهام المراسية : - اما أنا فلم اعترض .. لأنني استلظفت فعلت تلك ، انها هي ، جان ، قد استلظفته ! ومن أجل ذلك فقط ربطت مصيرها بمصيره مدى الحياة ، فكانت حبه مهوى فوادها ومناط أملها دون غيره من الأمافي المراض .. فتخلت من اجله ، عن كل ماعقدت على غدها المأمول من آمال .. لقد انزلت في هذا الزواج ، هذه الهاوية الفاعرة الاشدق لتصل الى مثل هذا الشقاء المقيم .. هذا اليأس المرير .. كل هذا لأن روزالي قد « استلظفت » زوجها ! ..

وفتح الباب بركلة غاضبة . وظهر جوليان اكانت هيئته مخوفة . لقد وقع نظره على روزالي في المشى تنن ففهم ان ثمة اشياء تجري في الخفاء ، وان الفتاة قد فضحت السر المكتنون . وما وقعت عيناه على الكاهن حتى سمر في مكانه .

وسأل بصوت راعش الا انه هاديء النبرات :- ماذا ؟ ماذا يجري هنا ؟ ولم يجرؤ البارون التأثير منذ لحظة على قول شيء . وقد خشي ماقاله الكاهن والمثل الذي اتخذه حول الحادث وعلا صوت الام اعلى من السابق ، ورفعت جان جذعها فوق ذراعها ونظرت الى زوجها لاهثة النفس .. أجل لقد واجهته بنظر لا يريم .. زوجها ؟ بل هو مبعث آلامها ومصمي فؤادها بهذا الشقاء المائل الذي لا يطاق .

قالت في شبه صراخ :- ماذا يجري ؟! لقد برح الخفاء ! عرفنا كل شيء اخيانتك وصفالتك .. منذ اليوم الذي وطأت فيه قدماك هذا البيت .. علمنا ان طفل الحادمة ابن السفاح ، هو ابنك .. شأنه في ذلك شأن طفلي انا .. انها اخوان ! .. مابلغت من كلامها هذا الحد حتى غمرتها موجة ألم عاتية كاسحة فانحطت فوق فراشها وراحت تفشج بجنون ..

أما جوليان فقد جمد في مكانه لا يدري مايفعل او مايقول ، وتدخل الكاهن من جديد :

- لا ، لا ، ليس لنا ان نجلب لانفسنا كل هذه المتاعب التي لاأرى لها مبرراً ، كوني عاقلة ياسيدي ، ارحمي صباك ، ارحمي جنينك ان لم ترحمي نفسك ! ومشى الى السرير والقى بكفه الفاتر فوق جبهة الزوجة الباكية ، الضائعة الأمل ، وكان لهذه اللمسة من بد رحيمة حانية فعلها السحري فاشاعت في اعصابها المتوترة برداً وسلاماً ..

وعاد الرجل الطيب يقول وقد استمر في وقوفه بالقرب من السرير :
- ينبغي ان تساعني جهد طاقتك ياسيدي ، انه شقاء عظيم هذا الذي نزل ساحتك الا ان الله قد عوض عليك آلامك كرمأ منه واحساناً ، فها انت ستصبحين

أما . وسبكون لك بوليدك عزاء وسلوى ، وأنا ، باسم العلي القدير ، اطلب اليك ان تغفري ، احلفك ان تساعني .. ان تنساني خطيئة السيد جوليان .. سيشدك ، بطفلكما المرتقب ، رباط لا تنفصم له عرى .. وسبكون منه لزوجك رادع عن الانغماس في الموبقات في آتيات الايام ! لا . لا . يلسيدي لن تستطيعي الانفصال عن علة وجود هذا المخلوق المضطرب في احشائك ..

ولاذت جان بصمت عميق الغور . كانت مضغضة الفكر ، مشخنة للقلب ، منارة القوى .. انها لا تقوى على شيء .. حق على الغضب والحقد والكراهية .. أجل انها لأعجز من ان تغضب أو تحقد أو تكره .. وخيل اليها ان اعصابها قد استرخت ثم جاء نصل رهيف فقطعها بهدوء .. فهي لا تكاد تشعر بتعدد أنفاس الحياة بين جنبها . اما البارونة ، وقد استنزفت كل قدرة على الاحتمال ، فاكنت بالقول :

— حسنا يا جان .

ودنا الكاهن من جوليان فتناول يده وقاده الى سرير زوجته ووضع اليد في راحتها وربت فوق الراحتين كأنه يربط بينهما برباط جديد لمدى الحياة . ومضى يقول وقد تخلى عن لهجته الواعظة المملة :

.. دعنا لقد انتهى كل شيء .. اؤكد لكما ان هذا خير وابقى ..

وافترقت الراحتان فجأة بعد ان تماسا فترة قصيرة . ولم يجرؤ جوليان على تقبيل زوجته فاكنتي بطبع قبلة على جبهة حماته وقد تركته يفعل دون مقاومة . اما هو فقد اشرق وجهه سعادة بهذه النهاية التي تمت بمثل هذه السرعة .. وخرج الرجال سوية لتدخين لفاقة ..

ومضت المريضة تجتر آلامها بينما انصرف الكاهن الى الثروة مع البارونة شارحاً لها افكاراً جالت في خلده اما هي فكانت توافق دائماً على أقواله باحشاء متتابع من رأسها الأشيب .

وخلص الى القول اخيراً : — اذا فانت توافقين . سنمنعي هذه البنية حق

(بارفيل) وسأهم انا بايجاد زوج لها وسيكون شابا نشيطا فقيرا ! آه . مع بائنة
تبلغ عشرين الفاً من الفرنكات لانعدام هاوياً .. وأؤكد لك ان الحيرة ستدركنا
عند الاختيار !

وعادت سيبا السعادة ترسم على محيا البارونة فيبتسم ثغرها وترقص عيناها
ولم يبق من آثار أحزانها السابعة سوى دمعتين استقرتا فوق منتصف وجنيتها
لانبرحان وقد جف الخط الرطب فلا تنزلقان فوقه ..

وألحت في القول : .. اتفقنا . ان حقل بارفيل يساوي ، على اقل تقدير ، عشرين
الفاً ولكن سيبقى ملكاً للطفل وسينتمتع الابوان بحجراته ما داماً على قيد الحياة .
ونحس الكاهن وضغط يد البارونة : - لانتزعبي ياسيدي البارونة ..
لانتزعبي .. فانا اعرف ما تتطلب كل خطوة من دراية وحكمة .

والتقى ، لدى خروجه بالحالة ليزون ، آتية تعود مريضتها دون ان تفتن الى
شيء ما يجري كما ان احداً لم يتكبد عناء اطلاعها على شيء فهي تجهل كل ملابسات
القضية شأنها حبال كل ما يجري في كل مكان ..



الكتاب الثاني

الفصل الأول

غادرت روزالي القصر بينما كانت جان تستكمل ايام حملها بالغة الألم ، متفاقمة
الاجوع ، انها ، اذ تفكر بانها ستصبح اما ، لا تشعر بآية لذة او آية راحة . لقد
انغنت فيها الاحزان الممزقة وانمكتها الآلام المبرحة . فاقامت تنتظر طفلها العتيد
لا يهزها اي شوق الى رؤيته فهي ابدأ مطوية الجناحين على جراح قلبها التي لا
تعرف الاندمال ..

وعاد الربيع الطلق يختال مجرراً اذ ياله الفتاة الوشي الاربعة النشر .. فكان
نسبته العبق جز الاشجار ولما نكتسي بعد زمرده المعطار .. بيد ان السوسن بدأ
يتفتح في المنعطفات الكاسية عشباً ندياً فوق جثث اوراق الحريف المنصرم !
وكانت امرأة ضخمة الجرم كأنها البرج المشيد قد حلت مكان روزالي تساعد
البارونة على القيام بنزهتها المعتادة في الممشى اياه . وكان البارون يسند بذراعه
جان المثقلة بحملها الدائمة الشكوى والتألم . اما الحالة ليزون فكان لها ، من الطفل
العتيد ، شغل شاغل .. ولشد ما اقلقها هذا السر الغريب ، سر الحمل ، المحرم عليها .
ومضوا في نزهتهم وقد جثم فوقهم صمت ثقل بينما كان جوليان لا ينفك يطوف
في المنطقة متمطياً جواده وكانت عادة هذه النزهات الخلوية قد استبدت به في
الفترة الاخيرة .

ومضت مدة لا يعكر صفو حياتهم الرتيبة تلك معكر . وكان البارون وزوجته وصهرهما قد قاما بزيارة آل فورفيل ، وقد بدا كأن جوليان قد وطد معهم او اصر صداقة متينة دون ان يعنى بشرح ذلك لاحد وكذلك قصدوا آل « بريسفيل » في زيارة مجاملة .

وذات مساء دخل الحوش المحيط بالقصر فارسان مهرولان . امرأه وجل . وخف جوليان ، بالغ الانهالك ، الى زوجته وناداهما : -- هيا . هيا . اسرعي بالتزول . ان (آل فورفيل) عندنا . لقد كانا يقومان بنزهتهما فاتصل بها انك مريضة فجاءا يعمودانك . قولي لهما اني خرجت ولن البت ان اعود . سأنظم شيئاً من شأني .

ونزلت جان مستغربة هذه الزيارة . وقدمت اليها الضيفة زوجها . اما المرأة - مدام فورفيل - فشاحبة الحيا ، وسيمة التقاطيع حزينة ، ذات عينين مكسرتي الاهداب وشعرها على شقرة فاقعة كأنه لم يتعرض للشمس قط . اما الزوج فعلاق ذو شاربين استقرين كبيرين .

قالت المرأة : - لقد اسعدنا الحظ مراراً بلقاء السيد دي لامار . وقد حدثنا بما انت عليه من مرض فلم نشأ ان نتأخر اكثر من ذلك فنأتيك نعودك بصفتنا جيئاً لكم وانت تلاحظين اننا قد تجاوزنا في ذلك حدود الرسميات . ولقد سعدنا ، فضلاً عن ذلك ، بزيارة والدك والدتك منذ بضعة ايام .

كانت تتكلم بمنتهى السهولة ، دون كلفة وببلهجة رفيعة التهذيب ، وسرعان ما علقها قلب جان .

وفكرت : - انها تصلح لأن تكون صديقة .

اما الكونت دي فورفيل ، زوجها ، فبدا ، على العكس ، كدب يدخلونه ردهة استقبال . فما ان دخل القاعة حتى سارع بالانخطاط فوق كرسيه والتي قبعتة جانباً واحتار كيف يركز راحتيه وانتهى بان اراحها فوق ركبتيه ثم صلب اصابعه كأنه في صلاة .

ودخل جوليان فجأة ... وكادت جان تنكره لشدة مارأت تغيراً في مظهره
كان قد حلق لحيته وتأنق في لباسه ... وبدأ لعينها انيقاً جميلاً كما كان في عهد
خطبتها البائد الجميل . وشد يد الكونت المكسوة شمرأ فابنظه من استغراقه الابله
وهم بيد الكونتس فلمشها فجرت ، لهذه البادرة ، الدماء الى خديها العاجيين فتضرجتا
قليلاً .. وعبرت بجففيها ارتعاشة تدق على الانظار ..

وبدا جوليان يتحدث . كان لطيفاً كمهدا به في خاليات الايام .. وكانت
عيناه اللامعتان حباً قد عادتاً ، كشأنها في الماضي ، مداعبتين مهددتين . اما شعره
الذي كان منذ لحظة خشناً مغبراً قد انقلب تحت الفرشاة والزيت المعطر لامعاً
منموجاً وعندما نهضا للانصراف التفتت الكونتس الى جوليان وقالت :

- اتوغب يا عزيزي الفيكونت بالقيام ، يوم الخميس ، بنزهة ، على الجباد ؟
وعند ما انحنى قائلاً : - بكل تأكيد يا سيدي .

اخذت الكونتس يد جان وقالت بصوت عميق نفاذ وبابتسامة محببة : - عندما
سنبلين من مرضك سنترىض على الجباد كثيراً نحن الثلاثة في هذه المنطقة .. سيكون
ذلك بمنعاً .. الا ترغبين في ذلك ..

وربتت على ذيل جوادها الامازوني بحركة مرحة وبخفة العصفور وثبت الى
السرّج بينما تسلق زوجها متن جواده الضخم وحى بطريقة خشنة واستقر بكل ثقل
جرمه فوق الجواد كما يجثم دب فوق فريسته !

وهتف جوليان مأخوذاً وقد اختفيا في المنحنى القريب : - يا لهم من اناس
محبين ! ان معرفتها ستكون لنا ذات غناء !

واجابت جان وقد شعرت غبطة لم تدر لها سبباً : - ان هذه الكونتس
الصغيرة رائعة ! لشد ما مال اليها قلبي ! اما زوجها فيبدو عجباً جلفاً ! اين عرفتها اذاً ؟
وفرك يديه فرحاً وقال : - لقد التقيت بها صدفة لدى آل بريسفيل . ان
زوجها نملى شي من الغلظة ولكنه صياد وذو مراس وبأس . الا انه نبيل القلب
هذا المخلوق الضخم !

واوشك العشاء ان يكون. رحاً فكأن الزوجين قد حملا الى البيت سعادة خفية
وتصرمت ايام تموز دون ان يحدث في القصر ما يستحق الذكر .
وذات مساء ، كانوا جلوساً الى مائدة مدت في الحديقة تحمل كؤوساً
وزجاجات خمر ، ولم تلبث جان ان اطلقت صرخة حادة وشحب لونها شحوباً شديداً
ثم اسندت بطنها براحتها فقد طاف باحشائها الم خاطف حاد كأنه طعنات المدى
الرهاف الا انه لم يلبث ان تبدد واضمحل . .
ولم تمض عشر دقائق حتى عاودها الألم ولفترة اطول ولكنه اخف وطأة .
وبصعوبة شديدة تمكن زوجها وابوها من حملها ونقلها الى غرفتها .
لم يكن موعد المخاض قد اذف . فلم يكن قدوم الوليد منتظراً قبل ايلول . .
وطاوت مركبة لاستقدام الطبيب . ووصل في منتصف الليل وللنظرة الاولى
ادرك ان في الامر ولادة مبكرة .
ودهمتها فترة من آلام هائلة ممزقة . وبدأ المخاض . .
كانت جان ، في غمرة اوجاعها ، لا تفارق بفكرها روزالي . . . وكيف تمت
ولادتها بسهولة متناهية فلم ينتبه اليها احد الا والوليد بين ساقها . . بينها وليدها هي
يمزق اشياءها شر ممزق . .
كان الطبيب والقابلة منحنين فوقها وقد اخذا يجران جسمها . . ورفعاً شيئاً . .
وسرعان ما جعلتها هذه الضجة الخفيفة تقفز ثم ولجت تلك الصرخة الخفيفة ، ذلك
المواء الطري ، فؤادها وتغلغل حتى اعماق سويدائه فغمرت كل جسدها المسكين
المنهوك . وبدرت عنها اشارة لا ارادية فكأنها تحاول مد ذراعها وضم شبيه ما .
وحدث في صميمها ارتعاش غبطة ، ميل نحو سعادة جديدة ولدت لتوها بين
طوايا كيائها . ووجدت نفسها خلال لحظة واحدة منقذة ، مشبعة الرغبات ،
سعيدة . . سعيدة كما لم تكن قبل ذلك ابداً . ونحرك قلبها . . وجسدها . لقد
غدت امماً .

وودت لو ترى وليدها ! لم يكن شعره واطفاره قد نبت بعد فقد ولد مبكراً

غير انها ما ان رأت هذه المضغة تتحرك وتفتح فافا وتطلق مواها .. وما انت لمست هذا الكيان اللدن الحزوني الشكل ، الحبي ، ما ان فعلت ذلك حق فخرتم — نشوة سرور لا تقاوم فهبت انها انقضت ، انها امنت كل بأس .. انه اصبح لديها من فمعه حبا وقلقه قلبها فوق كل شيء آخر .

ومنذ تلك اللحظة لم تخالجا سوى فكرة لا ثانية لها : ولدها . وغدت مرة واحدة اما متفانية ، مندفعة في حنانها بقدر ما كانت خبيتها في حبا عظيمة .. حتى غرقت في بلج من املاها وامانيها . وطلبت ان يوضع المهد بالقرب من سريرها . وبعد ان تركت فراشها كانت تقضي معظم وقتها جالسة امام نافذتها وبالقرب منها مهد وليدها تهزه وتهدهده .

وشعرت بالغيرة من مرضعة ابنها ! فاذا ما رأتها يندفع نحو الثدي الضخم الازرق المروق فيلتقم حلمته السمراء بين شففيه النهمتين كان لونها يشعب وانفاسها تتلاحق ويحز كبانها ارتعاش وهي ندنو الى الفلاحة القوية البنية وبودها لو انتزعت منها الرضيع .. ثم تميل على ذلك الصدر العاري فتمزقه باظافرها شر بمزق ..

ثم انصرفت الى تطريز قطع الثياب لتزينه بها . فكانت تصرف جل اهتمامها لاجراجها آبة في الدقة والاتاقة . لقد خمرته في لجة من الدنتلا وقبعته بقبعات متناهية في جمالها . ولم تكن لتتكلم في غير هذا الموضوع . فكانت تنقطع عن حديثها لتأمل قطعة طرزتها فتقلبها بين اناملها فائلة جلسائها : - انعتقدون انه سيبدو جميلاً في هذه الثياب ؟

كان البارون والام بضحكان من هذا الحنان المشبوب . غير ان جوليات كان قد فقد الكثير من اهميته الشخصية واصبح شخصاً ثانوياً بعد قدوم هذا الملك الصغير القادر على كل شيء . وبلغ به الامر ان بدأ يفار من هذا الرجل الناقص الذي جاء من عالم مجهول فاحتل المكان الاول الذي كان يتربع به هو قبل ذلك في البيت . وكثيراً ما كان يردد قارغ الصبر نثر الغضب :
- انها مزعجة مع فرخها هذا .

واندفعت مغ هذا الحب بشكل جنوني حتى بلغ بها ذلك ان تقيم طوال الليل لا يرفد لها جفن الى قرب مهد الوليد تتأمله وهو مطبق الاجفان غارق في سباته الهادئ . وكان طبيعياً ان يؤثر هذا التعلق الشديد بصحتها فتفقد وزنها ويشعب لونها ثم اعتراها سعال فما كان من الطبيب الا ان امر بفصلها عن ولدها .

وغضبت وبكت واسترحت . الا انهم اصموا الاذان عن رجائها . فكان الطفل يحمل كل مساء الى قرب مرضعه وفي كل ليلة كانت جان تنهض حافية القدمين وتسير الى غرفته فتلتصق اذنها بالباب كي ترى اذا كان ينام ملء جفنيه ، اذا كان لا يستيقظ او ليس به الى شيء حاجة .

وضبطها جوليان في مثل هذا الموقف مرة وكان عائداً متأخراً من سهرة قضاها لدى آل فورفيل . وعمدوا بعد ذلك الى اغلاق باب غرفتها بالمفتاح ليجبروها على النوم .

وقمت مراسم تنصير الطفل في اواخر آب فكان البارون عرابه والعمة ليزون عرابته . واطلق على الطفل اسم بيير - سيمون - بول . وحمل اسم بول الاستعمال غير الرسمي .

وفي اوائل ايلول سافرت العمة ليزون كما جاءت دون ان تحدث اية ضجة . وجاء الكاهن بعد العشاء من احد ايام ايلول . وكان يبدو شديداً الاهتمام كأنه يحمل شيئاً يقوله بالغ الخطورة وبعد فترة من المحاملات الفارغة رجع البارون والبارونة ان يصحبا الى خلوة فان لديه ما يقوله لهما . وبقي جوليان بمفرده مع زوجته . . . وظهر عليه الارتباك والقلق والاضطراب من هذا السر المبهم .

وشاء ان يرافق الكاهن بعد ان استأذن بالذهاب فاختمها سوية متجهين نحو الكنيسة التي كانت نوافيسها تدق « البشارة » (١)

كان الجو رطباً بل يكاد يكون بارداً . فدخلوا الى الردهة حالاً . وكان الجميع يهيمون نعاساً عند ما دخل جوليان كأنه العاصفة وصرخ بوجه حميم وحماته : « انكنا مجنونان وحق الآله ! انهبون هذه الفتاة عشرين الف فرنك ؟ !

(١) ترجمة : Angélus وهو وفرع النوافيس ساعة الغروب .

ولم يجبه احد لعظم المفاجأة . فعاد يقول وقد استبد به الغضب : - لا يمكن للمرأة ان يكون مغفلاً الى هذا الحد ! تريدان اذاً حرماننا من كل فلس ؟
وكان البارون قد تمكن من استجتماع شتات فكروه فشاء ايقافه عند حده فصاح به : احرص ! فكر انك تتكلم امام زوجك . ولم يكن قد أبه لوجود جان بين والديها .

غير انه اندفع في ثورته : - لا اهتم بذلك مطلقاً . . انها تعرف كل شيء . ان هذا العمل انتهاك لحقها الطبيعي .

واخذت جان بقول زوجها دون ان تفقه مرماه . ومتمت : - ماذا حدث اذاً ؟
فاستدار جوليان نحوها حينئذ واتخذ منها حكماً ومضى يتحدثها بالمرأة الراحلة الى زواج روزالي ، بامهارها الارض في بارفيل وتلك الارض التي تساوي عشرين ألفاً على اقل تقدير . وعاد يقول : ولكن ابويك مجنونان يا عزيزتي مجنونان في هبتهما ! عشرون ألفاً ! عشرون ألفاً ! لهذا الولد السفاح !

ودهشت جان من نفسها فقد لحظت ان اي تأثر او غضب لم يعتورها . كانت هادئة ، غير مبالية لا يثير فيها اي اهتمام كل موضوع لا يمس وليدها مباشرة . فقد غدت الآن ولا هم لها في الدنيا سوى هذا الوليد .

واحتبست انفاس البارون فهو لا يجد ما يقول . وانتهى بان انفجر قائلاً وهو يضرب الارض برجله : - فكر بما تقول ! ان هذا مشير اخيراً . على عاتق من تقع تبعة اعمار هذه الفتاة الام ؟ لمن هذا الطفل ؟ انك تبغي التحلي عنه الآن !
وثبت جوليان نظاره على البارون وقد اذممه عنقه . فعاد يقول بصوت اكثر هدوءاً :

... ولكن ألفاً وخمسمائة تكفي ! ان معظم الفتيات يلدن قبل ان ينزوجن ليكن الطفل ابن من شاء فليس في هذا ما يغير في الموضوع شيئاً . انت في هبتكم هذا الخفل الرجيع الثمن ، فضلاً عن سرماننا منه ، قولاً صريحاً بما حدث وفضيحة علينية لي . . كان عليكم ان تحسبوا على الاقل حساباً لاسمنا وسمعتنا بين الناس .

كان يتكلم بلهجة صارمة . لهجة رجل قوى بمنطقة ممتد بصواب ما يرمي اليه
وظل البارون مشدوهاً امام حججه القوية ومنطقه السليم . وما ان شعر جوليان
بسيطرته على الموقف حتى راح يشرح نظريته :

.. لحسن الحظ ان شيئاً لم يتم حتى الآن . وانا اعرف الفتى الذي يبتغي
الزواج منها . انه شاب طيب ويمكن تدبر كل شيء معه . سألهم بذلك
واندفع الى الخارج فوراً وقد خشي ولا شك الاسترسال في النقاش كما اسعده
ان يلقي ذلك الصمت من الجميع وقد اعتبروه موافقة وقبولاً

وما ان اختفى حتى عاد البارون يقول بعد ان زالت عنه المفاجأة : .. آه !
انه لا يطاق ! لا يطاق !

غير ان جان رفعت الى وجه ابها المضطرب عينيها وانطلقت فجأة تضحك
ضحكتها الصافية الماضية عند ما كانت تشهد اشياء غريبة وكانت تردد : .. اي !
اي ! هل لاحظت الطريقة التي كان يلفظ فيها كلمة « عشرين الفاً » ؟ !

وانتقلت عدوى الضحك الى الام التي كانت سريرة الفرح سرعتها في البكاء ،
وقد استعادت منظر صهرها وهو يرفض بعنف اعطاء المبلغ الى الفضة التي اغواها
بنفسه .. تم شاركهم البارون نفسه ضحكهم كأن العدوى قد انتقلت اليه هو
الآخر ، واندفع الثلاثة يضحكون شأنهم في الایام الماضية السعيدة

وما ان هدؤوا شيئاً ما حتى قالت جان وكانت دهشتها من نفسها على اشدها :
انه لا مر حجب ! ان هذه الحادثة لا تعني بالنسبة الي شيئاً . اني انظر اليه نظرتي الى
شخص غريب . ليس باستطاعتي الاعتقاد بافي زوجة له .. وكم تسرفي .. مواقفه
غير المهدية !

وتعانق الثلاثة فرحين دون ان يدركوا حقيقة الدافع الى ذلك
ومضى يومان بعد ذلك . فاذ بهم يلحون بعد الغداء شاباً يجتاز السور بخطى
مترودة وكان جوليان قد خرج على جواده . كان الشاب يناهز الخامسة والعشرين ،
يرتدي قميصاً أزرق جديداً كثير الطيات منتفخ الكمين مزركراً . وبعد ان دار

حول الحديقة دنا من البارون والمرأتين الذين كانوا جالسين تحت الحنية .
ورفع قبضته لدى وقعت عليهم نظاره وأقدم وهو يجيبي وقد اعتراه اضطراب
عظيم .
وما أصبح على قيد السمع منهم حتى شرع يتمتم : - اني خادكم يا سيدي
البارون .

ولما لم يجبه احد اعلن : - وانا ادعى ديزيره لبكوك .
ولم يثر هذا الاسم اي شيء في نفوسهم فسأله البارون : - وماذا تبتغي ؟
وادرك الفتى اضطراب شديد اذ علم الا مناص من شرح واقع حاله .
وشرع يجمع وهو يرفع ناظره تارة ويخفضها اخرى :
- انه سيدي الكاهن الذي اسرني الي بضع كلمات بخصوص هذه القضية .
وصمت خشبة الاستسقال فيما قد يحيط سمعاه . وعاد البارون يقول : - ابنة
قضية تعني ؟ انا لا اعرف شيئاً عن هذا الموضوع
وخفض الشاب صوته وقد عزم على البرح : - قضية .. قضية خادمة لكم روزالي ..
وكانت جان قد حدثت ذلك فنهضت ومضت تحمل طفلها بين ذراعيها .
قال البارون :

- اقترب .
واشار الى الكرسي الذي خلا من ابنته .
- هذا لطف منك
فالها الفلاح وهو يقتعد الكرسي ومكت
صامتاً منتظراً كأن ليس لديه ما يقول . وبعد صمت طويل حزم امره ورفع ناظره
الى السماء الزرقاء وقال :
- انه طقس جميل بالنسبة للموسم .
وعاد الى صمته المطبق . ونفذ صبر البارون فدخل في صلب الموضوع فجأة
وقال بلهجة جافة :

- انك اذاً الشاب الذي بينفي الزواج من روزالي ؟
وسرعات ما بدا الاضطراب والقلق على الريني واجاب بصوت اعلى نبرة
وبشيء من التلكؤ :

- هذا متوقف على .. ربما نعم ... وربما لا .. انه متوقف على .. و صدم
هذا الجواب المطاط البارون :

- يا لاسماء ! اجب بصراحة : المثل هذا جئت ؟ نعم ام لا ؟
واستمر الرجل ينظر الى قدميه مشقت الفكر :
- اذا كان الامر كما قال سيدي الكاهن فساتزوجها واما اذا كان كما قال السيد
جولييان فلست فاعلاً ..

- وما اذا قال لك السيد جولييان :
- قال انه سيعطيني الفاً وخمسمائة من الفرنكات اما سيدي الكاهن فقد حدد
المبلغ بعشرين الفاً . وانا ارضى العشرين وارفض الألف والخمسمائة .
وكانت البارونة متزوجة في اعماق مقعدها وهي تقلب في الرجلين انظارها ..
ثم انطلقت تضحك ضحكات قصيرة استلقت نظر الفلاح فراح يجحد فيها محاولاً
ادراك سبب طربها المفاجيء .

وقطع البارون الجدول وقد ازعجته هذه المساومة :
- لقد قلت للكاهن اني سأهبك حفل (بارفيل) مادمت على قيد الحياة ثم يؤل
الحفل بعدك الى الطفل . انه يساوي عشرين الفاً . وانا لا اقول الا قولاً واحداً .
اتوافق ؟ نعم ام لا ؟

وطافت بشفتي الرجل بسمة نواضع وافتتاح :
- اما الان فليس لي ما اقله . لم يكن سوى هذا ما يعوقني ولقد وافقت
حالا عند ما حدثني الكاهن هذا الحديث فقد سرني ان ارضي سيدي البارون الذي
شاملي هذا النصيب . الا ان السيد جولييان جاءني وقال ما قاله عن الألف والخمسمائة
فاجبته : اني سأدرس القضية ثم قصدتك . وما جئت لأنسكد فلي ملء الثقة بكم
انما جئت مستوخهاً . ليس سوى الوضع يحفظ الصداقة . ليس صحيحاً هذا
يا سيدي البارون ؟

وكان على البارون ايقاف هذا السيل فسأل :

- متى تريد إبرام العقد ؟
وعاود الرجل فجأة خجلة واضطرابه وانتهى بان قال :
- الا ترى ان ننظم قبل ذلك ورقة صغيرة ؟
وفضض البارون هذه المرة : - يا للشيطان ان يكون لديك عقد الزواج ؟
انه خير من كل اوراق الارض !
واصر الفلاح : - وبانتظار ذلك لا ارى بأساً في تنظيم مثل هذه الورقة فلا
خير منها لنا جميعاً .
ونفض البارون . وقال ليحسم القضية : - اجب بنعم او بلا . اجب حالاً
لدي طالب آخر .
ووثب قلب النورمندي المحتال خوفاً من المزاحمة فعزم امره ومد للبارون
يده كفعله بعد شراء بقرة :
- ضع كفك هنا يا سيدي البارون . لقد تمت الصفقة . وليكن ما يكون .
وصافحه البارون ثم نادى : « لوديفين ،
واطلت الطاهية برأسها من النافذة فقال لها .
- احضري زجاجة خمر سنشرب احتفالاً بالاتفاق المبرم وبعد ان فرغوا من
تناول كأس مضي الفتي بخطى بحبها الفرح .
لم يجدوا جوليان بهذه المقابلة فتم تنظيم العقد في سرية كاملة وما ان فرغوا من
الشكليات حتى تم الزواج صباح يوم اثنين . وحملت احدى الجارات الطفل وسارت
وراء الزوجين الى الكنيسة كضمان للثروة الموعودة !
لم يدهش هذا الزواج احدآ في المقاطعة بل ثمة من حسد ليكوك فكانوا يقولون
بابتسامة خبيثة لا يشوبها احتقار - لقد ولد هذا الرجل المحظوظ عاري الرأس !
لم يقف جوليان مكتوف اليدين حيال ما حدث بل عمد الى تمكينه من الحياة
على حميه الامر الذي ادى بها الى اختصار اقامتها في (بوبل) وكان فراقها شديد
الوقع في نفس جان استدر منها الدمع الهمي الا ان غزاءها بطفلها بول كان ينبوها
تراً لا يفض له معين .

الفصل التاسع

كانت جان قد ابلت تماماً من مرضها ومن آثار الولادة فتم قرارهما على رد الزيارة لآل (فورفيل) ثم للمركيز (دي كوتيليه) .
كان جوليان قد ابتاع حديثاً مركبة جديدة من سوق عامة ، مركبة ذات جواد واحد وبها اصبح باستطاعتها ان يخرج مرتين في الاسبوع .
وخرجوا ذات يوم رائق من شهر كانون الاول . وبعد سير متواصل مدة ساعتين عبر السهول النورمنديه بدءا بيهبطان وادياً حرثت اعماقه وكست الغابات جانبيه .

وبعد دورة قصيرة حول الوادي برز للعيان قصر « فريليت » مستنداً من ناحية الى المنحدر المشجر ومن الناحية الاخرى تفوص جدره في بحيرة كبيرة تنتهي الى غابة من شجر الصنوبر السامق تتسلق المنحدر الآخر المقابل .
وشرع جوليان يصف لزوجته كل أقسام القصر وصف عارف مطلع على دقائق الاشياء وبدا متحمساً :

- انظري الى هذا المدخل ! انه فخيم هذا القصر ! ان واجهته الثانية تغمرها مياه البحيرة الضحلة تروى عند قدمي السلم الزوارق الجميلة . اربعة . اثنان للكونت واثنان للكونتس . . . وهناك . . الى اليمين حيث تشاهدن هذا الستار من شجر الحور هناك تنتهي البحيرة وهناك يبدأ النهر الذي يجري حتى (فيكومب) . . ان هذه المنطقة غنية بالطرائد والكونت بالغ الاهتمام بالصيد . انه مسكن نبلاء حقاً .
وكان المدخل قد انفرج عن الكونتس الشاحبة المحيا جاءت تستقبل الضيفين

باسمة الثغر وقد ارتدت ثوباً ضافي الاعطاف تجر ديله الطويل القشيب كأنها إحدى
ساكنات القصور في العصور الخوالي يا الله ! ما أشد شهما « بسيدة البحيرة » التي لم
تخلق هذه القصور الا لامثالها !

وتناوات الكونتس يدي جان الاثنتين كما لو كانت صديقتها منذ عهد الطفولة
الاولى ثم اجلسنهما واستوت الى قريبا فوق كرسي خفيض وراح جوليان ، وقد
استعاد اناقة الماضي ، يتحدث باسم ، لطيفاً ، غير متكلف .

حدث الكونتس عن نزهاتهما فوق الجياد ، وضجعت ملياً على اسلوبه في
الفروسية .. وشاركها ضحكها وقد لقاها « بملكة الامازون » بينما سمته هي
« الفارس المتعثر »

ودخل الكونت عائداً من الصيد ، كان ضخماً ، يجتذني نعلين كبيرين يجري
أمامه كلبان احمران كلونه هو جثا فوق البساط بالقرب من الباب ، وبدا الكونت
اكثر انطلافاً في بيته وقد سرته رؤية الضيفين ، والقي ببعض الحطب في الموقد ثم
قدم لزاويه خمر « ماديرو » والبسكويت ، وهتف فجأة :
- ولكنكما ستغديان عندنا أليس كذلك ؟

ورفضت جان لأن افكارها كانت لا تفارق ولدها ، واللع المضيف فاصرت ،
وبدوت من جوليان اشارة تنم عن فراغ صبره فلم يسع جان الا السكوت والقبول
وقد خشيت ان يبدر من زوجها سلوك يفضح سوء خلقه ، سكنت على مضض لأن
فكرة بعدها عن ولدها حتى صباح الغد كانت غمزق نياط قلبها تمزيقاً .

وكان يومهم حافلاً : فقد خرجوا بعد الظهر الى الينابيع المتفجرة من صميم
الصخور الملس ، ثم ركبوا الزوارق وجالوا في البحيرة وكثيراً ما غمرت جان يدها
في الماء المثلج تاركة لنفسها التلذذ بتلك البرودة التي كانت تنشئ من اصابعها الى قلبها .
وجلس في اقصى الزورق جوليان والكونتس وقد النفا بشالين وراحا
يسمان تلك البسمة الخالدة التي تشف عن سعادة وارقة لا تتركهما من هموم الحياة
الا وتذيبه وتنجره .

وهبط المساء بارداً فتمشت في الاوصال رعدة مثلجة كانت الشمس قد اقلت
وراء أشجار الصنوبر... وبدأت السماء قانية اللون وقد خططت أديمها تنف من غيوم
بنفسجية غريبة الاشكال ، كان مجرد رؤيتها يبعث البرد في الجوارح . وآبوا الى
الردهة حيث كانت تشتعل نار عظيمة فاستمدهم احساسهم بالدفء واستخف هذا
الشعور الكونوت فدنا من زوجته وأخذها بين ذراعيه الجبارتين كما يأخذ طفلاً
صغيراً ثم رفعها الى فمه وهطبع فوق وجنتيها قبلة رجل قانع سعيد .
ورنت جان باسمة الى هذا المارد الطيب وفكرت :

— لشد ما يخطيء المرء حكمه على الناس اذا اخذهم بمظاهرهم ! ونقلت ناظرهما
الى جوليان بحركة لا ارادية فرأته واقفاً أمام الباب شاحب الوجه شعوباً مخيفاً
وعيناه جامدتان على الكونوت ، وبدت منه قلقه وقالت : — أمرض أنت ؟ فجاء
جوابه صراخاً : — ليس في شيء . دعيني وشأني . اني مقرر فحسب .

وم الضيفان بالذهاب بعد العشاء الا ان الكونوت استبقاهما كي يريهما صيد السمك
على نور المشاعل ومشوا حتى وقفوا فوق الدرجات المؤدية الى شاطئ البحيرة بينما
صعد هو الى الزورق يصحبه خادم يحمل آلة الصيد ومشعلاً مناراً . كان الليل نيراً
قارساً تحت سماء بيضاء فوق صدرها نجوم ذهبية راءشة ، والمشعل يسحب وراءه
ذيولاً نارية غريبة الاشكال متحركة مترججة فوق الصفعة الجمدة .. وتوغل الذورق
في ظلام البحيرة وقد بدا شبح الكونوت بذراعيه الطويلتين ثم اختفى فلم يعد يصل الى
الاسماع الا حركة خيزوم الزورق يشق صدر الماء . وعلا صوت الكونوت :
— جلبوت . لقد اصطدت ثلاث سمكات .

وعاد شبعه يدنو من الدرجات . ثم قفز من زورقه وصعد الى الجماعة وخادمه
يقبضه حاملاً الصيد وادانه كانت السمكات مازالت تحتلج فيها الحياة .
وعادت جان وزوجها الى بول وقد اعارهما مضيقهما معطفين الثقا بهما ليدرا
البرد عن نفسيهما .

قالت جان بلهجة لا ارادية : — يا لهذا العملاق من رجل طيب !

واجاب جوليان وهو يقود العربية بنفسه : - أجل ولكنه لا اجتماعي .
وقاما بعد اسبوع بزيارة آل (كوتيليه) الذين يعتبرون رأس نبلاء المقاطعة
وهم يسكنون قصرأ جديداً بني في عهد لويس الرابع عشر بجحشي* في حديقة خلابة
محاطة بجدر عالية وبالقرب منه ، على مرتفع ، تقوم خرائب القصر القديم . وقاد
الضيفين خادم في ثياب رسمية الى مقصورة فخمة علقت في صدرها لوحة تحمل توقيع
الملك مهداة الى صاحب القصر . توقف الزوجان أمامها يتأملان فيما منحة ملكية
وقد اشتد اعجابها . ودخل الماركيز والمركيزة .

كانت المرأة مطلية بالمساحيق ، خفيفة الطل ، كثيرة التكلف اذ تحاول الظهور
متواضعة ، أما الرجل فضخم اشيب الالة ، في حركاته وصوته وبدوانه ترفع يعلن
عن أهمية شخصه ، فهو من ذلك الضرب من الناس الذين يجعلون من كلامهم وتفكيرهم
وتصرفاتهم سبيلاً لظهور رفيع مقامهم وسامق مكانتهم . فاذا تكلموا احتكروا
الحديث لا ينتظران من سامع جواباً ، لا تفارق البسمة الساخرة شفاهاها وكأئها
يقومون بما يفرضه عايجها مركزهما الموروث اذ يستقبلان ملاحظين ، صغار
نبلاء المقاطعة .

اما جان وجوليان فقد عجزا عن مجاراتها رغم مابذلا من جهد كيما يظهران
بظهر لائق ، ولشد ما أضيافا من طول الزيارة وقد اعوزتها لباقة الانسحاب الا ان
المركيزة عدت الى انهاء الزيارة بنفسها وبشكل طبيعي بسيط اذ اوقفت المحادثة
كفعل ملـكـة مهذبة تضع حداً لاستقبال شخص ما .

واذ كانا في طريق الأوبة قال جوليان : - اذا شئت - وضعنا حداً املاقتنا
بهؤلاء الناس . اما انا فأل فورفيل يـكـيـفـونـي .
فوافقته جان على رأيه .

ومضى كانون الأول بطيئاً ، هذا الشهر الاسود ، والثقب القاتم في اديم
السنة . وعادت حياة الوحدة الى ما كانت عليه في السنة الماضية ومع ذلك فلم تنبرم
جان بها فلها من ولدها شغل شاغل اما جوليان فكان لا ينفك ينظر ولده شذراً
قلعاً مزعجاً ..

وكثيراً ما كانت تأخذ طفلها بين ذراعيها وتشرع تداعبه وتهدهده كما تفعل النساء مع أطفالهن وكانت أحياناً تقدمه لابيه قائلة : - مالك لا تقبله .. يجبل الى المرء انك لا تحبه .

وأمر شقيقه فوق جبين الطفل الامرد بقرف ثم ادار جسده في نصف دائرة كأنه يتعاشي ملاسة يديه المتحركتين الجمدين . ثم حب فجأة وينطلق كأن تقزراً ينفره ويطرده .

كان المختار والطبيب والساكن يأتون أحياناً فيتناولون الطعام على مائدتهم . أما آل فورفيل فقد تطورت معهم أو اصر الصداقة اقوى فاقوى . أما الكونت فكان تعلقه ببول يداني العبادة ، فكان يأخذه فوق ركبته طوال وقت الزيارة واحياناً طوال بعد الظهر فكان يداعبه ويقبله كفعل ام بوليدها . انه يتألم بالغ الألم من زواجه العقيم .

وجاء مارس فكان صافي الجو جواً لطيفاً . وعادت الكونتس جيلبرت تتحدث عن نزوات على صهوات الجياد يقومون بها سوية . وبدأت جان سعيدة بهذا المشروع هي التي انهكها الضجر من الليالي الطويلة والسهرات المتشابهة الرتيبة . وخلال اسبوع صرفت اهتمامها الى العناية بجوادها الامازوني .

ثم بدأوا رحلاتهم . كانوا يسهرون دائماً اثنين اثنين . الكونتس وجوليان في الطليعة ووراءهما على مائة خطوة الكونت وجان . وكان هذان الاخيران يتحدثان كصديقين . وقد اصبحا في الواقع صديقين كنتيجة لاتصال روحهما المستقيمتين وقلبيهما السليمين . اما الاثنان الآخران فكانا يتحدثان عادة بصوت خفيض وينفجران ضاحكين ضحكاً عالياً ثم يقادلان النظرات كأن في اعينهما ما يبرران به الواحد للآخر دون ان تثبت منها شقة ثم ينطلقان راكضين بجوادهما كأن رغبة الى الهرب والابتعاد تتور فيها ..

وظهر جوليان فيما بعد نزقاً . فكان صوته الحاد يصل الى اذان زوجته والكونت محملاً مع هبات النسيم . فكان الكونت يتسم ويقول لجان : - ان

زوجتي لا تكون لطيفة كل الايام . وكانوا عائدتين ذات مساء واذ بالكروتنس تلكز
جوادها فيروح يقفد قفذات قوية وكان صوت جوليان يعلو قائلاً : - حذار .
حذار .. سينطلق بك حذار .

فاجابت : - لا بأس . ليس هذا من اختصاصك .
فالتها بصوت واضح الثبرات قاس حتى ان كلماتها رنت في الريف ونيئا كانها
معلقة في الهواء .
وبدا الجواد يقفز ويضرب الأرض بسنابكه . وهتف الكروتنس من رأيه
القويتين وقد خشي مغبة مهمل زوجته :
- حذار يا جليبرت .

وفي ثورة عصبية ، ثورة امرأة لا ينف شي في وجه ارادتها ، ضربت بسوطها
الحيوان بين اذنيه فاستقام على خلفتيه وضرب الهواء بقائتيه الامامين ثم عاد بها
الى الارض وانطلق في قفزة مربعة وراح يشق السهل بكل ما اوتيت عضلاته من قوة .
وعبر اول الامر مرجاً ثم توغل في الارض المفلوحة فانار خلفه ضباباً من
غبار الارض الكثيفة الرطبة . كان ينطلق خاطفاً حتى ليصعب تمييز المطية
من الفارس .

وجمد جوليان في مكانه وقد عقلت الدهشة لسانه ثم راح يصرخ : - سيدني !
وندت عن الكونت زجيرة مخنوقة ودفع بجواده الى الامام بكل قوة جسمه
وقد انحنى فوق سرجه دفعه منادياً به ملوحاً بذراعه فكان الفارس يحمل الجواد
بين ساقيه ويطير به .

ورأت جان شبح الزوجة والزوج هناك .. بعيداً .. منطلقين .. هارين ..
بعيداً .. بعيداً .. متصاغرين مختفين اخيراً كما يظهر طائران في الافق يتبعان ثم
يختفيان بين طيات الفضاء الفسيح .

ثم دنا جوليان من جان سائراً بخطى وثيدة وتم بلهجة غضبي : اظنها مجنونة
هذا النهار .

وسار الاثنان وراء صديقهما عبر السهل المتناوج .
وبعد ربع ساعة لهماهما يمودان فانضما اليها سريعاً .
كان الكونت احمر الوجه متصبباً عرفاً ضاحكاً مبهجاً منتصباً . وقد امسك
بقبضته القوية عنان جواد زوجته البطر .
أما الكونتس فكانت شاحبة ، قد جعد الألم وجهها وقد استندت بإحدى
يديها الى كتف زوجها كأنها توشك ان تتداعى .
وادركت جان ، هذا اليوم ، ان الكونت يحب زوجته حباً يكاد يكون
عبادة وهياماً .

وتغيرت حال الكونتس في الشهر الذي تلا هذه الحادثة فبدت راحة كما لم تكن
من قبل . وكثيراً ما كانت تقصد النصر ، لاتفك تضحك وتقبل جان معربة عن
حبها لها وتعلقها بها . ولقد خيل للجميع ان سعادة مجهولة قد غمرت حياة الزوجة
الشابة . اما زوجها فكان سروره لا يوصف بهذا التحول المفاجيء لا يفارقها بانظاره
يسمى دائماً الى لمس يدها او طرف ثوبها في اشتياق متفانٍ ملعاح .
وقال ذات مساء لجان : - اننا الآن اسعد ما نكون فجلبرت لم تكن قط
ألطف منها الآن ولا أشد إيناساً . ولقد وثقت الآن من انها تحبني ولم اكن قبل
اليوم واثقاً .

وتعدى المرح جلبرت الى جوليان فبداراضياً هادئاً الاعصاب فكانت
الصدافة التي ربطت العائلتين كانت هليها برداً وسلاماً .

وجاء الربيع فاتر الانفاس معطار النفحات كما لم يبعد من قبل . فكان شمس
الماتعة قد انبتت ، دفعة واحدة ، كل ما في الارض من بذور واندفع النسخ الجديد
في عروق كل نبتة فبعث في موات الطبيعة حياة فياضة بالحركة غنية بالجمال كما
لا يحدث الا في بعض السنوات المخطوطة التي تجدد شباب الطبيعة الداوي أشد
ما يكون التجديد .

واحست جان في اعماقها اضطراباً غامضاً بعيد المدى امام اختار الحياة في

فصل انبثاق الحياة ! انها تشعر بفبطة مفاجئة امام زهرة تنفتق اكمامها بين النفاف
الاعشاب ثم تغمرها كآبة حاملة لذيدة فتعبرها لحظات استرخاء ضائع وغيبوبة
مدغدة .

وعاودتها ذكريات حبها الاول الجميل ، ذكريات ذلك العهد العباق بالاماني
العذاب والاحلام المجنحة . الا ان عواطفها تلك لم تعد كونها ، على حرارتها ،
ذكريات مضت وانقضت .. كانت كل جوارحها تنور لدى ملاسة انامل الربيع
الطرية لجسمها فكان نداء مجهولاً يحث بها الى البحث عن حبها الضائع لترشف منه
نغمة تحيي موات عواطفها الذاتية ..

كانت تستكين الى وحدتها فتجلس تحت وهج الشمس وقد اجتاحتها شعور
غريب بلذة مبهمة عميقة الغور فيركد تفكيرها وتشل قواها الواعية فلا يطرق خلدها
اي ظل لحبال ولا يراود وجدانها خاطر أو مأمل .

وعبرت ذاكرتها ، ذات صباح ، وكانت هائمة في مهامه احلامها ، ذكرى
لحظة سعيدة قضتها في مكان ينفذ اليه شعاع من الشمس عبر اوراق الشجر في الغابة
الملتفة الايك بالقرب من « اترينا » .. فهناك عرف جسدها رعشة الحب الاولى
تحت وهج غرام هذا الشاب الذي كان يحمل لها آذلك هياماً لازيف فيه ولا مرا ..
هنالك تتم قلبها انشودة حبه الاولى . فجاءت خفرة خجلة تتردد محمولة فوق اجنحة
سمادة لانحد ولا توصف .. هنالك خالت نفسها تلج باب مستقبل عباق بالاماني
العذاب والرؤى التحلية !

ودت لو تعود فترى تلك البقعة الحبيبة ، لو نبحج اليها كما يحج المؤمن الى مهبط
الوحي وارض المعجزات .. باللعيق ! كأن ذلك يغير شيئاً من مجرى حياتها أو
يجول شيئاً من سيرها المحتوم !

كان جوليان قد خرج منذ الصباح لاتعلم الى أين .

وركبت جوادها الابيض وانطلقت ..

كانت النهار هادئاً مائماً والسكون العميق يمين على الكون فلا تسمع ضجة

ولا تعلقو نأمة . وهبطت الوادي المفضي الى الشط وبلغت الغابة وتبدأ . كان النور يتساقط من بين خضرة الشجر الفضية تساقط شأبيب مزن هتون .
وبحثت عن البقعة المنشودة دون ان تهدي اليها فكانت تطوف بين المغاور
دوت وجهة .

ولحت بغتة ، في بعض الجنبات ، جوادين مشدودين الى شجرة ضخمة .
ومرغان ماعرفت فيها جوادي جوليان وجيلبرت .

كانت الوحدة قد ادهمتها فشعرت سعادة لهذا اللقاء غير المنتظر ولكزت
مطيبتها فانطلقت تعدو بها . وبلغت الحيوانين الصابرين كأنهما اعتادا مثل هذا الانتظار
ونادت فلم تسمع سوى رجع صوتها .

والفتت فلهجت فوق العشب المشعث قفاز امرأة وسوطين . اذاً فقد كانا
جالسين هنا ثم توغلا في الغابة تاركين جواديهما حيث كانا .
وانتظرت . ربيع ساعة . عشرين دقيقة . عشباً ..

ولم تدري ماهي فاعلة . كانت قد غادرت سهوة جوادها فلقت انظارها طائران
فوق منحدر معشوشب يتداعبان فاستندت الى جذع شجرة وراحت تتأملهما . كان
احدهما يقفز ويرتعش باقرب من صاحبه وقد نشر جناحيه وراح يضرب بها الهواء ..
واتحد الطائران فجأة ..

وبحركة لا شعورية نقلت ناظرها الى القفاز والجوادين المتروكين .. ووثبت
الى سرجهما وانطلقت بحشها ميل عارم الى الهرب .. الى الاختفاء ..

انطلقت تركض بجوادها نحو القصر كانت الوف الاشباح الراحبة تمعن في
مطاردتها . كانت الفكر تدور في رأسها كالزوبعة العاتية . . وراحت تجمع شتات
الاحداث الماضية . تلك الاحداث التي لم تفقه لها في حينها معنى . . كيف لم تحبس
كيف لم تشك بغياب جوليان المتواصل كيف ؟ كيف ؟ يا الله ! وتأنق جوليان
المستبعد ؟ ودماثة خلقة التي لم تعدها به ؟ .. يالها من غيبة حمقاء !

تذكرت ثورات جلبوت العصبية ثم غنجها المبالغ به فتلك القناعة السعيدة التي

غمرتها وغمرت الكونوت معها فاستحال بها سميداً راضياً .
كانت بحاجة الى تفكير عميق فخففت من سرعة جواردها تلك السرعة التي كانت
تعيق تفكيرها وتذكر صفاء عقلها

وعاد قلبها الى سكنته بعد هذه التأثيرات الاولى . . عاد كما كان قاعاً صفصفاً
عاطلاً عن كل غيرة او كراهية او حقد . لم يبق فيه سوى الاحتقار الذي كان
يغص به ويفعمه ابداً افعام .

هي لا تفكر بجوليان مطلقاً فليفعل ما يحلوه فلا تهم بتصرفاته ولا يدهشها
كل ما ييدر منه . لقد قابلت خيانة زوجها ببرود شديد الا انها لم يكن هذا
شأنها حيال الكونوتس : فلشد ما اثارها خيانتها المزدوجة . ان الناس جميعاً اذاً
غادرون منافقون سافلون !

وفاضت بالدمع عينها . . فالمرء يبكي آماله احبائاً كما يبكي موته !
وعزمت اخيراً على الاتسعي الى الاطلاع على شيء ، ان تغلق روحها دون
التأثرات العابرة ، الانحب سوى بول واهلها ، وان تتحمل الآخرين بصبر منافق .
ما بلغت البيت حتى انطلقت الى ولدها فاحتملته الى غرفتها وراحت تمطره
سيلاً من قلبها المغمومة فترة طويلة دون انقطاع

وعاد جوليان وقد ازفت ساعة الغداء بشوشاً راضياً يملؤه ميل محبب . وسأل :
- اني ياقي ابوك وامك هذه السنة ؟

لشد ما قدرت فيه هذا الاطف حتى كاد ينسها اكتشافها في الغابة وتولد فيها
ميل ملحاح لرؤية المخلوقين الذين تحبها - بعد بول - فوق كل مخلوقات الارض .
وامضت السهرة كلها تكتب اليها تستعجل قدومها .

وجاءها جواربها معلناً لها حضورها في العشرين من ايار وكنا في السابع منه .
واقامت تنتظرها بصبر متفانم وكانها احست حاجة ، فضلا عن حبها البنوي ،
الى الاحتكاك بقلوب نبيه ، الى التحدث الى ابويهم فتفتح لها نفسها ، اولئك الناس
الانقياء الخالصين من كل لؤم والذين لم تشب حياتهم او تصرفاتهم او افكارهم
شائبة قط .

ان ما تشعر به جان هو انفراد نفسيتهما ذات الخلق القويم بين هذه النفسيات المعوجة المنحطة .

كانت فكرة احتقارها للرجال تغمر حياتها غمراً . وتعتمد المراوغة والنفاق فكانت تستقبل الكونتس مفتوحة الذراعين كان اكتشافها في الغابة لم يكن . وكان للاخبار التي تتناقلها الافواه مما يحدث في المقاطعة يد في تقسيم هذا التفرز العظيم الذي لا يني يعظم في نفسها نحو الناس اجمعين :

« ابنة (غبار) ولدت قبل موعد زواجها بفترة قصيرة ، خادمة آل مارتان ، يمنية ، ظهرت حاملاً . جارة صغيرة في الخامسة عشرة بدت عليها اعراض الحمل . واخيراً تلك الارملة العرجاء القبيحة التي يطلقون عليها الاسماء للسخرية من قذارتها الظاهرة للعيان ، حملت هي الاخرى ! »

كانت امثال هذه الفضائح الفذرة تفرع الاسماع في كل لحظة وكذلك قل عن انباء طيش الفتيات او الفلاحات المتزوجات امهات الاطفال وغيرهن من المزارعين الاترياء . فكان هذا الربيع الحار قد حرك الفرائز في الناس فعله بالنبات والحيوان . اما جان ، وقد تبدل فيها كل حس ، فلم يكن لمثل هذه الاخبار ان تحرك فيها جراحة . لقد حطم قلبها وخوى من كل عاطفة ما خلا عاطفة الامومة التي ما برحت ناشطة تتحرك لكل هبة شوق حارة . . كانت تحلم فتفوح من احلامها رغباتها فتزداد بهذه الاحلام تعلقاً وتشبهاً . . اما النزوات الحسية والعواطف المادية فقد ماتت في شرايينها وعفت عليها الايام . . . ولشد ما ادهشها ان يتولد في الاحتقار شديد وتقرز مقرز من هذه الحيوانية الوضعيه التي يسعونها الحب !

واذا كانت تحمل في صدرها غلاً جليبرت فليس حقداً وليس مقتناً لاقدام هذه الغريمه على اختطاف زوجها ، انما احتقاراً لها وتقرزاً منها لسقوطها في وحول تلك الحماة الانسانية النتنة !

ليست جان بمن تسيطر عليهم غرائزهم . ولذا كان يمسورها التخلص من هذا الجلف الحشن الخلق زوجها .

... ونوقفت عربة البريد امام الدرج وظهر في نافذتها وجه البارون الطليق فاحست جان ، لدى رؤيته ، عواطفها تجيش وتتحرك في احماق سويدائها .. كان ذلك منها مؤثراً بالغ الروعة كما لم تعهد من قبل .

وما ترآمت لها امها حتى بدأت مأخوذة خائفة القوى . وبدأت البارونة كأن العمر قد خطاها ، خلال الاشهر الستة الخالية ، سنوات عشرين الى الامام . . . كان خداهما الضخمان منتفخين قرمزيين كأنهما يحصران دماء صاحبة وكان عينها مطفأة لا ترى ولم تكن تقوى على الحركة ان لم يعتمد اثنان الى اسنادها وهي في كل ما تحاول ، في تردد ، ولم .

ولم يظن البارون الى انهار صحة زوجته كما فطن الآخرون لأنه كان يلزمها اعظم الوقت فكان يجيب جان اذا ما شكت اليه المخطاط قوى امها قائلاً :

ولكني اجدها على خير ما يرجى !

وفي المساء خاطب جوليان زوجته قائلاً :

.. ان امك سائرة في سبيل الانحطاط الصحي بخطى حثيثة واخشى ان تكون

مصابة بمرض خبيث ما .

وكان جواب جان دعوها سخينة ذرفت وشهقات حارة صعدتها .

ومضت ايام ثمانية اعتادت جان خلالها على هيئة امها فاضمحلت وساوسها شيئاً فشيئاً ولم يعد امر صحة البارونة يشغل ابنها .

وغدت البارونة عاجزة عن المشي لا تخرج الا نصف ساعة كل يوم . اما ما

تبقى من وقتها فتقضيه في غرفتها فتطلب (درج الذكريات) وتأخذ في قلب رسائلها القديمة والدموع تترقرق في أعينها وكثيراً ما كانت ترفع إحدى تلك الرسائل الى شفقتها فتقبلها .

وبعد بضعة ايام ذهب الكونت في عمل يستغرق منه بعض الوقت .

وجاء موسم الحصاد فكان وقتاً رائعاً ، فالليالي ناعمة مرصعة الصدر بقلائد

من جمان رواعش والاصائل ساكنة بعد نهار ضاحك السن . ونحسنت صحة الام

فجأة . اما جان فقد تناست حب جوليان وخيانة جلبرت وغرفت في سعادة نكاد تكون كاملة .

كان الريف برمته مزدهراً معطاراً والبحر دائم السبحر يلتصع تحت سبل ذواثب الشمس منذ الفجر حتى المغيب .

اخذت جان ولدها بين ذراعيها ، ذات اصيل ، وانطلقت بين الحقول . كانت تنتقل بانظاوها بين ولدها والازاهير المزينة حفا في الطريق فتار فيها حنانها قوياً صاخباً .. فكانت ، من حين لآخر ، تضم وليدها بقوة الى صدرها وتغمره قبلاً حارة مشوقة .. ماذا سيكون في مستقبلات ايامه ؟ ما ترى يجي . له الغد المجهول ؟ كم كانت تحلم في ان تراه رجلاً قوياً شهيراً واسع النفوذ وتريد احبائاً اخرى ان يظل متواضعاً مغموراً فيبقى الى قربها يحضها اخلاصه وتفقد عليه حبها .. سيبقى لها حانئاً عليها مفتوح الذراعين لأمه ابد الدهر . فاذا ما احبته بقلب الام الاناني شاته دائماً ابنها ، لاسي . سوى ابنها ، ولكن اذا ما تركت لعقلها المفكران يحبه ، ودته شخصاً مرموقاً ذا مكانة سامية في المجتمع عله يرضي بذلك كبرياءها . وجلست على شفا حفرة وراحت تنو اليه كأنها لم تكن قد رآته قبل ذلك قط وحيرها ان هذا الطفل اللدن سيصبح يوماً قوياً كبيراً يشي بخطي ذابته ، نغظي عذاربه لحبة كثة يتكلم بصوت خشن رنان .

وناداه صوت بعيد فرفعت رأسها . وظهر ماربوس يعدو . وظنت ان بعض الضيفان بانتظارها وما دنا منها وصاح : - سيدتي . سيدتي . لست ادري ما اصاب سيدتي البارونة .. انها تشكو شيئاً خطيراً ! ..

وأحست كأن فطرة من ماء مثلج قد سالت على طول عمودها الفقري وانطلقت مسرعة وصوابها يكاد بطير شاعاً ... ولحت عن بعد اناساً متجهين تحت الحبله . وافسحوا لها مكاناً فرأت امها ممددة فوق الارض ورأسها مستندة الى وسادتين . كان وجهها قائماً كله وعيناها مغمضتين وصدرها ، الذي كان دائم الاضطراب خلال السنوات العشرين الاخيرة ، بدا ساكناً لا حراك فيه ! وتناولت

المرضع الطفل من على ذراعي جان وسارت به بعيداً عن زحمة الحلق .
وسألت جان وهي تكاد تفقد ادراكها : . ماذا حدث لها ؟ كيف سقطت ؟
ليذهب احدكم فيحضر الطبيب . وحاولوا حملها كي ينقلوها الى غرفتها فتزقه ثوبها
تحت ثقل جسمها الضخم المترهل . ونصحهم الكاهن الذي حضر بنزع ثيابها عنها
ونقلها الى غرفتها ولم يتوصلوا الى ذلك الا بشق النفس وبعد ان استعانوا بارية
حملوها فوقها وساروا بها خطوة خطوة حتى بلغوا بها سريرها .
وحضرت الارملة دانتو وقد تنسبت رائحة الموت .
وانطلق الخادم لبأني بالطبيب بينما تطوع الكاهن لاحضار الزيت المقدس الا
ان الارملة دانتو دنت منه واسرت اليه :
— لا تتعب نفسك يا سيدي الكاهن . لقد مضت ! وشرعت جان تستغيث
وقد افقدها المصاب صوابها .
لم تدر ما ينبغي لها ان تفعل ، اي شيء تحاول ، اي دواء تستعمل ..
ونقم الكاهن بصلاة غفران الخطايا ...
اقاموا ساعتين كاملتين امام الجسد البنفسجي اللوث الحالي من كل حركة
وحياة ... كانت جان جاثية فوق ركبتيها وهي غيب لالام ممزقة جاشت لها
بالدموع عيناها واختنق بالزفرات حلقها ..
وما فتح الباب واطل الطبيب حتي احست جان سلاماً وعزاءً واملاً ...
واندفعت ترومي له كل ما عرفت عن الحادث :
— لم يكن بها شيء ، قط ... لقد قامت بنزهتها كالمعتاد .. صحتها جيدة ..
لا تشكو شيئاً .. وقد اكلت حساءً وبيضتين ساعة الفطور .. ثم سقطت فجأة ..
واسود لونها كما ترى ... واستكانت لا تبدي حراكاً .. ابدأ ! .
وبدرت من الممرضة اشارة تعني ان كل شيء قد انتهى ! . . انتهى تماماً
فجمدت جان فترة ثم انتفضت ترتعش هلعاً وفرقاً ! . الا انها لم تشأ تصديق ذلك
فمادت تسأل الطبيب ملهفة عظيمة القلق : — اتظن ان حالها خطير ؟ اتبعدها على
خطر ؟ قل . بربك ايها الطبيب ..

وبعد براءة فتح الطبيب فاه بوقار العلم وقال :
- لشد ما أخشى ان تكون ... ان تكون .. قد قضت .. تشجعي يا
سيدتي .. لوذي بكل ما تملكين من صبر وجلد ..
وكن يلقي بنفسه يائسا في منزلتي مخوف ، فتعت جان ذراعيها واقت بنفسها
فوق جثمان امها المسجي امامها .

ودخل جوليان فصعقه المشهد ، ثم اربد وجهه بشكل واضح دون ان تبدر
منه صرخة الم او يأس فقد كانت المفاجأة صاعقة لم تتح له اتخاذ الموقف المناسب
لواقع الحال . وتتم :

- كنت انتظر حدوث شيء كهذا . لقد حدثت بقرب نهايتها . ثم استخرج
منديله فمسح مقلتيه ولا دمع فيها ومشى الى الفقيدة فجثا امام الجثمان وجههم بضع
كلمات ثم نهض وحاول انهاض زوجه التي كانت تحيط الجثة بذراعيها وتطرها بقبلات
لاعديدها وهي تكاد تضطجع فوقها بكل جسمها .. كان لا بد من حملها خارج
الغرفة ولو قسراً ذلك انها قرأت لهم تكاد تفقد صوابها .

وهبط الليل . ومشى الكاهن الى جان وراح يقرع اذنيها بعبارات التعزية:
حدثنا عن خداع الحياة وبطلان زحرفها . مبرأ عن كل ذلك تعبيراً قوياً حزيناً
كاذباً ... فقلما يسر الكاهن نزول الموت ساحة الناس ! ..

وعرض عليها ان يجي الليل بالقرب من جثة الفقيدة يقطعه بالصلات الا ان
جان ابت عليه عرضه الكريم من خلال دموع تشفعية كانت لا تنفك تذرفها . انها
تبغي قضاء ليلتها وحيدة ، وحيدة تماماً ، مع امها الفقيدة . فهذه ليلة الوداع الابددي .
ودنا منها جوليان وقال :- ولكن هذا مستحيل ! سأبقى معك . وهزت رأسها
بالنفي اذ لم يعد لها على الكلام جلد .

وبجهد استطاعت ان تقول : - انها امي ! امي ! وسأسهر عليها بمفردي ..
وتدخل الطبيب قائلاً : - دعوها تفعل ما يحلو لها وستقيم الممرضة في
الغرفة المجاورة .

لم يعترض على رأي الطبيب احد فقد كان جواريان والسكاهن يحملان كل
بسريره .. وبعد ذلك دنا السكاهن من الحنة وركع وصلى ثم نهض وخرج وهو
يردد :- كانت قديسة . كانت قديسة ! قال ذلك بنفس اللهجة التي قال بها :

(١) Dominus Vobiscum

قضت جان ليلتها بطولها امام الجثمان المسيحي لا تنضب لها عين ولا يقر لها
فكر . تذكرت كل ما وعته عن حياة فقيدتها الغالية : افوالها ، حركاتها ، زياراتها ..
كل شيء .. كل شيء . وكانت كل ذكرى تسندر من مقلتها الدمع الغدير السخين
وتدفع بالتمنيدات الحائرة تمزق صدرها ايما تمزيق ... بكّت .. بكّت حتى نصب
معين عينها فهي تبكي الان دون دموع فتعس نارا اكلولة ترعي جفونها .. وتنبهت
فاذا الساعة لم تجاوز العاشرة فهزها خوف مربع .. خافت هذا الليل الطويل تقضيه
مع الموت وجهاً لوجه ! ..

وحملتها ذكرياتها الى حياتها الخاصة : روزالي . جيلبرت . عذاب قلبها المعنى ..
آلامها الممضة .. اتوئتها المغفرة في الرغام .. حب المصوح كالواحة تحت لفع السوم ..
وخلصت الى ان كل حياتها لم تكن سوى نعاسة وشفاء وآلام وموت ! .. حياتها ؟ ..
يالها من حياة صاخبة ! صاخبة بالخداع ، بالنفاق ! يالها سراباً خادعاً في الم ، كاذباً
في يأس ...

وتساءلات والزفرات تقطع من قلبها النياط :

- ترى أين يمكن للمرء ان يلقى شيئاً ولو يسيراً من الراحة والسعادة ؟ أنى
يناح للانسان التعس ان يحیی بنجوة من هذا الشقاء المقيم ؟ في وجود آخر ولا
ريب ! في عالم سعري موعود جسره الموت وسبيله تحرر الروح من قيود المادة
القانية ! الروح ؟ ! ما هو جوهر الروح وكيف يمكن لهذا الشيء غير الملموس ،
اللامادي ، ان يحس ويشعر ويدرك وينعم ؟ لا . لا . لا . لا بد من سعادة في عالم الارواح
غير ما نعرف في عالم التراب هذا ! ..

(١) تعبير لاتني يستعمل في الثمائر الدينية وممناء : « الرب معكم » .

واستمرت في مثل هذه التأملات الشعرية فترة لا تدرى اطالت أم قصرت :-
ترى أين هي روح أمها الآن ؟ روح هذا الجسد المستكين البارد ؟ بعيداً .. بعيداً
جداً ولا ريب في مكان ما من هذا الفضاء الفسيح .. الا انها لا ترى ولا تلمس ولا
تسمع كأنها الطائر اقلت من قفصه بعد طول الاسر فحلق وغار في اجواز الفضاء !..
ام تراها عادت الى باوتها ؟ ام لعلها ذهبت الى مكان مجهول حيث تمتزج ببذور حياة
تتمياً لتكون ؟ بل ربما كانت دانية جداً .. لم تغادر بعد هذه الحجرة تطوف حول
هذا الجسد الساكن الذي هجرته فبحره كل معنى من معاني الحياة !

وشعرت جان اذ بلغت هذه الدرجة من التفكير ، نفساً يلفحها كأن روح امها
تلامسها .. وعصف في اعماقها رعب هائل فظيع لم تجرؤ ، لشدة وطأته ، على
تحريك ساكن ...

ورفعت اخيراً عينها المكسرة في الاهداب فوقعتا على « دوج الذكريات » .
ذلك الدرج العزيز الذي طالما تمتعت فقيدتها بتقليب ماضى من صفحات طفولتها -
الذاهبة وشبابها المنصرم . وخطرت لجان خاطرة لاقت من نفسها قبولاً حسناً : ان
تأتي ببعض تلك الرسائل فتتلوها أمام الفقيدة فمثل هذا العمل ، ولا ريب ، سيغلب
لروحها ، في العالم الآخر ، برداً وسلاماً .

وفتحت الدرج فتناولت حزمة من الرسائل حال لونها ونصل وقد ضمها خيط
حريري رقيق . انها رسائل جدها الى ابنته . شاءت ان تقرأ بعضها على مسمعي
المائة لتزودها بأخر ذكرياتها فوق هذه الارض ولتقارب بين روحها وارواح من
سبقها الى العالم الآخر المجهول .

وتلت من هذه الرسائل ما تيسر : كانت جميعاً تحمل حنواً متناهياً وجباً
وعطفاً . انها بحق رسائل والد الى ولده . ما أجمل ما حلت من توافه الاخبار
العائلية الصغيرة !

وغمر التأثر قلب جان غمراً .. فلقد اوغلت في صميم الحياة الماخبة العذبة
الجميلة ... حياة قلب امها . تلك الحياة الخاصة السرية ..

ورنت الى الجنة الهامدة فضيل اليها انها ترى فوق محياها الابيض الجلامد لطيف
السعادة والرضى ..

القت بالرسائل فوق قدمي السرير وقالت لنفسها :
- سأضع هذه الاوراق في النعش كما توضع الازهار . وتناولت حزمة ثانية
وفصت رباطها : انها بخط مختلف عن خط جدها .

وقرأت : « ليس لي عن مداعباتك غنى » . احبك بجنون ، لاشي سوى هذه
الكلمات .. اما العنوان فكان شديد الوضوح لامرأة فيه : « البارونة لي برونوي
دي فود » وتناولت ورقة اخرى : « تعالي هذا المساء فور خروجه . ستكون لنا
ساعة حب عارمة . اعبذك » .

وفي الرسالة الثالثة قرأت : « لقد صرمت ليلة عذاب اليم وانا مقيم بانتظارك
عبثاً . الم تكوفي لي بالامس ؟ الم يكن جسدك بين ذراعي الحصر مغافته ولعب
رحيقه ؟ وثغرك المغري الم يكن على مرمى قبلاقي المجنونة ؟ كم غمست في زرقة
عينيك عيني ! . فكرت ، اذ اخلفت موعدك ، انك الآن بمددة الى قربه ..
بستطيع امتلاكك ساعة يشاء .. فعصف بي الم جنوني وبأس قاتل اوشكت معها
ان القي بنفسي من النافذة » .

وجهدت جان لاتفقه لما تقرأ معنى !

ما هذا ؟ ولمن ؟ اجل لمن هذه الكلمات المشوقة اللاهبة ؟ لمن ؟ ومن ؟
وتابعت القراءة .. انها عين اللهجة المستمرة .. مواعيد غرام .. خلوات حب ..
قبل .. استسلام .. دعوة الى أخذ الحيلة والحذر .. واخيراً العبارة التي لا تتغير :
« المهم ان تحرقني هذه الرسالة بعد تلاوتها .. »

وعثرت اخيراً على بطاقة دعوة الى وليمة تحمل ذات الخط والبطاقة باسم
« بول دينمار » انه اذاً من كانت تذكره البارونة اذ تقول : صديقي الهرم
المسكين بول ! ... وزوجته ؟ الم تكن صديقة امها المفضلة ؟ ..
ونبت في نفس جان شك مالمبث ان استحال حقيقة دافئة لامرأة فيها : كان

بول لامها عشيقاً ! وبحركة عنيفة اقلت هذه الاوراق جانباً كما تنفض
حشرة ساممة دبّت فوق جسمها .. وانخرطت في بكاء مخيف كاد يمزق حنجرتها ..
ثم تداعت الى جوار الحائط وغطت وجهها بكفها راحتها كي لا يسمع صوت نشيجها
الى الخارج .

ولربما كانت ستبقى على هذا الوضع طوال المزيغ الاخير لو لم يطرق اذنها
وقع خطى في الغرفة المجاورة جعلها تثب فجأة . لعل أبوها قد آب من سفره . كانت
كل الرسائل مازالت راقدة فوق السرير او على الارض ! حسبه لو تناول واحدة
منها اذاً لعرف كل شيء !

وهبت كالمنهونة تجمع تلك الاوراق المتناثرة المصفرة ، رسائل الاب ورسائل
العشيق . ما كان منها منشوراً وما بقي منها مخزوماً وحتى تلك التي كانت ترقد في
الدرج .. تناولتها جميعاً وحملتها الى الموقد .. واخذت احدى الشموع المشتعة فوق
المنضدة واضرمت فيها النار فعلاهب عظيم اثار الغرفة برمتها بألق متراقص راسماً
فوق السجف البيض خيال الوجه المفضن والجسم الضخم المسجى تحت الاغطية ولما
لم يبق في الموقد سوى كومة من رماد أسود عادت جان فجلست بالقرب من
النافذة كأنها بانت تحشى دنوها من الجثة وعاودها البكاء فاخذت رأسها بين راحتيها
مجهشة بصوت عصبي منقطع : آه ! ياوالدني المسكينة . ياوالدني المسكينة !

ودهمتها فكرة مريعة : هب ان امها لم تكن قد ماتت بل غارقة في سبات
كالموت وانها ستنهض فجأة وتعود اليها الحياة والنطق ! ان يؤثر عليها ، هي جاث ،
ادراكها لسر امها ، في حبها البنوي نحو هذه الأم ؟ استقبلها تلك القبلات الطاهرة
كما تعودت ان تفعل ؟ كلا هذا لا يعقل !

لشد ما حملت فيها هذه الفكرة اثماً غريباً !
احيي سواد الليل شيئاً فشيئاً .. وشعبت النجوم قليلاً قليلاً ... وزحف
الفجر رويداً رويداً ... وهبط القمر من على سدنه ليختفي وراء البحر وقد اسبغ
عليه لونه الصدي المائل .

وعادت بجان الذكرى الى تلك الليلة التي قضتها الى النافذة يوم قدومها الى
(بوبل) .. ما بعده من عهد !.. لقد تغير كل شيء .. ما اغرب هذا المستقبل !
واخذت السماء تصطبغ بلون البنفسج والورد كما تضرجت وجنتا عذراء
خفرة عاشقة ..

هاهي ذي جان تتأمل ولادة النهار مأخوذة مسحورة والح عليها هذا السؤال:
لم لا تكون السعادة مركباً وطيباً فوق هذه الكرة حيث يبرز مثل هذا
الفجر الخلاب ؟

وانتفضت اذ فتح باب الحجرة . انه جوليان جاء يستفسر عن حالها وما اذا
كان قد الم بها نعب وارهاق .

وكانت جوابها مقتضياً نافياً .

اقد أسعدها دخول جوليان فهي لم تعد وحيدة . قال :

- اذهبي وخذي قسطاً من راحة .

ومشت الى امها فقبلتها قبلة منبهة مؤلمة حزينة ثم انصرفت الى مخدعها .

وتصرم النهار في تلك الاستعدادات التعيسة التي يتطلّبها الموت . ووصل
البارون مساءً فبكى مريراً بالبكاء .

وفي القد واروها الترى حيث انتهت حياة شأن الالوف من مثيلاتها في هذا
العالم الكذوب ..

وانسحبت جان بعد ان ودعت امها الوداع الاخير لتستقبل الحزين .

ووصلت جيابرت اول من وصل فالقت بنفسها فوق صدر صديققتها
شاهقة بالبكاء .

وتوافدت المركبات زرافات زرافات . ودخلت نساء غارقات في السواد
وادهش جان انها لا تسكاد تعرفهن . ولاحظت على حين غرة الحالة ليزون تنزل
الى قريها فعانقتها بخنو كاد يؤدي الى انهيار اعصاب العانس المسكينة . ودخل

جوليان غبارقاً في سواده . كان شديد الاناقة ، منهمكاً ، راضياً عن وجود هذا الجمع : وحدث زوجه بصوت خفيض قائلاً : - ها قد توافد كل النبلاء . انه لشيء جميل .

ولم يلبث ان غادر المكان بعد ان حوى السيدات برزانه .
أقامت الحالة ليزون وجلبرت الى قرب جان بعد استكمال مراسيم المأتم وكانت الكونتس لانتفك نعاتي جان هاتفة : - يا عزيزتي المسكينة ! يا عزيزتي المسكينة !
وعندما حضر الكونت دي فورفيل ليصحب زوجته اثناء عودتها بكى بكاءً مرّاً وكان الفقيده من لجه ودمه .



الفصل الثالث

تتابعت الايام حزينة كثيفة مرهقة فلدى كل خطوة يبرز ما يذكر جان بفقيدها العزيزة وكثيراً ما خيل لها انها تسمع صوتها يتردد ويعلو فتحاول الهرب الى مكان آخر .

كان لابد لها من البقاء حيث هي لأن الكل مقيم هناك لا يبرح . وكان الاكتشاف الذي وقعت عليه جان ، فضلاً عن ذلك ، يرهق منها الوجدان ويثقل الضمير فلم يجد لها شيء في ضمير جراح فؤادها المخطم الممزق .. ولشد ما ارهق هذا السر الهائل وحدتها فاحالها خائفة مقبضة لا تنطق .. لقد اطاح هذا السر الفضوح آخر ما حملت من ايمان بصالح الناس ونقاوة ضمائرهم وسلامة سرائرهم .

ولم يطل الامر بابيها فغادر القصر الى روان فقد كانت به حاجة الى الترويح عن النفس وتبديل الجو بعد ان افقدته المنية رقيقة حياته ..

وعاد المنزل الكبير الى حياته الرتيبة المعتادة فسكانه لم يفقد أحد اصحابه . والمّ يبول مرض فطار صواب جان شعاعاً وامضت اثنتي عشرة ليلة لا يغفص لها جفن ولا تكتحل لها عين بكرى ولا تكاد تذوق طعاماً .

ولطف الله بهذه الأم المنكودة الطالع فأبل طفلها من مرضه الا انها لم تستعد قواها النفسية ففكرة موت ابنها كانت مسيطرة عليها اياماً سيطرة . لو حدث ذلك ما تراها فاعلة ؟ ماذا يجلبها ؟ .. ويهدوء تولدت فيها رغبة بان يكون لها ولد آخر . وسرعان ما راحت تحمل به وقد بعثت في صدرها رغبته القديمة في ان

يكون لها ولدان : صبي وبنت . ولم تبوح هذه الفكرة خلالها بعد ذلك قط .
كانت تعيش منفصلة عن جوليان منذ حادثة روزالي وانه ل يبدو لها مستحيلاً
ذنوها منه ولا سيما في الوضع الذي هي فيه فجوليان قد علق امرأته اخرى في مكان
آخر . انها لا تجهل هذه الحقيقة الصارخة .

ووجدت نفسها تنفض احتقاراً وتقزراً لمجرد التفكير بالاستسلام الى مداعبات
هذا الرجل المحقوت .

ولكن قد ترضى ذلك منه ونحوه في سبيل اشباع تلك الرغبة التي اصبحت
ترهق تفكيرها بما ارهاق . وتساءلت كيف يمكنها تبادل القبلات من جديد بعد
ان صدفاً عن ذلك عهداً طويلاً . وخير لها الف مرة ان تموت غماً من ان تتركه يحدس
برغبتها هو الذي لم تكن بوادره تدل على انه يفكر فيها .

ربما كان بميسورها الانصراف عن فكرتها تلك لو لم تكن لاتنفسك نعلم بها
ليلمها ونهارها . هاهي ذي ترى ابنتها تلهو مع بول تحت الحديقة . وكثيراً ما كانت
تثور فيما رغباتها فتود لو تنهض وتذهب الى زوجها في غرفته ولقد فعلت ذلك
مرتين الا ان خفها وكرامتها منعها من ولوج الباب فعادت ادراجها وقلعها
يجب وجيباً عالياً .

كان أبوها قد غادر القصر وامها قد توت في جدتها فلم يعد لها ثم من تسيطر
له اللثام عن أسرار قلبها الحبيبة .

وقررت اخيراً ان تمشي الى الاب بيكو فتفصي اليه ، اثناء الاعتراف ،
برغبات قلبها المكبوتة .

وبلغت مسكنه فوجدته يقرأ في كتاب الصلوات تحت أشجار حديقته الوارفة
الدانية القطوف .

وبعد ان تجاذبا أطراف احاديث شتى تمتت وقد اندفعت دماؤها فخرجت
وجنتها البلوريتين :

— بودي لو اعترف ياسيدي الاب .

وحمد الكاهن فترة ثم رفع نظارته ليتأملها جيداً وانفجر ضاحكاً ...
 - لا اظن ذنبوباً كثيرة ترهق منك الضمير ..
 واضطربت واجابت : - كلا . انما ابغني ان اسألك نصيحة حول امر
 خطير .. سأتك بشكل لا اجرؤ معه على الافضاء به حتى اليك انت .
 وبلهجة كهنوتية قال : - حسناً يا ولدي . سأسمعك هيا الى حجرة الاعتراف
 بيد انها ترددت وتلكأت فليس لها الجرأة الكافية للافضاء بسرها المحجل تحت
 قبة الكنيسة .
 قالت : - اليس افضل .. يا سيدي الاب .. اعني .. أستطيع .. اذا
 شئت .. ان احدثك هنا بما دموني الى المحي اليك . هيا . سنجلس هناك تحت
 عريشتك الصغيرة تلك .
 وسارا بخطى وثيدة . كانت تفكر كيف سنبداً . كيف تعبر . وجلسا .
 وبعد ان فرغت من الاعتراف بدأت : - يا ابتاه ... وصمتت وقد استبد
 بها الاضطراب .
 اما الكاهن فكان ينتظر ويداه فوق بطنه متصالبتان . ولمس فيها
 الاضطراب فشجعها :
 - حسناً يا بنيتي . يجبل اليك انك لا تجرؤين على الافضاء هيا . تشجعي .
 وحزمت امرها بغتة كما يشب الجبان لمواجهته الخطر الدائم .
 - ان بي ، يا ابتاه ، رغبة في ان الد ولدأ آخر .
 لم يحب بشيء لأنه لم يفقه من كلامها شيئاً . ولم تردودحة عن الافصاح وقد
 كادت ، لشدة انفعالها ، تفقد القدرة على التعبير :
 - اني وحيدة في الحياة الآن يا ابتاه . فوالدي وزوجي على نفور وقطيعة ..
 وامي .. امي المسكينة قد قضت .. و .. و ..
 وخنقتها العبرات ثم استجمعت فلول قواها وتابعت بلهجة مخنوقة : - وذات

يوم اوشكت ان افقد وجيدي ! ماذا يحل بي لو حصل مثل هذا الشيء المريع
لاسمح الله ؟

ولاذت باذيال الصمت . كان الكاهن ينظر اليها فاغراً فاه : - حسناً .
النتيجة ؟

فرددت بلهجة لا ارادية : - اريد . ولدأ آخر .

وابتسم . لقد اعتاد دعاب القرويين السمج .

واجاب وقد ارفق قوله باشارة من يديه :

- حسناً . لا ارى في الامر مايتعلق بي فهو يخصك دون سواك . .

ورفعت اليه عينين مكسرتي الاهداب وتمتمت بلهجة بالغة التأثر : - ولكن . .

انت تعرف انه . . . منذ . . تعرف ماحدث . . . مع تلك الخادمة . . منذ ذلك
الوقت ونحن . . زوجي وانا . . نعيش منفصلين تماماً !

لقد ادهش هذا الاعتراف هو الذي تعود سماع احط الاشياء من القرويين
وخيل اليه فجأة انه خدس مارمت اليه المرأة الشابة . وتأملها بزاوية عينه وقد
فاض قلبه شفقة على آلامها الجسام .

- أجل لقد ادركت ماتقصدين . . فهمت ان . . حالة الترمل اني انت فيها
تتقل كاهلك . انك شابة حسنة الصحة . مكتملة العافية . . انه أمر طبيعي ، طبيعي
جداً يا بنيتي .

وعاد يتسم بطلاقة طبعه المرح هو الكاهن الريفى وربت بلطف ظاهر يد جان :

- ان ماتطلبين حق لك . بل من اقدس الحقوق . فالشريعة قد وهبتك اياه .

فالزواج هو المتنفذ الوحيد للفرائز كما نصت الكتب . وانت متزوجة ؟ اليس
كذلك ؟ وانت لم تتزوجي ؟ اسود عيني الزواج فقط ، ؟

وبدورها عجزت عن فهم هذه المعميات ، وما ادركت مقصده حتى تخرج

خداها واضطربت بعنف وهطلت الدموع من مآقيها !

- آه ياسيدي الكاهن ! ماذا نقول ؟ بم تفكر ؟

اقسم لك . اقسم لك ..

وخنتها الفصص .

وادهشه منها ما بدر فراح يخفف عنها :

- دعينا . لم اشأ ان اسبب لك غناء . اني امزح قليلا . هذا ليس مشهجنًا
عندما يكون القصد شريفاً . لك ان تعتمد علي . تستطيعين الاعتماد علي . سأرى
السيد جوليان .

لم تدر ما تقول . شئت ان ترفض هذا التدخل الذي لمست الآن خطره
وبعده عن الحكمة :

- اشكرك ياسيدي الكاهن .

مرت ايام ثمانية وجان تعيش في ألم وقلق .

ولحظت ، ذات مساء ، ان جوليان ينظر اليها وهما الى المائدة بشكل غريب .
وقد طافت بشفتيه ابتسامة .. كانت نظراته اليها أشبه بما كان يفعل ايام صبوته .
ثم راح يبدي حباها شيئاً من التعجب الخالي من كل سخريه . وهمس في اذنها ،
اثناء نزهتهما في المشى : يبدو اننا قد اصطلمعنا .

لم تجب اذ ان افكارها كانت شاردة مع انظارها المعلقة بخط مستقيم رسمه
خطى البارونة امها واوشك الآن ان يحكي وقد نبئت فيه الحشائش .. كما فحفي
الذكريات .. واحست جان قبضاً من التعاسة يغمر فؤادها فينبض .. لقد ادركت
الآن انها مضية في هذه الحياة .. فقد تخلت عنها الجميع

وعاد جوليان يقول : - ارجو ان اظفر برضائك ..

كانت الشمس قد غربت واضى الهواء غليلاً . وادركت جان رغبة ملحمة
في البكاء .. ففتحت ذراعها والقت بنفسها فوق صدر جوليان .

بكت .. بكت بدموع سخيصة . وادهشت فعلتها جوليان فراح ينظر الى
شعرها دون ان يرى وجهها المتحني بين طيات صدره . وفكر : انها لا تزال نجبه .
طبع فوق شعرها قبلة مكررة ..

ونمضا لا يفوهان بكلمة . وسار بها الى غرفتها حيث قضى الليل معها .
وعادت علاقتها على ما كانت عليه قبلاً الامر الذي كان يرهق جان اشد
ارهاق فهي ما تزال تحمل لزوجها احتقاراً وتقزراً الا انها ارتضت معاشرته كما
تصل الى مبتغاها فما ان تحمل حتى تعود الى الانفصال عنه .
بيد انها لم تلبث ان وجدت في مداعبات زوجها سمة لم تعهد لها فيها من قبل .
كان يتصرف حباً لها تصرف عشيق لا زوج مطمئن الى ممارسه حقه .
ومكنت مشدودة ازاء ما كان يعتمد اليه من اساليب تحول دون اخصاب
علاقتها وإقارهما .
وسألته ذات يوم ابضاحاً فاجاب : - ولكن .. كي لا نحمل .. وانتفضت
صارخة : - لم لا تريد اطفالاً .
وعقدت الدهشة لسانه : - ماذا تقولين ؟ لاريب في انك جننت ؟ آه !
ولكن كلا ، مثلاً ، ولد آخر ! ان لنا في ولدنا كفاية ! ولماذا تريدن جيشاً من
الاطفال ؟ لاشغال الناس واتفاق المال ؟ ولد آخر ! شكراً لك ..
وقبضت على ذراعه وقبلته ، وغمرته بحنانها ورجته بصوت خفيض : - آه .
اتوسل اليك دعني اصبح اما مرة ثانية .
واستشاط غيظاً كأنها جرحته :
- حقاً انك تفقدن الصواب ! دعينا من حماقاتك ! ارجوك !
ولاذت بالعت و قد عزمت على بلوع مأربها بالحيلة
غير انه كان دائماً حذراً مسيطراً على اعصابه ففشلت كل محاولاتها فلم تر بداً من
العودة الى الاب يسكو .
وما لها قادمة حتى هتف : - حسناً يا سيدتي الجميلة !
وكانت به رغبة الى معرفة ما آل اليه حالها :
وجاءه جوابها فوراً وقد تخلت من حباؤها الملازم :
- ان زوجي راغب عن الاولاد !

واستدار اليها الكاهن : - وكيف كان ذلك ؟
كان شديد الاهتمام ، متأهباً للخوض في الموضوع بتطفل الكهنه وحب
استطلاعهم شؤون المضجع ، هذه الشؤون التي تعطي للاعتراف متعة خاصة .
وبالرغم من حزمها ، تلجلج صوتها وهي تشرح :
- ولكنه . . يرفض . . يرفض باصرار ان يجعلني اما .
وفهم الكاهن . ان مثل هذه الاسرار لا تدق عن ادراكه . وشرع يسأل
المرأة عن التفاصيل الدقيقة السرية بنهم رجل طال به الصيام ! . .
وفكر دقائق قليلة ، وبصوت بالغ الهدوء كما لو كان يتحدث عن الموسم
المرتقب ، رسم لها خطة بارعة مستوفية شروط الدقة والحذر : - ليس لديك ،
يا بني العريضة ، سوى وسيلة واحدة . وهي ان توهميه انك حامل . وليس له ان
يتأكد من كذب زعمك حتى تكوفي قد حملتي حقاً !
ونصرت حتى منبت شعرها . بيد انها اعترضت :
- وهب انه لم يصدقني .
لم يكن بالكاهن جهل بالاساليب التي يقتاد بها الرجال ويملكون : - اعطني
عن ذلك في كل مكان . قولي لكل الناس انك حامل . وسينتهي به الامر الى
الاعتقاد وهو نفسه بصحة مزعمك .
واضاف مبرراً فعلته : - انه حق من حقوقك . فلولا انجاب الذرية لما سمحت
الكنيسة بالاتصال بين الرجال والنساء !
وطبقت خطة الكاهن البارعة بحذافيرها . ولم يمض اسبوعان حتى جاءت تعلن
لجوليان انها تنتظر حدثاً سعيداً !
وقفز مذعوراً : - هذا غير ممكن . غير صحيح !
واوضحت له دلائل ذلك . فلم يلبث ان افرخ روعه وقال
- بخ ! انتظري قليلاً وسترين !
كان كل صباح يتوجه اليها بالسؤال : - ماذا ؟

فبأنيابه جوابها : ... لم يطرأ شيء بعد . اني واثقة بما ذهبت اليه .
وبدأ يقلق ، ثم يغضب ، وأخيراً أدركه اليأس فكان يردد : - لا اكاد
افهم ! لا اكاد افهم . اني ادفع حياتي ثمناً لمعرفة كيفية حدوث هذا الشيء .
وخلال شهر كان الخبر قد ذاع في كل مكان فعرفه القاضي والداني ما خلا
الكونتس جيلبرت .

وانقطع جوليان عن زوجته وكان يردد غاضباً مشيراً الى الجنين : - هو ذا
من لم نكن راغبين في قدومه !

وعاد يائساً يقضي ليلاليه في غرفة زوجته .

وتحقق ما حدسه الكاهن تماماً . وحملت جان !

وغررتها من جراء ذلك موجة غبطة مقعدة مقيمة فكانت تسرح في الآفاق
ناظرها شاكرة للعناية صنيعها مقرة بجميلها عليها . وكانت ، كل مساء ، تود باب
مخدعها وقد عزمت واقسمت لتحتفظن بطهارتها حتى آخر نسمة من حياتها
وشمرت بالسعادة . وقد ادهشها كيف استطاعت ، بعد فقدان امها ، التخلص
من آلامها بمثل هذا الحزم وكان قد خيل اليها ، اول الامر ، انها لن تجد عن فراق
امها عزاء ولا سلوى .

ولكن ها هو جرحها الناعر يندمل اندمالاً في فترة لا تتجاوز الشهرين عدداً .
لم يبق من احزانها الماضية سوى ستار خفيف لطيف يجلبب حياتها كما القناع وجهه
الحسناء . سيشب ولدائها بدءاً . وتأخذ هي طريقها الى الهرم فالشيخوخة
وسيمحضانها حجباً . فلا تهتم بزوجها ولا تأبه له .

وفي نهاية ايلول زارهم الاب بيكو مرتدياً جبة جديدة لا تحمل الا بقع اسبوع .
واحد وكان برفقته كاهن شاب نحيل ، بالغ القصر ، فخم الكلام ، ذو عيّن محاطتين
بها التين سوداوين غائرتين في وقبيهما مشعتين بروح عنيف وخلق وعر
وقدمه اليهم : - انه خلفه الاب توليباك .

اما الاب بيكو فقد نقل راعياً لبلدة كودرفيل .

احسنت جان حزناً حقيقياً لفراق كاهنها الشيخ . فوجهه هـ ذا الرجل الطبيب كان قوي للصلة بذكرياتها كزوجة شابة فهو الذي عقد قرانها وهو الذي نصر ولدها بول وهو الذي دفن امها البارونة . انها تحبه لانه صريح مرح .

بالرغم من رفعة المرتبة التي ظفر به الاب بيكو لم يبد مرحاً قال : - ان هذا الامر ارهاق لي باسبديتي الفيكونتس ها ثمانية عشر عاماً قد صرمتها في هذا المكان . آه . صحيح ان هذه المقاطعة لا تغل شيئاً كثيراً .. والرجال .. رجالها لم يعد لهم كبير اهتمام بقضايا الدين .. والنساء .. كما ترين ليس سلوكهن على ما ينبغي .. والفتيات لا يتزوجن الا بعد ان يرتكبن حماقات تذهب بعفافهن . ان زهور البرتقال قليلة الخطورة في هذه المقاطعة .. مع ذلك فانا احبها .. .

وبدرت من الكاهن الجديد اشارات غت عن صبر يكاد يفرغ وتخرج خداه وهو يقول : - سيتغير كل ذلك في عمدي !

كان ، في مسوحيه الرثة النظيفة ، كطفل غر حائق !

واستمر النقاش بين رجلي الدين فترة اخرى كان يسدي اليه الاب بيكو نصائح غالبية : ه ينبغي له ان يعمل على تزويج كل فتاة تأتية متضخمة البطن قليلاً . اما ان يحاول منعها عن فعل ما يؤدي الى تضخم البطن فامر لا سبيل اليه وخير ما يعمل عليه لاقناع مرتكبي الفعلة برتق الفتى بالزواج من الام العازبة .

واستندنا بالذهاب . وعانق الكاهن الشيخ جان فاجهشت بالبكاء .

وزارهم الكاهن الجديد في الاسبوع القادم ثم عاد بعد ذلك عند ما لاحظ ان جان لا تذهب الى الاحتفال الديني ايام الاحاد . واقنعها بسهولة بوجهة نظره مبرهنات لها انها ، هو وهي ، رأس المنطقة وعليها ان يتكاثفا كيما يستطيع هو اداء رسالته الدينية . كان يكلمها بحماسة واثمان عميقين ما لبث ان جذبها بها اليه فاضعت تقوم بشعائر دينها خير قيام .

كان هذا الكاهن الصارم لا ينفك يقوم ، في مواعظه ، بحملات حامية الوطيس ، شديدة الوطأة ، على الشبان والشابات الذين ينقادون الى مزالق الطيش والغواية .

كان شديداً في حكمه على الفتيات الخاطئات فارضاً عليهن اشد الفصاص بغية
ردعن عن حماقتن والعودة بهن الى خطيرة التقوى والصلاح والعفاف . ولم يكن
ليتورع عن اعلان اسماء من يلحظ منهم سيراً معوجاً او انحرافاً عن السراط القويم .
واستمر في خطته الغنية تلك حتى امتنع اكثر الشبان والشابات عن ارتياد
كنبسته . اما جان فقد توثقت عرى الالفه بينها وبين هذا الكاهن الشاب الذي لا
يخشى في الحق لومة لائم فكان يأتي كل خميس فيتغدى في القصر ثم ينهضان بعد
الغداء فيسيران في المشى الذي كان للبارونة متنزهاً يأخذان باطراف احاديث
دينية تذهلها عن كل ما عداها فيحدثها عن المسيح والرسل والانبياء ، وكأنها
يتحدثان عن اشخاص يشدهما اليهم رباط معرفة وثيق .
لقد استطاع هذا الكاهن المنحوس ان يعود بجان الي خطيرة الدين بعد
طول الفلال .

اما جان فكان يعامل الكاهن باحترام عظيم مردداً دون انقطاع : - لشد ما
يعجبني هذا الأب .

وكان لا يألو جهداً في الاعتراف والمناولة .

ولم يكن جوليان ، في هذه الايام ، لينقطع يوماً عن زيارة آل فورفيل فهو
يخرج الى الصيد برفقة الزوج الذي لم يعد له عن رفقته غنى ، او يرافق الزوجة في
نزهة على الجياد رغم رداءة الجو . اما الكونت فكان يعلق على هذه النزاهات قائلاً :
- انها مجنونات بمجواديهما . ولكن هذا العمل مما يجلب السرور الى قلب امرأتي .

وعاد البارون الى القصر حوالي منتصف تشرين الثاني كان المرم قد ظهر على
سمات وجهه فتغيرات وخبث جذوة الشباب فيها ، وهو الغارق ابدأ في حزن اربد قائم
بلغ منه احماق وجدانه . وكان الحب الذي كان يحمله لاهنة قد ضؤل وكاد يضمحل
فكان تلك الاشهر من الحزن المقيم قد تركت قلبه وقد تبدل شعوره وتعبجرت
عواطفه .

لم تحدث جان بافكارها الجديدة وصلاتها الجمية مع بالاب توليباك وحماستها.

الدينية المستجدة غير أنه ما ان التقى به المرة الاولى حتى احس نحوه كراهية لا غبة .

وعند ما سألت ابنته رأيه في الكاهن ذلك المساء قال : - هذا الرجل؟ كأني به احد رجال (محاكم التفتيش) (١) انه خطر هذا الرجل !

ولما اطلعه الفلاحون على قسوة الكاهن وصرامته ومحاربتة للأغرائز الانسانية الطبيعية لم يسمعه الا الانقيار ضده بغضب لا هوادة فيه وكراهية لا قرار لها .
والبارون من اوثك الفلاسفة القدامى ، عباد الطبيعة الذين يدوبون وجداً امام كائنين يتعدان فلا يسجدون الا لاله واحد هو الطبيعة بما فيها ، ويشورون ضد المعتقد الكاثوليكي الذي يصور الله برجوازي النزعات ، منتقماً كالجزويت ، جباراً كأنه الطاغية الفشوم ...

اما لهم فهو تلك القوة التي جمعت العالم في واحد : واجب الوجود ، لا حدود تحده ، قادر على كل شيء : الخلق والنور والحياة ، الارض والنباتات والصخور ، الافكار والانسان والحيوان ، النجوم والكواكب والله والحشرات في آن واحد! يخلق لأنه مخلوق ، اقوى من الارادة ، ابعد مدى من الفكر ، منتج دون هدف ، دون غاية بكل ما في هذه الكلمات من معان متناهية .. تبعاً لمقتضيات الصدق ، ولدورات الشمس التي تنير العوالم .

ان الله يشمل كل الاجرام ، والفكر والحياة عنه ينبعثان كما تنفتح الزهرة وتبرز الثمرة من الشجر .

الله ! انه هذا النظام الخالق المخلوق الذي يهيمن على الكون المترامي الاطراف الغير المحدود ، انه نظام يحار العقل امام دقته ، وتسجد النفوس أمام خلوده ! انه نظام غير عاقل الا انه يبدع أروع مما تبدع العقول : لأنه هو الذي ابدع تلك

(١) محاكم التفتيش (Tribunal de l' Inquisition) هي هيئة عدلية دينية اشتهرت في اسبانيا ، خلال القرون الوسطى . باساليب التمزيب الجذمية التي ابدعتها للأرهاب اعداء الدين حتى ضرب امثال بقوتها وفظاعة اساليبها .

المعقول ! انه علة كل شيء ، وكل شيء ، علة . فلولا المنظم لما كان نظام ، ولولا الخلق لما وجد خالق !

والانسان ، بنظر هذه الفلسفة ، القاعدة العليا والقانون الاسمي ، انه عمل الله بل أقدس اعماله ، فهو الذي يعبر عن قدرة « الكائن الاسمي » ويتمم ارادته تلك الارادة الخالدة الغير الواضحة المرامي كل حين ، والباقية لانهول ولا تزول .
وشرع البارون بشن حرباً لاهوادة فيها على هذا الكاهن الصارم ، المحترق سموه ابرار الطبيعة وروعة قوانين الحياة !

واسم احزن جان مابدر من ابها حبال الكاهن فكانت ترجوه كيا يكف عن حملته العنيدة ضد الكاهن الشاب ، كما كانت تصلي ضارعة الى الله ليلهمه التؤدة والهوادة . الا انه كان دائماً يجيها : - لا بد من مكافحة مثل هؤلاء الناس . انه حقنا وواجبنا . فهذه الطغمة غير الانسانية لا بد من قطع دابرها وسحق عنقوانها . ويردد وهو يز رأسه الابيض اللمة : - كلاس . ليس هؤلاء بشرأ . لقد ختم على قلوبهم فهم لا يفقهون شيئاً . اي شيء . انهم يحبون في حلم واحد يـوهون على انفسهم وعلى الناس . انهم (اعداء الطبيعة) . انهم لمجرمون !

كان متوتر الاعصاب ، بصرخ : اعداء الطبيعة فكان هذه الصفة اهانة لهم وسبة . ولم يفت الكاهن ان له في القصر عدواً عنيداً . بيد انه ، رغبة منه في ان يحافظ على سيطرته على ربة القصر ، مال الى القصد في حملته والحد من غلوائه وهو على مثل اليقين من ان النصر الاخير حليفه ولا ريب .

ولزمته فكرة ثابتة : فهم عرى العلاقة الآتية التي تربط جوليان بجلبرت . وكان قد اطلع على ذلك بطريقة ما .

ومشى الى جان يوماً . وبعد ان امضيا الساعات في حديث ديني فلسفي ، طلب اليها ان يتكاتفهما الاثنان لقطع دابر الشر واستئصال شأفة الفساد المترعرع في صميم العائلة ، بغية انقاذ نفسيين اتبعنا سبل الفواية وشططنا عن النهج القويم وقد اصبحنا على منزلتي خطر فآغر الفوهة كآشر الشدق بعيد القرار ! .

لم تفهم جان شيئاً وودت لو بفصح وبيين . فجاءها جوابه مر اوغاً مطاطاً :-
ان الساعة لم تدق بعد . وسأصل بك مجدداً . وانطلق الى شأنه لا يزيد على معمياته
اي ابضاح .

كان الشتاء القارس المطير يردد آخر انفاسه .

وعاد الكاهن في زيارة ذات يوم . وشرع يردد على مسمعي جان الغازه
ومعمياته . الا انها ، هذه المرة ، لم يفتها مرماه وراءها ما قصد اليه . فلم يتردد
وشرع يشرح لها بوضوح وصراحة قائلاً : - انه لو اوجب مضن هذا الذي اجد
نفسي مضطراً الى الاضطلاع به حبالك . الا انه لا مناص من ذلك . فوظيفتي
الدينية تعتم علي ذلك فلا يصح ان اتركك تجهلين شيئاً قد تستطيعين الحلولة دون
استشراء شره . اعلمي يا سيدتي ان لزوجك علاقة آتمة بالسيدة دي فورفيل ! واهنت
رأسها مؤمنة وقد خذلتها قواها .

وعاد الكاهن يقول : - ما تراك فاعلة ؟

وقتمت حينذاك : - ما ذا تريدني ان افعل يا سيدي الاب ؟

وألقى جوابه اليها فكان عنيفاً واخزاً :

- اممي بنفسك اذاً في أنون هذا الحب المحرم !

وشرعت ، بصوت مخنوق ، تبكي : - ولكنه خافني مع خادمتي .. انه
لا يصغي الي ، انه لا يصغي الي ، انه لم يعد يحبني ، واذا ما ابدت له أشياء من
نصرفاته فهو لا يتورع عن اساءة معاملتي ، فما الذي استطيع فعله حباله ؟

وصرح الكاهن لاجئاً اذناً تسرق السمع :

- اذاً فانت تذهنين ! انك تخضعين ! انك تقرينه على ما يرتكب من آثام !
فالجرمة تحدث على مشهد منك فتلوين عنها عنقك وتقبلين بوجهك ! فكأنها لا تعنيك
أأنت زوجه !؟ أمسيحبة انت ؟! أوأست أمأ ؟! سيدتي انك بعرف الدين ، لشريكة
في الاثم متناسبة للخطيئة !

ونشجت : - ماذا تريدني ان افعل !؟

فأرغى : - كل شيء ما خلا الاغضاء عن هـ هذه القعدة ! كل شيء اقول لك !
هجره .. اهربي من هذا المنزل الرجس ، ابعدي بنفسك عن بؤرة القمامة !
وقالت بانكسار : - ولكني لا املك ما لا ياسيدي فضلاً عن اني افتقر الى
الجرأة .. ومن ثم .. ليس لدي الادلة الكافية الدامغة ضدهما ، فكيف استطيع
الاقدام على مثل هذه الخطوة دون دليل مادي قوي بين ؟ ليس لي الحق في ذلك .
ونهض الكاهن مزججراً مزيد الشدق :
- ان الجبن والتخاذل يسديان اليك هذه النصائح ويمدانك بهذه الذرائع
باسيدي العزيزة ! خلتك غير ما عرفت الآن ! است خليقة بنعمة الله وغفرانه !
وسقطت فوق ركبتها : - آه ! ارجوك ! لا تدعني ! فف بجاني وخذي بيدي !
ولفظ باقتضاب وقسوة : - افتحي عيني السيد دي فورفيل الزوج المهدوع
فعليه تقع تبعة استمرار هذه العلاقة الاثيمة .
وتركتها قولة الكاهن ترنجف . - ولكنه يقتلها ياسيدي الكاهن وأكون
قد سببت بفعلتي تلك جريمة قتل مزدوجة ! آه ، لا أقوى لا استطيع !
ورفع الى السماء راحته كأنه يستمطر عليها امنة السماء . واستطرد وقد عصفت
به غصبة رغاء :
- ظلي اذاً في الوحل تتمرغين وفي الجريمة تلغين ! انك اشد اجراماً منها .
انك الزوجة المتغاضبة عن خلق زوجها ! انك تمهدين لسبل الاثم ! لم يعد لي ما افعله هنا !
وانطلق متفاماً للفضب حتى ان جسده كان يذتفض انتفاض المقرور .
ولحقته تكاد تضيع صوابها ، مستعدة للتسليم ، للعمل بما يشير ، متأهبة لقطع
العود على العمل باشارته الا انه استمر في سيره الحديث فائض التقاطيع بالتقزز
والاحتمار ملوحاً بمظلمته الزرقاء التي تناهز قامته طولاً .
ولمح جوليان واقفاً وراء السور يدير بعض الاعمال الزراعية فانعطف الكاهن
يساراً كي يتعاشى المرور برب القصر وكان لا يفتأ يردد : - دعيني ياسيدي ليس لدي
ما أقوله لك .

ولمح في طريقه جماعة من الصبية قد نجمهروا ينظرون الى شيء .. عين ببالغ من الفضول وكان البارون معهم لا يقل عنهم اهتماما . كانوا متعلقين حول بيت الكلبة «نيرزا» .. وما ان لمح البارون الكاهن قادماً من بعيد حتى انصرف متحاشياً الالتقاء به . ونجته .

وخاطبت جان الكاهن ضارعة : - هبني بضعة ايام باسيدي الكاهن وعد الى القصر . وسأطعمك على ما اكون قد قمت به وسندرس الموقف سوية على ضوء التطورات .

وكان قد بلغ في عدوه جماعة الصبية المتصايحين . ودنا ونظر : انها الكلبة تلد ! كانت قد الفت الى النور بخمسة جراء وما زالت في سبيل وضع آخرين . وتتطاوات بجسمها واذ بها تلقي الى الدنيا بجرو جديد .. وصحب ذلك لفظ طروب من الصبية المتعلقين حول الوالدة النفساء !

وتسمر الاب توليباك اول امره مهوراً دهشاً ثم اجتاحت غضبه عاصفة فتناول مظنته وراح يمين في الصبية ضربا وصفعا وانهاراً فانقرط عقدم وتفرق شملهم انطلقوا في كل اتجاه متصايحين مولولين .

واندفع ، في ثورة غضبه الجنونية ، نحو الكلبة الوالدة وجرائها حديثي الولادة وراح يثخنها بمظنته حتى تحطم المقبض في يده فعمد الى قدميه يركلها وصغارها بهار كلاً لاهوادة فيه ولا رحمة حتى اهلك الام وانخن في الصغار .

واطلقت جان ساقبها المريع أمام المشهد الوحشي الفظيع ولم يشعر الكاهن الا وبدا قوية تقبض خنافة ثم أتته صفة شديدة اطارت قبعتها الثلاثية القروث واحتملته يد البارون الصارمة وجرتة حتى السور وقذفت به الى الطريق .

وعندما رجع البارون وجد ابنته قد خفت الى الجراء الصغيرة فركعت امامها وراحت تلتقطها وتضعها في ذيل ثوبها .. واندفع اليها مسرعاً وقال : - هذا هو الرجل ذو المسوح .. هل عرفته الآن ؟!

وكان بعض المزارعين قد نجمهروا وقد شدهوا هذه الوحشية التي بدرت من رجل الله !

ولم يمش من الجراء سوى اصغرها فقد اخضر واه هرة والددة القموه ثديها .
وأبي البارون الا ان يطلق عليه اسم « ماساكر » - مذبحه -

ولم يرجع الكاهن الى القصر بعد ذلك ، وفي الاحد التالي اطلق من فوق منبره
اتهامات خطيرة وتعريضاً جارحاً بالقصر وسكانه ملجأ الى علاقات جوليان الآثمة
بالخادمة روزالي والكونتس جيلبرت . وفارت ثائرة الفيكونت جوليان الا ان
خشية الفضيحة خنقت انفاس هذه القضية .

واستمر الكاهن الغضوب يندد بالقوم في مواعظه معلناً ان يوم الله قد دنا
وانه لن يألوا جهداً في ازالة ضرباته القواصم باعدائه واعداً كل خلق قويم .

ولم يقف جوليان مكتوف اليدين حيال الكاهن الساخط فعمد الى رسالة
سطرها الى المطران بلهجة شديدة ولكن باحترام شديد نال الكاهن على أثرها
تكريماً من رئيسه فلم يسعه الا الصمت والاستكانة .

وكان الناس يلتقون به بتنزه منفرداً يسير بخطى واسعة كثيباً شديداً لانتقباض
وكثيراً ما ملحه جوليان وجيلبرت اذ كانا يقومان بنزهتهما على جواديهما . فكان يظهر
لها أحياناً في أقصى الحقول كنقطة سوداء أو منهكاً في مطالعة كتبه الدينية في
أعمق الاودية الضيقة . فكانا يلويان عنانها تفادياً للقاءه .

كان الربيع قد هلّ على الكون فاذا كت حياه جذوة الحب في صدري
الماشيق فكان الواحد منها لا يتورع عن الالتقاء بنفسه بين ذراعي الآخر تارة هنا
وطوراً هناك ، في كل نجوة يجدها أثناء نزهتهما .

ولما كانت اوراق الشجر ما تزال صغيرة غضة ، والاعشاب رطبة فلا يستطيعان
التوغل في الادغال او اقتحام الارض تحت ستر الاعصان كفعليهما ايام الصيف ، لذا
كانا يلجآن معظم الاحيان الى أحد اكواخ الرعاة المهجور منذ الحريف والقائم على
رابية « فوكوت » .

وهناك يقيان في نجوة من العيون المتطفلة يعبان كؤوس هواهما الآثم عباً
فالرابية تطل على كل ماجاورها ولا يمكن لأحد مفاجئتهما وهما فوقها .

اما جوادهما فكانا مشدودين في منعطف يخفيهما عن الانظار ينظران بهي
الساعة التي ينك الحب فيما جسدي صاحبهما فيتملان ويكتفیان !
وفوجئا ، ذات يوم ، وهما يغادوان الكوخ بعد ساعة حب قضياها ، فوجئا
بالاب نوليباك محتباً في نبات (الجونك) البحري المريض الورق .
قال جوليان : - علينا ترك جوادينا في الوادي من الآن فصاعداً فهو يستطيع
اكتشاف خلوتنا بسببهما . وهذا بعد ذلك الى شد الجوادين في احد منحنيات الوادي
الملتف الاشجار .

وكانا عائدین ذات مساء الى القصر عندما لها الكاهن خارجاً منه فافسح له
الطريق وحييا دون ان يرفعا اليه انظارهما ، ولم يلبث فلقهما لرؤيته ان تبدد .

كانت جان جالسة الى الموقد تقرأ ذات اصيل عندما لحث الكونت دي فورفيل
يدخل مستحث الخطى ، شديد الاضطراب ، حتى لقد خيل اليها ان كارثة ما قد
وقعت او هي موشكة الوقوع .

ومشى اليها شديد القلق وما اقترب منها حتى ظنته قد خوط في عقله . كان
يرتدي قبعة عريضة لاتصاح للخروج وبدا بشاربيه الاشقرين شديد شحوب الوجه
وكانت نظراته ضائعة وعيناه تدوران في وقبهما .

وقال متلاحق الكلمات :- زوجتي .. اهي هنا ؟ البس كذلك ؟
واجابت جان وقد اوشكت ان تفقد صوابها :- ولكن .. كلا فانا لم ارها
اليوم اطلاقاً ..

وانحط بجسمه عندئذ كائن ساقيه قد حطمتا ورفع قبته ومسح جبهته بمنديل
مرات عدة بمحركة آلية ...

ونفض فجأة كما جلس ودنا من المرأة الشابة وقد مد ذراعيه نحوها وففر فاه
فكأنه يوشك ان يسر اليها بالام مبرحة .. بيد انه سمر في مكانه فجأة وحدها
بنظرة جامدة ولاك كلمات كأنها الحشرة :

- ولكنه زواجك .. انت الاخرى ..
وانطلق نحو البحر لابلوي على شيء ..
وعدت جان وراءه كيما توقفه ونادقه ، ورجته وقد سحق الملع قلبها .
وفكرت . - انه يعلم كل شيء ! ماتراه فاعلاً ؟ آه ينبغي الا يجدهما ! ..
وعجزت عن اللعاق به وكان لا يفتأ منطلقاً بكل قواه وقد أصم اذنيه عن
توسلها ورجائها . كان مندفعاً غير هباب واثقاً من الهدف الذي اليه يسير .
واجتاز الخندق وعبر بالنباتات البحرية قافراً بخطى مارد جبار حتى بلغ
الشاطئ الصخري .
ووقفت جان فوق الرابية تتبعه بانظارها حتى اختفى فعادت ادراجها الى
البيت وقد جثم فوق صدرها فلق مربع .
وانعطف ميئاً وراح يعدو ، كان البحر الزاخر يهدر بامواجه والغيوم السود
المريضة تتلاحق متراكضة بجنون فتعبر فوق الرؤوس ثم تتلوها غيرها فتغدق فوق
الشاطئ . مزنها المنون . . وكانت الريح الزرع العاتية تعصف فتحني النباتات
الغضة السوق وتحمل عصابات الطيور البيض كأنها الموج الدافق .
وبلغ وادي فو كوت الفاجر الشدق . لم يكن ثمة سوى كوخ الرعاة بالقرب
من حظيرة خراف خاوية . ولمح جوادين مشدودين الى حاجر البيت . - ماتراهما
بخشيان في هذا الاعصار ؟
وما ان وقع ناظراه على الجوادين حتى استلقى فوق الارض وشرع يزحف
على يديه وركبتيه كأنه مارد اسطوري بجسمه الملتصق وحلاً وقبعته المصنوعة من
وبر الحيوان . واستمر يزحف حتى بلع الكوخ المنفرد واختفى تحته كي لا يتمكنوا
من اكتشافه من فرجات الخشب .
واضطرب الجوادان لدى رؤيته ، وهدا الى رباطهما فقطعه بمديه كانت مسلوطة
بيده . وعصفت الريح فذعر الحيوانان وانطلقا والبرد يجلبدهما كأنه السباط اللاذعة
كما كان يقرع - طع الكوخ النقال الذي يشبه العربات - فكان يتر فوق عجلانه .

ورفع الكونت جسمه فوق ركبته والصق عينه في أسفل الباب ونظر الى الداخل .

لم يبد حراكاً . كان كأنه ينتظر . ومرة فترة ليست بالقصيرة وهو جامد كأنه التمثال قد من صخر اصم ! ونمض فجأة على قدميه وبحركة جبارة او صدى القفل الذي يغلّق باب الكوخ من الخارج ثم تناول هذا العنق من جانبيه بقبضتين فولاذيتين وراح يهزه هزاً عنيفاً كأنه يروم تحطيمه واحنى قامته المتينة البنيان ويجهد يفوق طاقة البشر دفع بالكوخ ومن فيه نحو المنحنى السريع .. ودفع .. ودفع كأنه ثور هائج امسى الدم بصره ..

وعلا صراخ العاشقين من الداخل وشرعا يضربان الجدران بقبضاتهما وهما لا يدركان حقيقة ما يحدث لهما .

وما بلغ بالكوخ اعلى المنحنى حتى افلته ودفعه دفعة اخيرة بجماع قواه فاندفع مندحرجاً فوق الصخور المتلاحقة حتى الشاطئ . وكانت سرعته في هويته تزداد بازدياد تدرجه فكان يضرب الصخر بجوانبه فيقفز ويشب ويتعثر .

وطارت إحدى عجلاته فانحطت على احد جوانبه ثم عاد الى تدرجه كأنه كتلة ضخمة او بيت قد افلتمته عاصفة هوجاء والقت به من عل ... واستمر في تدرجه حتى بلغ اخيراً نهاية المنحنى فوثب من فوق حافته الصخرية وهوى الى الاعماق فانسحق انسحاق بيضة هشة !

وكان ثمة منشرد فقير رآه في انحداره القاتل فلاحقه بانظاره حتى استقر في اعماق الهاوية . ولم يجرؤ المنشرد على الدنو منه مدفوعاً بحبيطة اهل الريف ولكنه خف الى بعض المزارع المجاورة وأعلن عن الحادثة .

وأسرع جمع من الناس . ورفعوا الحطام وجدوا امام الجثتين . فكانتا مهشمتين نهشياً مربعاً وقد جلتها الدماء . اما الرجل فكانت جمجمته مفلوكة ووجهه محطماً أروخ نخطيم . اما المرأة فقد تدلى فكها لصدمة كسره كما كانت أعضاء الاثنين مهشمة رخوة كأنها خالية من العظام .

وتعرف عليهما الناس رغم كل مالحقهما من تشويه وراحوا يتساءلون عما أدى الى هذه الجريمة النكراء . قالت امرأة . - من تراه سبب هذه السقطة الفاتلة؟ ونكلم المتشرد :- لقد احتميا بهذا الكوخ هرباً من العاصفة فما كان من الاعصار الا ان دفع بالكوخ فتردى في الهاوية كما ترون ..

ثم زعم انه هو نفسه كاث ينوي الاحتماء بالكوخ الا ان رؤية الجوادين المشدودين الى حاجزه افهمته ان المكان غير شاغر ثم أردف بلهجة راضية :- ولولا ذلك لكنت انا الضحية ... واجاب صوت :- لو تم ذلك اكانت المصيبة أخف وطأة .. واحتمد المتشرد غيظاً : لماذا؟ ألاني فقير ومهاغبان ؟ وأشار الى الجنتين المعزقتين بطرف عكازه الاعوج :
- انا جميعاً متساوون أمام الموت .

وكان فريق آخر من الفلاحين قد خف الى مكان الفاجعة وراحوا ينظرون بطرف أعينهم مجبين وقلق ثم تشاوروا فيما يفعلون وقرروا حمل الجنتين الى القصر طمعاً بالمكافأة . وشدت عربتان حملتا الجنتين وانطلقتا مسرعين تهترآن اهتزازاً عنيفاً تضطرب له الجنتان المهشمتان .. ماتبقى من هذين المخلوقين الذين جمعها حب آثم محرم ثم جاء الموت ففرق بينهما الى الابد فلا يلتقيان ...

أما الزوج المنتقم اروع انتقام وافسأه فما ان رأى الكوخ الحشبي يندرج منقضاً فوق المنحدر الصخري حتى أطلق الريح ساقبه بكل ما أوتي من قوة لا يعبأ بسياط المطر وهبات الاعصار . وبلغ بيته من غروب الشمس لا يدري كيف يمكن من بلوغه .

وكان الخدم المذعورون بانتظاره فاخبروه ان الجوادين قد عادا دون فارسهما وقد تبع جواد جوليان الجواد الآخر .

وبصوت منقطع النبرات اصدر الكونت أوامر مشددة الى الخدم للاسراع والبحث عن الفارسين الضالين فقد يكون حادث ما قد دهمهما في مثل هذا الجو الهيف .

وذكراً الرماد في العيون انطلق هو الآخر للبحث عنها الا انه لم يلبث ان
اختبأ تحت اكمة راح يشرف منها على الطريق التي ستصل منها جثة هادمة او في
نزاعها الاخير او على الاقل مشوهة الوجه الى الابد .. انه يرقب هذا المصير للمرأة
التي ما يزال يحبها بوحشية !

وسرعان ما مرت على مرمى نظريه عربة تحمل شيئاً غريباً . وتوقفت أمام
النصر . ثم دخلت . انها هي . وسمرت في مكانه غصة مخيفة ، خوف هائل من
الوقوف على الحقيقة . وجد لايجرك ساكناً ، ولبت ملتصقاً بالارض كأنه أرنب
رعديد يرتجف لاقبل نائمة ..

ولعله أقام على مثل هذه الحال ساعة او ساعتين . ولم تخرج العربة ، فقال في
نفسه ان زوجته تلفظ أنفاسها الاخيرة وملأته فكرة رؤيتها من جديد رعباً جعله
يخشى اكتشاف مخبئه فيجبر على الدخول ورؤية وجهها المحتضر . وخطر له ان ينطلق
في قلب الغابة هارباً .

وفكر على حين غرة انها قد تكون بحاجة الى مساعدة ما وليس لها من يقوم
لها بذلك فعاد راكضاً يكاد يفقد صوابه .

وصادف وهو داخل البستاني فهتف به :- ماذا ؟ فلم يجزؤ الرجل على الجواب .
وزبحر السيد دي فورفيل :- أمانت ؟
ونغمم الرجل واجفاً :- أجل ياسيدي !

واحس راحة قصوى ، وعبر عروقه وعضلاته هدوء مفاجئ وتسلق بخطى
ثابتة درجات السلم العريض . وبلغت العربة الثانية قصر (بوبل) ولحنها جان عن بعد
ورأت الفراش وادركت ان جثة زوجها ترقد فوقه . وفهمت كل شيء . وكان تأثرها
بالغا درجة جعلتها تنحط فاقدة وعيا .

وعادت الى صوابها بعد فترة لاتدري أطال أم قصرت والفت اباهاميسك برأسها
بين راحتيه ماسعاً بالحل جبينها وصدغها . وتودد في سؤاله :- اعلمت ؟ فغمغمت :-
أجل يا ابتاه .

ولم تقوَ على النوض . لشد ما كانت منهوكة مثأله .
وفي المساء ذاته اجهضت ... طفلاً ميتاً ... بنية كما كانت تود . لم تشهد دفن
جولييان ولم تدر عن ذلك شيئاً . ولحظت بمد يوم أو يومين ان الحالة ايزون في
القصر . وتذكرت ان الحالة العانس قد حضرت يوم وفاة البارونة ثم اختفت
وهاهي الآن تظهر من جديد .

الفصل الرابع

أقامت جان معتكفة في غرفتها ثلاثة أشهر . ولقد أصبحت من الضعف والشعوب بحيث تنكرها العين . غير انها مالبثت ان استعادت حيويتها شيئاً فشيئاً وكان والدها والحالة ليزون قد لزمها في القصر لا يرحان .

واورثتها الصدمة مرضاً عصبياً . ولم تسأل ابداً عن الملابس التي رافقت وقوع الفاجعة . ولماذا تسأل ؟ ان كل الناس يزون في الحادث قضاءً وقدرآ . اما هي فتعرف الحقيقة القاسية . وهي تحتفظ في أعماق صدرها بهذا السر الهائل الذي مازال يعذبها مرير العذاب : لقد نقت في أعماق نفسها تلك الساعات بحروف من نار : زيارة الكونت . خروجه . العربية المتراقصة بالجثة المشعة !

بالفرابة ! انت ذكريات لطيفة تعاودها ... ذكريات سويغات حلوة ، على قصرها ، فضتها بين ذراعي جوليان .. وأوشكت ان تغفر له كل ما ارتكب من اثم وكل ما سبب لها من عذاب مضم وألم مبرح . وحتى خيائنه ، ضعفه ، الخطاط خلقه ، كادت تمحوها له من صفحة ذكراه .

ولم تدم طويلاً في اجترار هذه الذكريات الاليمية بل سرعان ما انصرفت بجماع عواطفها الطمينة الى ولدها فبعضته حباً يوشك ان يكون عبادة وحذاكل من في البيت حذوها ، فالاب والحالة ليزون وجان غدوا لبول الصغير عبيداً اقناناً يملك منهم الرقاب ويتصرف بهم حسب أهوائه . وجاء وقت شعرت فيه جان ، لشدة تعلقها بوليدها ، غيرة من جده والحالة ليزون . أما هذه الاخيرة فلم يكن الطفل يأبه بها شأن كل الناس وربما لم تختلف تصرفاته معها عن تصرفاته مع بقية الخدم . فسكات تخلي في غرفتها لتتغمرط في بكاء يائس لا يكثر به أحد .

سنتان تصر منا على هذا المنوال لم يعكسهما معكرو . وفرروا في مطلع الشتاء الثالث ان يقصدوا روان ليقبوا بها حتى مطلع الربيع . وانتقلت العائلة جميعها الى هذه المدينة بعد أسابيع قلائل .

غير ان اقامتهم في بيتهم الرطب المهجور كانت سيئة الاثر على صحة الطفل فاصيب بنزلة صدرية اشتدت عليه وطأتها حتى حسبه اصاب بذات الجنب فأدركوا ان لاغى لهم عن هواء القصر المتعش فقفلوا اليه راجعين ادراجهم فور ابلال بول من مرضه .

وبدأت سلسلة من السنوات الهادئة الحلوة .

كانو يمضون معظم أوقاتهم مع الصغير المعبود ، في غرفته تارة وفي الردهة الكبيرة طوراً وفي الحديقة مرة تالفة مروحين عن انفسهم بالاصغاء الي القوة المحبب ومشاهدة حركاته الغريبة .

وكانت امه تدعوه (بوليه (١)) تحبباً ولما لم يكن يستطيع اخراج الاحرف واضحة فكان يدعوه نفسه (بوليه (٢)) الامر الذي كان يثير فيهم عاصفة من الضحك لاتنتهي .

ولزمته هذه النسبة دهرآ طويلاً .

ولما كان نمو قامته مضطرباً فقد غدا مهمهم قياس قوامه . وكان البارون يطلق عليهم هم الثلاثة : د امهاته الثلاثة ،

وجاء شخص جديد يلعب دوره في العائلة : انه الكلب ماساكر وكانت جان قد اعملته في انصرافها الكلي الى بول . وغدا هذا الكلب صديق بول لايفارقه في ليل أو نهار وكثيراً ما يرقد معه في فراش واحد . وشكت جان شدة تعلق ولدها برفيقه وقد خشيت انتقال الحشرات من الحيوان اليه . اما الحالة ليزون فقد اساءها ان يجرمها ماساكر من نصيبها الضئيل من اهتمام بول .

(١) تصغير لكلمة Paulc يقصد منه التدليل (Paulet)

(٢) Poulet وتعني دجاجة صغيرة

وندرت الزيارات بينهم وبين جيرانهم . اما المختار والطبيب فلم ينفكيا معكران صفو القصر القديم بزياراتهما الرتيبة . وقد انقطعت جان عن ارتياد الكنيسة منذ مصرع الكتبة تحت ركلات قدمي الكاهن السفاح . ثم جاءت تلك الاشاعات التي لم يتورع الاب توليباك عن اثارها عن الكارثة التي اودت بحياة العاشقين . ولشد ما أحنت جان من الله اتخاذ مثل هذا الرجل العشوم ممثلاً له على الارض ! وكثيراً ما كان الاب توليباك يلح الى ان القصر قد غدا مسرحاً لارواح شريرة تروود فيه ليل نهار .

وكانت كنيسته قد خوت من المصلين فقد نفرت الجميع أعماله المتناهية فظاظة وفسوة . وكان اذا مارس في الحقول حيث يبحرث الفلاحون لروا عنه اخناقهم فلا يحبيه احد ولا يآبه له أحد . ولربما نظروا اليه نظرتهم الى ساحر نطيعه الارواح الشريرة وتأتمر بامرهم قوى ابليس . ألم يطرد الشياطين من قلب امرأة غاوية ؟ ولقد انصرف عقله المتعصب المتزمت فعلاً الى مطالعة كتب تبحث في السحر واستحضار الأرواح ومناجاة الشياطين .

وطافت بالناس فكرة الخوف منه وتجنب رؤيته لمسا يكن فيه من قوى سحرية شريرة ولم يقتصر ذلك على العوام من الناس بل تعداه الى زملائه من كهنة الريف الذين بانوا بخشون فيه هذه الظاهرة الغريبة واذا كانوا يتظاهرون أمامه بشيء من الاحترام فما ذلك الا لتمكن هذه الفكرة من نفوسهم .

وكان اذا ما التقى بجان ازور عنها فلا يحبها . ولقد اشاع هذا الوضع الشاذ نحو الكاهن القلق في نفس الحالة ليزون التي لم تستطع ان تفهم ، بعقلية العانس الجامدة كيف لا يذهب المرء الى الكنيسة كل احد او عيد .

وكانت اذا ما دخلت الى بول عمدت الى تلقينه شيئاً عن الدين فسكت لا يصني اليها باهتمام الا عندما تروي له قصصاً عجائبية عن الجنة والنار والقديسين المغامرين . وبلغ الطفل عامه العاشر . وحبت امه الى الاربعين . كان قوياً ، شديد الجلبة كثير الصخب ، شجاعاً يتسلق الاشجار غير هباب . الا ان عقله ظل فارغاً .

فالدروس تبعث فيه مللاً فلا يلبث ان ينصرف عنها . وادا ما احتجزه جده فترة امام كتاب تدخلت جان قائلة : - دعه يلعب الآن . ليس لنا ان نرهقه . انه ما يزال حدثاً .

انه ، بنظرها ، لم يتجاوز شهره السادس أو عامه الاول على أبعد تقدير ! وبرزت صعوبة كبرى اذ بلغ عامه الثاني عشر : قضية (مناولته الاولى)(١) وقد جاءت الحالة ليزون جان يوماً وافهمتها انه ليس من اصالة الرأي في شي ترك الفلام دون أية معارف دينية . واوشكت جان تقتنع بما قدمت لها خالتها من أدلة الا انها ارجأت البت في الامر الى ما بعد .

وعاد بوليه ذات مساء وقد اصابه سعال من جراء وقوفه في مجرى الهواء اذ عاقبه الكاهن أثناء الدرس الديني ومنذ هذا اليوم رفضت جان ارساله الى هذه الدروس وشرعت تلقنه بنفسها مبادئ الدين فكان رد الاب توليباك على هذا التدبير ان رفض قبوله في عداد المتناولين ، رغم رجاء ليزون ، محتجاً ان تعليمه الديني غير كاف .

ولم تكن النتيجة في السنة التالية افضل منها هذه السنة وثار البارون أثر ذلك وقرر ان حفيده ليس بحاجة الى معرفة هذه الحقائق ، هذا الرمز الصبيا في الذي يزعمونه في استعالة الخبز والخر الى جسد المسيح ودمه !..

فليست مثل هذه الاشياء ، بنظره ، ضرورية كما يصبح الطفل رجلاً فاضلاً وعزم على تنشأته مسيحياً ولكن ليس كاثوليكياً متعبداً وسيترك له الحرية ، بعد بلوغه الرشد ، لاختيار المذهب الذي يحلوه .

وقامت جان بزيارة لآل بريسفيل الا انهم لم يردوا لها الزيارة الامر الذي أدهشها غير ان المركيزة دي كوتيليه أعرت لها بكثير من الترفع عن السبب الذي حجبهم عنها .

(١) ترجمة Première Communion وتعني تقديم الطفل الى الكنيسة ليتلقى أسرار الدين لأول مرة .
- المترجم -

كانت هذه السيدة شديدة الاعتداد باسم زوجها ومركزه المالي ، تنظر الى نفسها كما لو كانت ملكة النبلاء النور منديين وكانت جان تزورها ذات يوم فوجهت اليها الكلام بلهجة جافة متعالية قائلة :

- إن المجتمع يقسم إلى قسمين . قسم يؤمن بالله وآخر يشرك به . ان القسم الاول هم اصدقاءنا المساوون لنا أما الآخرون فليسوا منا ولسنا منهم .

فاجابت جان وقد أدرت مرمى كلامها :- ولكن اليس بمقدور المرء ان يؤمن بالله دون ان يرتاد الكنائس ؟

- كلا ياسيدي . ان المؤمنين يقصدون بيت الله للصلاة كما يفعل المرء اذا كان بحاجة الى انسان فيأتيه في بيته .

وجرحت قولها جان فاردفت تقول :- ان الله موجود في كل مكان ياسيدي . فانا مثلاً اؤمن بالله ايماناً عميقاً واشد ما يبدو لي بعيداً عندما يكون بعض الكهنة واسطة بيني وبينه !

ونهضت المر كيزة قائلة :- ان الكهنة يحملون لواء الكنيسة ياسيدي وكل من لا يسير تحت اللواء فهو حرب عليه وعلينا !

ونهضت جان بدورها راعشة الاوصال غضباً :

- انك ياسيدي تؤمنين بالله متحيزا الحزب دون آخر .

أما أنا فأؤمن بالله لجميع الناس على حد سواء .

وحيت وخرجت .

وجعل البارون شغله الشاغل تعليم بول فبدأ يدرسه اللاتينية وكانت جان لا تنفك توصي اباه :- المهم الاتمهته . وهي لا تنفك تطوف بالرفة التي يجلس فيها تسأله تارة اثر اخرى :

- ألا تشعر ببرد في قدميك ؟ - او - ألم يصبك صداع يابوليه ؟ او توقف

الدرس اتقول :- لاندعه يتكلم بهذا المقدار فستتعب حنجرتك .

وما ان يفرغ من الدرس حتى يهبط الى الحديقة مع امه وخالته فيجضي وقته

في غرس النباتات وحفر الاحواض فان له لميلاً خاصاً الى مثل هذه الاعمال وحباً شديداً لجلي الازهار وتنظيم الاضاميم .

و كبر بوليه وبلغ الخامسة عشرة غير انه ظل طفلاً بنفكيره جاهلاً ، مائماً ، محصور العقل بين هاتين المرأتين وهذا الرجل وايه جميعاً من اولاد العصر .

وتحدث البارون ذات مساء عن ارساله الى الكلية وفاضت الدموع لهذه الفكرة من عيني جان كما هلمت الخالة ليزون فانقبذت مكاناً قصيباً تشرق بدموعها . وقالت جان :- ما حاجته الى كل هذه المعارف . سنجعل منه رجلاً ريفياً ، نبيلاً مزارعاً . سيتم بارضه كما يفعل العديد من نبلاء الريف . سيعيش وحرماً سعيداً في هذا البيت حيث عشنا قبله وحيث سنموت . وهل نطمح له في خير من ذلك ؟ وهز البارون رأسه منكراً :- بم ستجيبينه اذا ما بلغ الخامسة والعشرين وجاءك يقول : انا لست شيئاً مذكوراً لأنني لا اعرف شيئاً ! انها خطيئتك اخطيئة امومتك الانانية ! انا لست خليفاً باي عمل كما أصبح شيئاً مذكوراً ! ومع ذلك لم اخلق لمثل هذه الحياة التافهة المظلمة ، الكثيبة حتى الموت التي اوصاني اليها حنانك القصير النظر .

واستمرت تبكي شاكية أمرها - قل يا بوليه . انك لن تلومني لأنني محضتك كل هذا الحب ! اليس كذلك ؟ ووعدتها الطفل الكبير مشدوها - كلا بالتأكيد يا أمي !

- أنقسم ؟ - أجل يا اماء !

- اتريد ان تبقى بالقرب من امك المسكينة ، أليس كذلك ؟

- أجل يا اماء !

وعندئذ تكلم البارون بصوت عال ولهجة صارمة .

- جان . ليس من حقك ان تنصرفي بحياته مثل هذا التصرف الاخرق . ان

ما تقدمين عليه الآن جبن واجرام . انك تضعين بولدك على مذبح - مادتك الشخصية ! واخفت براحتها وجهها مطلقة زفرات حرى .

وعادت تقول : - أشد ما كنت تميسة !.. والآن وقد عرفت السعادة بولدى ..
بأخذونه مني ، ماذا سيجعل بي .. وانا وحيدة .. مفردة ؟!
ومشى اليها أبوها وأخذها بين ذراعيه : - وانا باجان ؟ وتناولته فجأة من
عنقه وقبلته بعنف : وعادت تقول والزفرات تقطع كلامها : - لك الحق .. ربما ..
يا ابتاه .. اني مجنونة .. لشد ما قاسيت فليذهب الى الكلية ..
وعمرع بوليه يسكي دون ان يعرف ما يراد به تماماً .
وعانقته (امهاته الثلاث) وهددهنه وشجعنه وعندما أووا الى غرفهم كانت
قلوبهم معصرة ونفوسهم منقصة وحتى البارون لم يكن أسعد سطاً من المراتين .
وحزموا امرهم على ادخال بول كلية الهافر في مطلع العام الدراسي وبدأوا
يدللونه مدة الصيف اكثر من المعتاد وكثيراً ما استسلمت جان الى البكاء اذ تفكر
بهذا الفراق المرتقب . وراحت تعد له احتياجاته كالمو كان راحلاً ليتغيب السنين الطوال .
وأخيراً ، بعد ليلة مؤرقة ، من أوائل تشرين الاول ، أقفلتهم عربية انطلقت
صوب الهافر .

وبعد جولة في ارجاء المدينة انجهوا نحو الكلية ، كان اطفال من كل الاسنان
وكافة الجهات يسير بهم أبائهم او بعض الخدم وكان اكثرهم يذرفون الدموع
فتجاوب اصوات نشيجهم في الباحة الواسعة الضيئلة النور .
وعانقت جان بوليه طويلاً ، وجمدت حاله ليزون وراءهما وقد أخفت كل
وجهها في منديلها وما كان من البارون ، وقد احتاجت عواطفه هو الآخر ، الا ان
عمد الى اختصار ساعة الوداع فجعر ابنته وخرج بها الى العربية التي عادت بهم الى القصر
وفد هبط الليل ، وكان الركب لا يفتأ يصعد الزفرات في الظلام الخيم في العربة .
وأضت جان يومها في بكاء لا ينقطع ، ولم تنطق صبراً فانجهت في اليوم الثالث
نحو الهافر ووجدت بوليه قد اعتاد حياته الجديدة بعيداً عن امه ، وللمرة الاولى في
حياته اتخذ لنفسه اصدقاء ، كانت شدة رغبته في اللهو تتركه مرتجفاً وهو بين اهله
في قاعة الانتظار .

ودأبت جان على الحضور الى المدينة كل يومين كما كانت لا تخاف ميعادها أيام
الاجاد لتخرج ببول من اسر الكلية ، وكانت تقيم بانتظاره وهو في قاعة الدرس
فلا تدري ما تعمل فتتمكث في غرفة الانتظار لا تجرؤ على الابتعاد عن الكلية ،
ورجاها الناظر كي تقلل من زيارتها ، غير انها لم تأبه لهذا الرجاء . وأندرها أخيراً
بانه ؛ ان استمرت في الماء ولدها عن دروسه وألعابه ، فسيجد نفسه مضطراً الى اعادته
اليها كما وجه الى البارون رسالة بهذا المعنى ، فاضطر هذا الأخير الى حجبها في
القصر كأنها سجينه .

كانت ترقب أيام العطل بشوق أقوى من شوق ابنها اليها وأشد ، واستبد بها
قلق لاهوادة فيه ، وكثيراً ما كانت تخرج مطوفة بالمقاطعة يرافقها الكلب ماسا كر
فتهم تحلم في فراغ . . . واحياناً كثيرة كانت تضي كل بعد الظهر فوق صخور الشاطئ .
عائقة الانظار في اليم ببله . . او تقصد إبور في نزاهات كفعلها في ماضيات أيامها . .
فكانت ذكرياتها القديمة لا تنفك تلاحقها بضراوة . ما أبعد من عهد . . . أيام كانت
تطوف هذه الاماكن اذ كانت فتاة عذراء غضة الاعاب ريانة الصبا مفعمة الخيال
باحلام مذهبة الحوانني فتاة الرؤى رائعة الخطرات . . . كانت في كل مرة تشاهد ابنها
مخيل للناظر ان فراقها عمر عشر سنين . اما هو فكان يزداد رجولة شهراً بعد شهر
بينما كانت هي تمشي الى الكهولة بخطى حثيثة . وبدا ابوها الى فربها كأنه أخ لها كما
بدت الحالة ليزون اختاً لها هي الاخرى .

ولم يسجل بوليه أي تقدم في دراسته . واعاد الصف الرابع . اما الثالث فاجتازه
بين بين . وبلغ الصف الثاني فكان عليه ان يعيده ايضاً . وكان في العشرين من عمره
عند ما بلغ صف البكالوريا .

وبعداً شاباً طويل القوام أشقر البشرة وقد طر شارباه واخضل عذاراه وهو
الان يأتي الى القصر كل احد على جواد يستأجره فيقطع به المسافة في ساعتين .

كانت جان والحالة ليزون تذهبان منذ الصباح الباكر الى لقائه . . وربما
رافقهما البارون محي الظهر قبللاً يسير كأنه شيخ هم وقد صالب ذراعيه وراظهره

كأنه يعتمدهما في سيره فلا تثعثر قدماء وبالرغم من ان بول قد بلغ سن الرجال ما انفكت امه تنظر اليه كأنه مازال طفلاً محبوباً ، وكثيراً ما كانت تقول له :

— الانحس برداً في قدميك ؟ .

وكانت اذا ما رآته يتنزه امام القصر مدخناً سيكارته تفتح نافذتها ونهب به :

— لا تخرج عاري الرأس يا صغيري بوليه فقد يصيبك شح دماغي .

واذا مارأته يركب جواده ليسافر ليلاً كانت تهتز فرقاً وتقول : — لا تسرع

يا حبيبي . فكر بأمك المسكينة فاذا حدث لك مكدر مت يا ولدي .

وتلقت صباح يوم السبت رسالة من بول يعلن فيها انه لن يأتي يوم الاحد فتمت

احتفال يقبه بعض الرفاق وقد دعي اليه

وقضت يوم الاحد على اسوأ حال . ولم تقو على الصبر فقصدت يوم الخميس

مدينة الهافر .

ورأت تغيراً قد اعتري ولدها دون ان تعنى بمعرفة السبب . بدا لها اكثر

حبوية وقد غدا صوته اشد رجولة من السابق قال لها بلهجة جد عادية : — بما انك

جئت اليوم يا اماء فلن اذهب الاحد القادم الى القصر لأنه سيكون لدينا حفلة اخرى .

وخفتها الفصص فلم تخرج جواباً . واستطاعت ان تتكلم اخيراً : — آه ! ما ذا

بك يا بوليه ؟ قل لي . ماذا يحدث لك ؟ .

وانطلق يضحك قائلاً : — ولكن . . ليس ثمة شيء يا اماء . . كل ما في الامر

اني اود الترويع عن النفس مع اترابي . اننا في سن اللهو كما ترى . .

ولم نجد ما نقول . وما ان انفردت بنفسها في المركبة حتى دهمتها ففكر

سوداوية . لشدة ما تغير ابنها حتى انها تكاد لا تعرفه . لقد لاحظت انه كبير كثير

انه لم يعد لها وحدها . انه لن يهتم بعد اليوم بشخص هربين مثل اهل . لقد خيل اليها

انه قد تغير في يوم واحد تغيراً كبيراً . ماذا ؟ هذا هو طفلها ؟ طفلها الصغير الضعيف

الذي كان يلعب في الحديقة في الايام الخوالي ؟ .. اهذا هو ؟ هذا الشاب الممتعي ذو

الارادة الصارمة ؟

م ١٢ حياة صاخبة

- ١٧٧ -

ومرت أشهر ثلاثة لم يات خلالها بول لزيارة اهله الا لماماً . واذا ما جاء فكان يسرع بالعودة متعجلاً كي يكسب ساعة يقضيها في المدينة . وادرك جان خوف مقيم . وكان البارون لا ينفك يحون عليها قائلاً : - دعيه يفعل .. انه في العشرين ! هذا الغلام !

وجاء القصر ذات صباح رجل خلق الثياب بسأل بفرنسية المانية اللكنة عن السيدة الفيكونتس وبعد دقائق من التبعيات الرسمية اخرج ورقة من محفظة قدرة مزقة : - لدي ورقة صغيرة لك .

وقدم لها ورقة قدرة قرأتها واعدت قراءتها ثم نظرت الى اليهودي وسألته :
- وماذا تعني هذه ؟

واوضح الرجل القدر : - كان بابنك حاجة الى قليل من المال . ولما كنت اعرفك اما طيبة لم اتردد في اقراضه حاجته منه .
وارتجفت وقالت : - ولكن لم لم يطلب ذلك الي انا ؟

وعاد اليهودي يقدم ايضاحاته قائلاً ان الامر يتعلق بدين للمقامرة ينبغي ان يسدد قبل ظهر اليوم الثاني ولما لم يكن بول قد بلغ سن الرشد لم يجد من يقرضه المبلغ وانه لولا هذه الخدمة التي اداها له لكان شرفه يتعرض لما لا يسر .

ودعت جان اباهما فما ان دخل حتى إدرك واقع الحال فوراً . وكان السند بالقب وخسماية فرفك . فدفع للرجل الفأ من اصلها وقال له . شرط الا تعود بعد هذا ابداً .

فحسب اليهودي وشكر وانصرف .

ومرغان ما سافر الجد والام الى الهافر . وبلغا الكلية فعلموا ان بول قد غادرها منذ شهر ولم يعد اليها بعد ذلك وان الادارة قد تلقت اربع رسائل من جان تعلن فيها ان ابنها مريض . كانت الرسائل الاربع مزورة طبعاً وغم ان كل واحدة كانت تنطوي على شهادة طبية .

وجدا . ومكنا وقد شغقت اعينها .

وقادما المدير الى مفتش الشرطة . وقضيا ليلتهما تلك في الفندق .
وفي اليوم التالي عثروا على الشاب مقبلاً لدى فتاة من بنات الهوى في المدينة
وصحبه جده وامه الى القصر دون ان ينبث احدهم بكلمة اثناء الطريق . وكانت
جان تبكي ووجهها في منديلها . اما بول فكانت عيناه تجولان في الريف بعدم
اكتراث .

وعرفوا بعد ثمانية ايام انه قد استدان خلال الاشهر الثلاثة الاخيرة خمسة عشر
الفاً من الفرنكات ولم يكن المرابون قد تقدموا بطلب سداد ديونهم منتظرين بلوغه
سن الرشد .

ولم يقدم عن ذلك اي ايصاح . وقد شاؤوا اصلاحه باللين . فكانت اطيب
الاطعمة تقدم اليه والكل يحيطه بالتبديل والمهددة واستأجروا له زورقاً في ايبور
رغم تخوف جان لبقوم بنزهات في البحر ذلك الربيع .
وكانوا قد عمدوا الى اخفاء الجياد عنه خشية ذهابه الى الهافر .

واقام لا يعمل شيئاً . ضجرأ . برماً سيء الخلق متوحشاً احياناً . وقد اقلق
البارون انقطاعه عن دراسته . وكان اخشى ما تخشاه جان فراق جديده ! ومع ذلك
فقد شغلت تفكيرها بامر مستقبلي .

وخرج ذات مساء ولم يعد . وعلموا انه ذهب في نزهة بحرية مع أحد النوتية .
وكادت امه تخبث عارية الرأس الى ايبور وكان الليل قد اوى سدوله .
واقامت مع بعض الرجال على الشاطئ بانتظار اوبة الزورق .

وظهر في عرض البحر نور ضئيل راح يدنو متأرجحاً . الا ان بول لم يكن في
الزورق العائد . اتقد ذهب الى الهافر وبقي فيها .

وبحثت عنه الشرطة طويلاً دون طائل . وكذلك كانت الفتاة التي اخفته في
المرّة الاولى قد اختفت معه دون ان تترك اثرأ يدل عليها . وفي غرفة بول في القصر
عثروا على رسالتين من هذه المخلوقة التي بدت مجنونة في حبه . كانت رسالتاهما

تحدثان عن فكرة السفر الى انكاثرا وقد تدبورت قضية المصاريف الضرورية .
كما زعمت .

واقام سكان القصر الثلاثة غارقين في بحران من عذاب معنوي اليم . لقد
ابيض شعر جان الذي كان اغبر حتى ذلك الوقت . وكانت تتساءل بسذاجة لماذا
يوجه اليها القدر مثل هذه التوازل الفارقة .

وتلقت من الاب توابيك رسالة تقول : -

« سيدتي . ان يد الله قد حطت فوق كاهلك . لقد منعت ولدك عنه فأخذه
منك بدوره ليلقي به الى امرأة بها روح نجس . هلا فتحت عينيك على هذا الانذار
توجيهه اليك السماء ؟ ان لطف الله واحسانه غير متناهين . فقد يغفر لك اذا جثوت
امامه . واذا خادمه الحقير افتح لك بيته عندما تاتين ضارعة تقرعين . »

واقامت طويلاً وهذه الرسالة فوق ركبتيها . لعل ما قوله هذا الكاهن هو
الحق الصراح . وشرعت كل شكوكها الماضية تمزق ضميرها شر تمزق . ولكن
ايكون الله منتقماً غيوراً كالبشر . اذا لم يكن غيوراً فمن يخشاه ومن يعبدده ؟
ولا ريب في انه يظهر للناس ، كما يدركوه جيداً ، من خلال افكارهم وعواطفهم
وداخلها الشك الجبان الذي يدفع بالمؤمن الى الكنييسة ويقض مضجعه ، فانطاعت
ذات لينة حتى بلغت المذبح فسقطت فوق ركبتيها امام الكاهن المزيبل وانطلقت توجو
منه العفو والغفران .

غير انه لم يهبها الغفران الكامل فאלله لا يستطيع ان يغفر بدمعته بيتاً يظل
سقفه رجلاً كالبارون .

وقال لها مؤكداً : - ستستقرين قريباً بالسلام الذي سيفيض على حياتك
بدمعة الله .

وتلقت بعد يومين رسالة من ولدها اعتبرتها بداية السلام الذي وعدها
الكاهن به .

« امي العزيزة . لا تقلقي علي فانا في لندن . صحتي جيدة الا ان بي حاجة لمحنة

الى المال . لسنا نملك درهماً واحداً ولا نجد ما نأكله طوال يومنا . نبيت ليلتنا على الطوى . ان المرأة التي ترافقني والتي احبها بجماع نفسي قد انفقت كل ما نملك في سبيل الاحتفاظ بي : خمسة آلاف فرنك . وانت تعرفين اني قد تعهدت لها بشرفي ان اعيد اليها هذا المبلغ قبل كل شيء . انك تسدين الي بدأ مشكورة لو ارسلتي الي حوالى خمسة عشر الفاً من الفرنكات كسلفة على ميراث ابى اذا في سأصبح ممسكاً قريب راشداً . وانك بعملك هذا تجنبيني مصاعب حمة وتخرجيني من مأزق لا تحصى وداعاً يا امي العزيزة . اقبلك بحرارة مع جدي العزيز والحالة ليزون . آمل ان اراك قريباً .

ولدك : الفيكونت بول لا مار .

لقد كتب اليها اذاً . انه لم ينسها . ولم تفكر ابدأ انه انما كتب ليطلب مالا اجل - ترسل اليه لأنه لا يملك شيئاً . ما هي قيمة المال ؟ ! لقد كتب اليها - وهذا حبها !

وحملت هذه الرسالة وخفت الى البارون باكية . ودعيت الحسالة ليزون . واعادوا قراءتها كلمة كلمة . هذه الورقة التي تحدث عنه . وناقشوا كل عبارة من عباراتها .

وانتقلت جان من البأس المطبق الى الأمل الباسم . وراحت تدافع عن بول :- سيعود . لا بد ان يعود . فقد كتب .

وقال البارون جردو اكثر : - لا قيمة لهذا . لقد هجرنا من اجل هذه المخلوقة . انه مجبها اذاً اكثر مما يجبنا فهو لم يتردد في تفضيلها علينا .

وعبر روح جان الم مفاجيء هائل . وسرعان ما اشتعلت في نفسها كراهية لهذه الخلية التي سرقت منها ابنها ، كراهية عنيفة ، وحشية ، كراهية ام غيور ! فحتى تلك اللحظة كلفت كل افكارها منصرفة لبول . وفما فكرت في الداعي الى هجر الى انه الغريب ذاك . ولكن قولة البارون ولدت فيها هذا الحقد السام وادركت ان صراعاً قد نشب بينها وبين هذه المرأة . وادركت ايضاً انها تفضل

فقدان ابنها على مقاسمة هذه المرأة لها في قلبه .

وانهار كل سرورها .

وارسلوا المال المطلوب . ومضت خمسة اشهر لم يصلهم فيها نبأ عنه .

ثم حضر رجل رسمي . لتصفية ميراث جوليان .

وبعد ان تمت التصفية وكان بول قد عاد الى باريس ، استلم نصيبه البالغ عشرين ألفاً من الفرنكات . وكتب بعد ذلك اربع رسائل خلال ستة اشهر معلناً انه يعمل في البورصة وانه يأمل ان يحضر يوماً لعناق اهله في القصر . ولم يذكر كلمة واحدة عن خليلته . وكان هذا الصمت ابلغ من تحدثه عنها ملء اربع صفحات . وشعوت جان ، من خلال برود اقواله ، بقوة تلك المرأة وسلطانها عليه ..

وتناقش الثلاثة فيما يستطيعون عمله من اجل انقاذ بول غير انهم باءوا بالفشل ايسافرون الى باريس ؟ ولماذا ؟ وقال البارون : ينبغي ان نتركه يشبع . سقيه . ولا بد من عودته الينا وحيداً .

وغدت حياته مفاجئة . وكانت جان وايزون تذهبان الى الكنيسة خفية عن البارون .

ومضت مدة طويلة لا يتلقون من بول اي نبأ . وذات صباح بلغتهم هذه الرسالة البائسة فكادت تسحقهم : « امي المسكينة : اني رجل مضيع لم يعد امامي الا الهاب دماغى برحاصة ان لم تخفي الي نجدي . ان المحاولة التي كانت مفروضاً ان تجلب الي الحظ والثروة قد آتت الي بخفي حنين وانا الآن مدين باربعة وعشرين الف فرنك . فان لم اقض هذا الدين فعنى ذلك الدمار وضياع الشرف واحباط كل مشروع في المستقبل .

اني رجل مضيع ! اكرر لك . واني مستعد للانتحار فاخلص من هذا العيش المهين الذي سأحياه . ولعل كنت اقدم على ما اقول لولا تشجيع امرأة فلما اتكلم عنها وهي لي بمثابة « العناية »

افبلك من اعماق قلبي يا ابي العزيزة وقد تكبروت هذه هي قبلي الاخيرة .
وداعاً .. « بول »

وكان طي هذه الرسالة اوراق رسمية تفسر الكارثة المالية التي منى بها بول .
واعلن البارون دون مواربة ان لا بد لهم من مجابهة الموقف . وقصد الهافر
فرهن بعض الارض ليحصل على المال الكافي فيرسله الى بول .
وقروا بعد ذلك ثلاث رسائل شكر من الشاب الطائش معلناً فيما عزمه
الاكيد على الحضور لمعاينة اهله الابرار . ولكنه لم يأت .
ومرت سنة كاملة .

وعزمت جان والبارون على السفر الى باريس لمقابلته والقيام بمحاولة اخيرة
لردعه عن غبه الا انها علما انه عاد ثانية الى لندن وقد اسس شركة تجارية تحت اسم
« بول دي لامار وشركاه » وكتب :

« لقد ضمنت الثروة لنفسى هذه المرة . وانا لا اخشى شيئاً . وعند ما سآتي
اليكم سيكون لي المركز الاجتماعي المرموق . ليس سوى العمل مخـرج الانسان
من متاعبه في هذه الايام . »

ومضت ثلاثة اشهر فاذا بالشركة تعلن افلاسها وبالسلطات تطارد مديرها
لتلاعبه في التيمود التجارية .

واذكرت جان نوبة عصبية حادة دامت ساعات طويلة طرحت في الفراش اخيراً .
وقصد البارون الهافر واستقصى الاخبار . قابل محامين ورجال اعمال وغيرهم
بمن يعنين الامر . وقد علم ان الافلاس كان على مبلغ مائتين وثلاثين الفاً من
الفرنكات . ورهن القصر ومزرعتين على مبلغ طائل .

وذات مساء بينما كان ينهي المعاملة في مكتب رجل من رجال الاعمال سقط
وتدحرج فوق الارض وقد دهمته السكتة القلبية .

وانفذوا فارساً يعلم جان ولما وصلت كان البارون قد لفظ آخر انفاسه .
ونقلت الجثة الى القصر . وكان جان ، لعداحة الخطب ، قد تحجرت فيها

عواطفها فلم تظهر بأساً بقدر ما بدت في استغراق مؤلم .
ورفض توليهاك ادخال الجنان الى الكنيسة بالرغم من رجاء المرأتين الحار
واسترحامها الباكي . ودفن البارون لدى هبوط الليل دون اي احتفال .
وعلم بول بالفاجعة من قبل احد الرجال المهتمين بتصفية طابق افلاسه . وكان
ما يزال متخفياً في انكسار . وكذب يعتذر عن عدم مجيئه بتأخر معرفته بالنازلة .
ووعده بالعودة الى فرنسا والحضور لرؤيتها بعد ان انقذته من ورطته .
وعاشت جان في عدم ادراك فظيع بدت معه كأنها غائبة عن هذا العالم .
وحوالي اواخر الشتاء اصبحت الحالة ليزون يزججه صدوية حادة وكانت قد
بلغت الثامنة والستين .
وانقلبت الذبحة الى التهاب رئوي . ولفظت انفاسها وهي تردد : - سأطلب الى
الله ، يا جان المسكين ، ان يشفق عليك ،
تبعنا جان الى القبر . ورأت التراب ينهال على نعشها ، وكمننت لو ادر كما
الموت هي الاخرى فلا تعود تحس ولا تتألم . وانهارت فوق القبر لا تستطيع حراكاً
ودنت منها فلاحه قوية وتناولتها من ذراعيها ثم حملتها كما تحمل طفلاً صغيراً .
ولدى نقلها الى القصر تركت هذه الفلاحه المجهولة تضعها في سريرها . وكانت
الليالي الخمس التي قضتها نعت قدمي العانس الفقيدة قد انهكتها ايما انهاك . واما
الفلاحه على خدمتها بالكثير من الرقة والتسلط .
واستفاقت جان وقد مضى من الليل هزيعه الاول . فرأت على نور الصباح
الليلي الضئيل المثبت فوق المدفأة امرأة تغط فوق مقعد . من هي هذه المرأة ؟ انها
لا تعرفها وراحت تبحث في اعماق ذاكرتها وقد انحلت فوق فراشها . ونفرست
فيما جيداً على نور الفئيل المضطرب فوق الزيت في اناء زجاجي .
وخيل اليها مع ذلك انها رأت هذا الوجه قبل الآن . ولكن اين ؟ وكيف ؟
كانت المرأة تغط بدعة . ان لها من العمر اربعين او خمساً واربعين . وهي قويصة
البنية موردة الحدين .

واستمرت جان تنظر اليها تلك النظرة الضائعة التي تعقب الاستفاقة من النوم
المحموم الذي يلي الآلام المبرحة والتماسة القصوى .
لاريب في انها قد رأت هذا الوجه . اهل ذلك في الماضي ؟ أم تراها رآته
حديثاً ؟ ونهضت ودنت من الثائمة لتتحقق منها عن كثب . انها المرأة التي حملتها من
المقبرة ورقدت هنا . ولماذا هي في غرفتها الآن ؟
وفتحت المرأة عينيها ونظرت الى جان وهبت فجأة . وتمتمت المرأة المجهولة :
« كيف ! ها أنت واقفة ! سيصيبك سوء في هذه الساعة ! تريدان ان تعودني الى
سريرك ! »

وسألت جان : - من أنت ؟

غير ان المرأة فتحت ذراعيها واحتوتها بها واعادتها الى سريرها بقوة كفوة
الرجال . وبعد ان مدتها في فراشها بجنبو الخمت فوقها واندفعت تقبلها باكية فوق
خديها وشعرها وعينها باندفاع وحرارة متممة : - ياسيدي المسكينة ، يا آنسة جان
ياسيدي المسكينة . انك لم تعرفيني اذآ ؟
وهتفت جان : روزالي ! يابنيتي !

والقت بذراعيها حول عنقها وجذبتها اليها واندفعت تطبع على وجهها قبلها .
وامتزجت دموعها . وهدأت روزالي اولاً : -
- هيا كوني عاقلة . حذار من البرد .

وسألها جان : - كيف عدت يابنيتي المسكينة ؟

فاجابت روزالي : - يالله ! او استطيع تركك هكذا وحيدة كئيبة .

وقالت جان : - اشعلي شمة اذآ لاراك بوضوح .

وما ان غمر النور الغرفة حتى راحت تتأمل احداها الاخرى مدة طويلة
لاتنبهان . واخيراً مدت جان يدها لخادمتها القديمة وتمتمت : - لم اكن لاعرفك ابدآ
يابنيتي . كم تغيرت ! انمرفين هذا ؟ ولكن ليس بمقدار ما تغيرت انا .
وتأملت جان هذه المرأة البيضاء الشعر الهذيلة الذابلة والتي كانت قد غادرتها

جميلة غضة شابة .. واجابت :- صحيح .. لشد ماتغيرت ياسيدة جان . اكثر مما
يجب . ولكن فكري ان اربعاً وعشرين سنة قد مرت على فراقنا .
وصمتنا واستغرقنا في التفكير مجدداً . وسألها جان :- وهل كنت سعيدة
على الاقل ؟

وترددت روزالي خشية ان تبعث بعض الذكريات الراقدة المؤلمة :- ولكن
.. اجل .. اجل .. ياسيدي . ليس لي الحق في الشكوى . لقد كنت اسعد
منك .. ولا ريب .. ولم يكن لي ماأسف عليه سوى شيء واحد .. اني لم أبق هنا .
ثم لزمت الصمت فجأة .

وعادت جان تقول بلطف :- ماذا تريدن يابنيتي ! لا يبلغ المرء دائماً
مشتماه . انك أزملة انت الاخرى . اليس كذلك ؟

.. وحشرج صوتها بغضة وثابتت :

- الك اولاد آخرون .. غيره ؟

- كلا ياسيدي !

- وهو ؟ .. ولدك ؟ ماذا غدا ؟ أهو سعيد ؟

- أجل ياسيدي ! انه ولد طيب يعمل دون ملل . لقد تزوج منذ ستة أشهر
خلت وقد اعطيته الحقل لأني عدت اليك .

واضطربت جان بالتأثر وقالت :- اذاً فلن نتركبني ابداً يابنيتي ؟

واجابت بلهجة قوية :- لك ان تثقي بي ياسيدي وقد رنبت كل شيء في سبيل
هذه الغاية .

وهادتا الى صمتها بعض الوقت .

شرعت جان بالرغم عنها تقارن بين وجوديهما ، ولكن دون مرارة في القلب
وقد خضعت لهسوة القدر العشوم . وقالت :- وزوجك ؟ كيف كان معك ؟

- آه انه رجل شهم ياسيدي . ولم يكن خاملاً وقد استطاع ان يجمع شيئاً .

وقد قضى بعملة الصدر .

وجلست جان في سريرها وقد اجتاحتها حب الاستطلاع : - هيا . حدثيني بكل شيء يا بنيتي . بكل حيائك ان هذا لما يجلب لي السرور .
ودنت روزالي بكروسيها منها وراحت تحدثها بتفاصيل حياتها الماضية وانتهت قائلة ان كل ما لقيت من خير وهناء يرجع الى سيدتها وانها ستخدمها حتى آخر نسمة من حياتها دون أي اجر .

وعادت جان تقول : - انك تنوبن خدمتي اذاً دون أي اجر ؟
- آه . بكل تأكيد يا سيدتي . مال ؟ ستعطيني مالاً ؟ ولكفي املك منه اكثر مما تملكين دون ريب .

أتعلمين ان كل ما تبقى لك من المال لا يتجاوز عشرة آلاف من الليرات ؟
غير اني سأنظم لك كل شيء . وبدأت تتكلم بصوت قوي متحمسة ، متأثرة لاهمال هذه الثروة ، لهذا الدمار الدائم . ولما طافت بوجه سيدتها ابتسامة شاحبة ثارت ثأثرتها : - لا ينبغي لك ان تضحكي من هذا يا سيدتي لأنه لا يضيع ماله هكذا سوى كل اخرق معنوه .

وتناولت جان يديها واحتفظت بهما في راحتيهما . ثم قالت بهدوء مسيرة بالفكرة المسيطرة عليها : -

- آه . لم اكن بمجدودة . كل شيء كان يسير بما لا اشتهي . اقد عاندتني الافكار وتحالفت على اذلالني .

واستمرتا تتحدثان هكذا كأنهما صديقتان قديمتان .
وبزغت الشمس وهما مازالان غارقتين في ذكرياتهما المريرة .



الفصل الخامس

لم تمض ثمانية ايام حتى كانت روزالي قد تسلمت دفعة ادارة القصر بكل ما فيه وقد استسلمت اليها جان دون أدنى مقاومة . كانت ضعيفة منهوكة القوى تجر قدميها جرأ كما كانت تفعل امها في ماضيات الايام . واذا ما خرجت فتموكتة على ذراع وصبتها التي كانت تعني بها عنايتها بطفل مريض .

وكان حديثها يدور دائماً حول الماضي . وكثيراً ما كانت الخادم العجوز تعود الى حديث الاقتصاديات بتألم وكانت تصر على ضرورة تسليمها الاوراق التي كانت جارت تخفيها خجلاً بابنها ، هي الجاهلة بالامور الادارية . وعندئذ بدأت روزالي تقوم بزيارات اسبوعية الى (فيكومب) لتستوضح بعض المعميات لدى كاتب عدل تعرفه .

وذات مساء ، بعد ان ارقدت سيدتها ، قالت فجأة :- الآن . وقد رقدت ياسيدي سنتحدث قليلا : وعرضت حقيقة وضعها المالي ، فاذا تم دفع كل شيء فسبقى لهم سبعة او ثمانية آلاف فرنك دخلاً ثابتاً . لاشيء اكثر .

واجابت جان :- وماذا تريدن يا بنيتي ؟ اني اشعر شعوراً عميقاً بانني ان اهرم كثيراً وما تبقى يكفيني .

وغضبت جان :- لك انت ياسيدي هذا معقول ؟

واما السيد بول ! ان تترك لي شيئاً ؟

وانتفضت جان :- ارجوك لاتحدثيني عنه . فكلما فكرت فيه اعتراني نوبة حزن قاتلة .

- اريد ، بالعكس ، ان احدثك عنه كثيراً ، انك لاتتعلقين بالشجاعة ياسيدة

جان . لقد ارتكب حماقات . حسناً . انه لن يعود اليها دائماً . ومن ثم فسيترج
وسينجب اولاداً . وسيحتاج مالا لتربيتهم . اصفي الي جيداً . ستبيعن القصر!..
وجلست جان في سريرها بففرة : - ابيع القصر ! او تذكرين بهذا ؟ آه !
مثلاً ! هذا لن يحدث ابداً ! غير ان روزالي لم تضطرب : - اقول لك انك ستبيعينه
باسيدي . لأن هذا ضروري وواجب .

وشرحت لها الموقف بالارقم واوضحت مشروعا والدوافع اليه . واعلنت
لها انها هي التي ستأخذ بمقاييد الامور واذا طلب السيد بول شيئاً فلن يحصل على
دائقي واحد والا فسيحرمها من آخر فلس .

وقمت جان وهي تبكي بصمت : - ولكن .. اذا لم يكن له ما يتبلغ به ؟
- سيعود ليأكل عندها عندما يعرضه الجوع . وسيجد دائماً سريره ومائدته .
او تعتقدين انه كان يقدم على ارتكاب كل حماقاته لو لم ترسل اليه المال اللازم عندما
طلبه المرة الاولى ؟

- ولكنه كان مديناً وقد هدد بالتشهير .

- وعندما لا يعود لك شيء يمنع هذا من الاستدانة ؟ لقد دفعت . هذا حسن
غير انك لن تدفعي في المستقبل ابداً . أنا اقول لك ذلك . والآن عمي مساءً باسيدي .
وانصرفت .

ولم يغمض جان جفن تلك الليلة فقد ارقنتها فكرة بيع القصر والانصراف
عنه .. عن هذا البيت الوثيق الارتباط بكل خيالاتها .

وما ان لحث روزالي تدخل غرفتها في صباح الغد حتى بادرتها : - لن استطيع
ابداً ان ابتعد عن هذا البيت يا بني المسكينة .

وغضبت الوصيفة وقالت : - ولكن منطق الاشياء يستدعي ذلك باسيدي .
وسيحضر كاتب العدل مصحوباً بالراغب الشراء . وبدون ذلك فلن يبقى لك خلال
أربع سنوات قرش واحد .

وبعد ساعة تلقت رسالة من بول يطلب فيها عشرة آلاف فرنك . ماذا تفعل .؟ .

واستشارت روزالي وقد أوشكت ان تفقد صوابها فرفعت هذه ذراعها : - ماذا قلت لك ؟ آه ! لو لم اكن هنا اغدوفا انما الاثنين خاويبي الوفاض قريباً !
وانحنت جان امام ارادة خادمتها وكتبت الى بول : « يا ولدي العزيز . لم اعد استطيع شتاً في سبيلك . واني لاجد نفسي مضطرة لبيع القصر . ولكن لاتنسى ابداً انه سيكون لدي دائماً سقفاً يظلك عندما تحب ان تلجأ الى امك العجوز التي جرعتهما الفصص أشكلاً . »
« جان »

وحضر الكاتب العدل وقمت الصفقة وبعد شهر واحد وقعت اوراق البيع واشترت في نفس الوقت بيتاً صغيراً يطل على الطريق العامة المفضية الى (مونتفيليه) .
وامضت المساء الاخير سائرة في مشى البارونة وقلبها مفعم بالفصص . وكأنها تودع بانظارها الاشجار والمقاعد والجمال وكل شيء يذكرها بأمالها الذاوية وآلامها المبرحة في ماضيها الخالي . .

وجاءت روزالي فقادت من ذراعها واضطرتها الى الدخول .
وكان فلاح طويل القامة في الخامسة والعشرين ينتظر بالباب فعيها بلهجة غير متكلفة وقال . - جئت لآلقي نظرة على الاشياء التي تودون نقلها فانا لن استطيع التفرغ الى هذا العمل مرة واحدة ولا بد من القيام به على دفعات .
انه ابن خادمتها . ابن جوليان زوجها . اخو بول ابنها .
وشعرت كأن قلبها يقف عن النبض ومع ذلك ودت لو تعانق هذا الشاب .
وقعنت فيه محاولة ان تكتشف شيئاً بينه وبين جوليان . وادركت انه بمجموع ملامحه يذكربابه وان كانت تقاطيعها مختلفة .

ولشد ما شغلها انتقلها في الايام التالية فعمل الى حبانها الرتيبة الكثيرة نوعاً من الترويع الحزين . فكانت تطوف في غرف القصر واحدة واحدة تجمع ما فيها من الاشياء الصغيرة القديمة التي تحمل الكثير من الذكريات .

وحضر الفلاح الشاب ، دنيس ليكوك بن جوليان ، ذات صباح مصحوباً بعمرته ليقوم بالثقل الاولى . ورافقه روزالي اهتم بوضع الاثاث وترتيب المسكن

الجديد . وعادت روزالي شديدة الاعتباط بالمنزل الصغير معلنة انه اشد بهجة من هذا البناء الهرم المقبض .

وبكت جان طوال السهرة .

وجاء اليوم الاخير وكانت جان قد قضت ليلتها في غرفة جوليان القديمة لان غرفتها كانت قد عريت من اثائها . ونهضت من فراشها لاهثة كأنها قامت بعدو شديد . وكانت المركبة بالانتظار لتقل السيدة والخدمة . واقام الاب سيمون ولوديفين حتى قدوم المالك الجديد . ثم انسجبا ليعيشا لدى بعض انسابائهما وقد استغنت عنهما جان وخصصت لهما دخلاً صغيراً يستعينان به على تصریم ماتبقى من حياتهما بعد ان بلغا ارذل العمر واصبعا خادمين لافائدة منهما . اما ماريوس فكان قد غادر القصر منذ زمن غير قصير مصطحباً زوجته معه .

وبدأ المطر يتساقط حوالي الساعة الثامنة . مطر دقيق مثلج بحمله ربيع البحر الخفيف . وكان عليهم ان يغطوا العربات كي لا تبطل الامتعة . . . وكانت الاوراق تتطاير من الاشجار . . انه الحريف . . وما ابتعدت بهما المركبة حتى احست جان بمثل الانغماء يدهمها . ثم انتفضت وقالت : - اتذكرين يا بنيتي كم امطرت يوم غادرتا روان لنأتي الى القصر . .

وعاودها الانغماء فضغطت صدرها براحتيها ثم استلقت على ظهرها وفقدت الحس . ومضت ساعة وهي لاحرك بها كأنها قد قضت . وأخيراً فتحت عينيها الغارقتين بالدوغم .

وعندما هدأ روعها قليلاً ادركت انها من الضعف بحيث ان تستطیع حراكاً . ولدى مرورهما في طرف القرية بصرا بشخص يسير ذاهباً غادياً فوق الطريق . انه الاب توليبياك وكأنه يرقب هذا الزوج . ومرت به العربية فغضت جان من باصرتها كي لاتراه الا ان روزالي التي تعرف عنه كل شيء اهابت بانها ان اضربه بسوطك وانت تعبر به . غير ان الشاب ما ان حاذى الكاهن حتى عبر بعربته

المنذفة باقصى سرعتها في منخفض موحل فاثارت رشاشاً كثيفاً من الطين غطى
السكاهن من رأسه الى اخصيه .

واستدارت روزالي وقد استخفها الطرب ملوحة له بقبضتها بينما كان ينظف
نفسه بمنديله العريض وهتفت جان بعد خمس دقائق :- الكلب « ماساكر »
لقد نسيناه .

وكان عليهم ان يتوقفوا وهبط دنيس وعدا ليجلب الكلب بينما امسكت
روزالي بالاعنة .

وعاد الشاب اخيراً يحمل بين ذراعيه الحيوان الضخم المشلول فالتقاء بين
أقدام المرأتين .

الفصل السابع

وتوقفت العربية بعد ساعتين امام بيت من القرميد يقوم وسط حديقة بسقت فيها اشجار الاجاص كأنها المغازل الهائلة على اطراف الطريق .
واذا جال البصر حوله ابصر سهول منطقة (كو) وقد بشت فيها المزارع بين صفوف طويلة من الاشجار الباسقات المثمرة .
وشاءت جان فور وصولها ان تمتكف لتستريح الا ان زوزالي لم تسمح لها خشية ان تعود الى احلامها الحزينة .
وجاء التجارون لاصلاح ما يحتاج الى اصلاح من الاثاث .
وعند ما هبط المساء كان البيت في فوضى عظيمة فالرياش ملقاة هنا وهناك دون اي نظام ولم تلبث جان ان استسلمت للسبات ما ان اضطجعت في سريرها نتيجة لما اقيمت يومها من عناء .
ولم تجد لديها وقتا ، في الايام التالية ، لتستسلم الى احزانها ، لشدة ما كانت منشغلة باعمال الترتيب .
وشعرت بشيء من السرور في تجميل بيتها الجديد وتنسيقه . وكانت املها بحضور ابنها اليه لا يفارقها .
وعنت عناية خاصة بترتيب احدى الغرفتين في الطابق الاول وقد اطلقت عليها بينا وبين نفسها اسم « شقة بول » .
وقد بدا المنزل الصغير لطيفاً بعد ان امتدت اليه يد التنسيق والترتيب وقد رضيت عنه جان في الايام الاول .

وثقلت ذات صباح مبلغ ثلاثة آلاف وستماية فرنكاً لقاء الاثاث المتروك في القصر وقد ابتاعه احد التجار . وسرت سروراً عظيماً بهذا المبلغ وسرعان ما ارتدت قبعتها وشاءت ان تذهب الى غودرفيل بأسرع ما يمكن كيما ترسل المبلغ الى بول . غير انها صادفت روزالي عائدة من السوق في الطريق العام . وشكت الخادم في امرها . ولما اكتشفت الحقيقة ، اذ ان جان لا تعرف كيف تخفي عنها امراً ، ألقت بسلتها جانباً واندفعت في غضبة شعواء .

واخيراً تناولت ذراع جان بيدها البين وحملت سلتها باليسرى وعادت بها الى البيت والغضب يجيش في صدرها . وما ان ضمها البيت حتى اجبرت الخادم سيدتها على تسليمها كل المبلغ بعد ان حاولت اخفاء ستماية فرنكاً الا ان حيلتها لم تنجح .

واقترنت روزالي بعد بضعة ايام بضرورة ارسال شيء الى الشاب . وكتب يشكر بعد ايام .

ولم تعتمد جان على (بانفيل) وقد خيل اليها دون انقطاع انها لا تتنفس بالسهولة التي كانت تفعل بها هناك في (بوبل) والشيء الذي كان يضايقها فقدته اكثر مما عداه هو البحر ، هذا الجار الجبار الذي اقامت في جيرونه خمساً وعشرين سنة ! البحر برائحته المالحة ، وغضبة الجياش ، واصواته المريعة ، وانفاسه الجبارة . . البحر الذي كانت تشاهده كل صباح من نافذتها في القصر . . الذي كانت تتنفسه ليلاً ونهاراً . . الذي كانت تحبه دانياً منها . . البحر الذي كانت تحبه كما تحب شخصاً حياً لا لبس فيه ولا ريب .

وتقدم الشتاء واحست جان بأسماً لا يقهر يغزو قلبها . . ولم تكن آلامها من النوع الحاد الذي يمزق النفس انما كانت كآبة عميقة وتعاسة بعيدة القرار . لم يكن لديها اي ترويح او تسلية . لا احد يأبه بها . والطريق العريضة تمتد امام بيتها يميناً ويساراً خالية معظم الوقت . .

كانت جان تحمل كل ليلة انها ما تزال تسكن القصر . وانها فيه كما في الماضي
مع ابيا وامها وحتى احياناً مع الخالة ليزون .

وهي تقوم بأشياء منسبة ماضية فتصور انها تسند امها في نزهاتها عبر بعض
البستان . . وما ان تستيقظ حتي تنخرط في بكاء مرهم .

كانت تفكر دون انقطاع ببول وتتساءل : - ماذا يعمل ؟ كيف هو الآن
او يفكر في احياناً »

كانت تنتزه في الحقول بينما تدور هذه الفكر في رأسها فتسبب لها آلاماً مبرحة
الا ان ما كان يؤلمها فوق كل شيء هي تلك الغيرة التي تحسها من هذه المرأة التي
سرقته منها وحيدها . ان هذا المقت هو الذي امسك بها فلا تذهب اليه لتأتي به
اليها . فهي تتخيل عشيقته واقفة على الباب تسألها بحفاء : - ما ذا تبتغين يا سيده ؟

فكانت كبرياءها كأم تثور امام هذا التخيل . . . فهي لا ترتضي لكرامتها
ان تداس هي المرأة التي عاشت شبابها انقى من ندى الصباح . . تحمل دائماً احتقاراً
عميقاً لدناءة الرجال الذين يجتذبهم الحب القذر فيتردون في اسفل الدركات . . .
ان البشرية لتبدو في عينيها قدرة شديدة القذارة عند ما تفكر بسلطان الحواس
هذا . . بتلك الملابس التي توظف في النفس والجسم احط الغرائز الحيوانية فينصاع
اليها الرجال انصياعاً مجرداً من الكرامة والاباء والترفع !

ومضى الربيع وانقضى الصيف .

ودهم الحريف الكون بمطاره المتواصلة وسمائه الدكناء وغيومه العريضة
القائمة . . واحس الحياة تسترخي في جسمها المزهوك . . فعزمت على محاولة يائسة
لاسترجاع وحيدها وضحه تحت جناحيها ، وبما لا ريب فيه ان وجد الشاب بخيلته قد
خبت جذوته وبرد سميره .

ووجهت اليه رسالة رجاء واسترحام .

« ولدي الحبيب . جئت ارجوك ان تعود الى . فكر اني هرمة مريضة .

وحيدة طوال السنة مع خادمي . وانا اسكن بيتا صغيراً مطلقاً على الطريق . ان حياتي كئيبة كما نستطيع ان نتصور . فاذا جئت تغير كل شيء بنظري . ليس لي سواك في هذا العالم وانا لم ارك منذ سنوات سبع ! انك لا تستطيع ان تدرك كم كنت تعبسة وكم سيربح قلبي نو كؤي عليك . كنت لي بمثابة الحياة والامل . انك حي الوحيد ... ولم ينعك كل ذلك من هجراني ..

آه . عد الى يا بولي الصغير . عد وعانقي . عد الى قرب امك المعجوز التي تمدا اليك ذراعها بيأس قاتل !
(جان)

واجابها بعد ايام قلائل : دامي العزيزة . ليس احب الى من القدوم اليك لعناقك . الا اني لا املك شروي تغير . ارسلي الي بعض المال وسأتيك . وفضلاً عن ذلك اني اود الهجي اليك لحدثك عن مشروع ينيح لي ان احصل كل ما ترغبينه . ان حب وتعلق المرأة التي صحبتني في ابامي السود الماضية مازال يحيطني ويضفي على حياتي معاني السعادة والجدة .

وليس بمقدوري ان تغاضى طويلاً عن اقامة علاقة رسمية بيني وبين المرأة التي اخلصت الي في اسوء الاوقات والتي تملك فضلاً عن ذلك كل الصفات الممتازة التي مستخبرينها بنفسك . انها ذات ثقافة عالية . وهي دائمة المطالمة . واخيراً ليس بمقدورك ادراك الدور الذي لعبته في حياتي . وانه لمن الظلم بل الوحشية الا كافئها على احسانها الي . اني اطلب اليك السماح لنا بالزواج . وستغفرين لي طيشي الماضي وسنأتي لنسكن سوية في بيتك الجديد .

واني لو اتق من انك ستوافقين على مشروعنا بمجرد معرفتك لهذه الفتاة . اؤكد لك انها كاملة الصفات . عالية التهذيب . وستحبينا دون ريب . اما انما فليس بمقدوري العيش بعبداً عنها ساعة واحدة .

انتظر جوابك بفراغ صبر . ونحن نقبلك يا دامي العزيزة من اهماق قلوبنا .

ولديك

« الفيكونت بول دي لامار »

وذعرت جان . فاقامت لاهراك بها ، والرسالة فوق ركبته ، وقد حدثت تلك الحيلة التي اتبعتها الفتاة للاحتفاظ بولدها الى ما لانهاية له . فهي لم تتوكله يأتي مرة واحدة لرؤية امه منتظرة ساعة معينة . الساعة التي لا تعود تقوي فيها هي المرأة الشبيخة على احتمال فراق وحيدها فتوافق في ضعفها على كل شيء .

ان تفضل هذه المرأة عليها هي امه قد مزق قلبها بألم هائل لا يطاق ورددت :-
انه لا يحبني انه لا يحبني !

ودخلت روزالي فتمتت جان : - انه يبغى الزواج منها الآن .
وانتفضت الخادم : آه ! يا سيدي . انك لا تسمحين بذلك طبعاً . ان السيد بول لن يلتقط هذه القاذورة

واجابت جان محطمة ولكنها ثابتة : - ابدأ . ابدأ يا بني . وبما انه لا يريد المحبي فساداً بنفسه للعودة به وسنرى من منا نحن الاثنان تكون لها الغلبة اخيراً .
و كتبت لبول رأساً انها آتية لتراه ولكن في مكان غير البيت الذي تسكنه تلك البغي .

وبانتظار جوابه اخذت تعد امتعتها .

وقالت روزالي : - ولكن ليس لديك ما ترتدين . وانا لن اسمع لك بالسفر هكذا . انه لأمر مخجل . وستنظر اليك سيدات باريس نظره من الى خادمة .

وتركتها جان تفعل ما تشاء . وذهبت المراتان الى (كودرفيل) فاخترت فمناً ذا مربعات خضراء سلمته الى خياطة القرية . ثم مررت بالكاتب العدل السيد (روسيل) الذي يقوم كل سنة برحلة الى العاصمة تستغرق اسبوعين . وطلبت اليه التعليمات اللازمة ذلك ان جان منذ ثمانية وعشرين عاماً لم تر العاصمة .

واعطاهما كل ما تحتاجانه من تعليمات . وقد اشار عليها بنزول فندق ينزل به هو وباستطاعتها ان تعلم انها قادمة من قبل الكاتب بالعدل .

منذ ست سنوات وهذا القطار الذي يتحدثون عنه في كل مكان يسير بين

باريس والمافر : الا ان جان الفارفة في آلامها لم تكن قدرأت تلك المركبات البخارية التي احدثت ثورة في طول البلاد وعرضها . ولم يكن بول قد اجابها .

وانظرت ثمانية ايام . ثم اسبوعين . فكانت كل يوم تسير على الطريق للقاء الموزع موجهة اليه سؤالها الخالد : - اليس لديك شيء لي ايها الاب (مالاندات) فكان جوابه دائماً : - لا شيء يا سيدتي الطيبة .
انها تلك المرأة ولا ريب التي تمنع بول عن الاجابة .

وعزمت جان على السفر فوراً . وشأت اصطحاب روزالي معها . الا ان الخادم رفضت اجابتها الى طلبها كيلا تضاعف تكاليف السفر . وذات صباح من كانون الاول صعدت في عربة دنيس ليكوك فقوامها الى المحطة .

واستدارتا برأسيهما لدى سماعها صفيراً حاداً آتياً من بعيد . ولحقا آلة سوداء آخذة بالتضخم . ووصلت بضجيج هائل ومرت امامها تجر وراءها سلسلة من البيوت الصغيرة المتحركة وفتح موظف باباً وعانقت جان روزالي باكية وصعدت الى المركبة .

وصرخت روزالي متأثرة : - الى اللقاء يا سيدتي . سفراً سعيداً . الى اللقاء الاقرب .
- الى اللقاء يا بنتي .

وبصفرة ثانية عادت سلسلة العربات الى الحركة ببطء . اول الامر ثم اسرع فاسرع . . واخيراً بسرعة هائلة خاطفة . واستمرت في جلوسها وعيناها عالقتان في الريف والاشجار والحقول والقرى وقد اخافتها هذه السرعة واحست انها اندفعت في مضمار حياة جديدة ، محمولة الى عالم جديد لا يمت الى عالمها بنسب . . عالم شبابها الهادى . وحياتها الرتيبة .

وبلغ القطار باريس مع مبروط الليل .
وسارت الى الفندق تواء . وسألت ملهوفة : - اني قادمة من قبل السيد روسيل .
وسألها صاحبة الفندق وهي امرأة ضخمة جدية السمات جالسة الى مكتبها : -
من هو السيد روسيل ؟
ودهشت جان واجابت : . انه كاتب العدل في كود رفيل وهو ينزل فندقكم
كل سنة .

واعلنت المرأة الضخمة : - ممكن . انا لا اعرفه . او تريدن غرفة ؟
- اجل ياسيدي .
وحمل خادم متاعها وصعد الدرج امامها .
وادركتها غصة . وجلست الى مائدة صغيرة وطلبت شيئاً من الحساء الساخن
فلم تكن حتى تلك الساعة قد طعمت شيئاً .
واكلت بكآبة على نور شمع مفسكره بالف شيء . تذكرت مرورها بهذه
المدينة لذي عودتها من شهر العسل واول اشارة فتحت عينيها على طباع جوليان . الا
انها كانت شابة واثقة به مستسلمة اليه . وهي الآن نحس الهرم يتشمي في كيانها .
انها مرتبكة ، وقد تكون خائفة ، ضعيفة حتى ان اقل شيء يعكر صفوها . ومما
فرغت من طعامها حتى جلست الي نافذتها وراحت تنظر الى الشارع الغاص بالناس
كانت نحس ميلاً الى الخروج دون ان تجرؤ على ذلك . انها ستضل الطريق دون
شك . واضطجعت واطفأت النور .

ولم تنم ليلتها الا فراواً . وما تنفس الفجر حتى ارتدت ثيابها .
انه يسكن شارع (سوفاج) في (السيني) وشامت الذهاب ماشية انصباعاً
منها لتعليمات روزالي الاقتصادية كان الجو جميلاً والهواء البارد يخز الجلد . وسارت
باسرع ما تطيق . وانمطت يميناً ثم شمالاً وبلغت ساحة وكان عليها ان تستفسر
من جديد . وسأت خبازاً فاعطاها معلومات مختلفة . وعادت تنطلق . وضلت

السبيل ، وطوفت في الشوارع طويلاً . . . وذعرت فهي الآن تسير دون وجهه
معينه . وعزمت على دعوة عربة عند ما لحق السين فسارت على محازاته .
ودخلت شارع (سوفاج) بعد ساعة من تطواف حثيث . وتوقفت امام الباب
شديدة التأثر عاجزة عن الانبان بحركة واحدة .

انه هنا . في هذا البيت . بوليه !

واحت ركبتيها ويدبها ترنجف . وأخيراً ولجست . وسارت في ممشى .
ورأت غرفة البواب وسأت وهي تقدم قطعة نقود له : - تستطيع ان تصمد فتقول
لبول لامار ان سيدة عجوراً ، صديقة لأمه ، تنتظره في الاسفل .

واجاب البواب : - انه لا يسكن هنا يا سيدتي .

ونمت فيها راحة عنيفة . ونمت : - آه ! ابن . . . يسكن الآن ؟

لست ادري .

واحت بنفسها زائفة المينين توشك على السقوط وظلت وقتاً ما عاجزة عن
الكلام . واخيراً ، وبجهد عنيف ، استعادت ادراكها ونغممت : - منذ متى ذهب ؟
واستغاض الرجل في شرعه : - منذ اسبوعين . لقد ذهباً بغنة ذات مساء ولم
يعودا . انها مدينان في كل مكان بهذا الحى . وتذكر كين من هذا انها لم يتركها
عندونها .

ورأت جان كأن شرارات من نار تلتصع امام عينها كما لو كانت طلقات من
نار قد دوت في اتجاهها الا ان فكرة ثابتة لمسكتها . فهي تريد ان تعرف كيف
تجد بول .

- اذاً انها لم يقول شيئاً عند ما ذهب !

- آه . لا شيء . مطلقاً لقد فرأ فراراً كيلا يدفعا ما عليها من ديون

- ولكن الا يرسلان احداً لياخذ رسائلها ؟

- كنت اغلب الاحيان اسلمها لها . ومن ثم غلبها لا يستلمان اكثر من عشر

رسائل في السنة - وقد اعطينها واحدة قبل ذهابها بيومين .

انما رسالتها ولا شك . وقالت بغتة : - اصغ الي . انا امه . وقد حثت لاجت
عنه . هذه عشر فزنكات لك . فذا كلن لديك خبر او معلومات عنها احملها الي الى
فندق نور مندي بشارع المافر وسأ كافئك بمبلغ رجيح .
واجاب : - اعتمدي علي يا سيدتي .

وانطلقت . وسارت دون ان تعنى بالوجهة التي اليها تسير وكانت تسرع
كانها في سباق هام . كانت تسير على محاذة الجدران فتصدم السابلة وتعبر بالشوارع
دون ان تأبه بالعربات فيشتتها الخوذيون وكانت تتعثر بدرجات الارصفة دون ان
تنقب اليها .

انها تعدو الى الامام مضغمة الحواس .
ووجدت نفسها بغتة في احدي الحداثي . وكان التعب قد هدد ركنها
فاقنعت مقعداً وجدته امامها . واستمرت في جلوسها وقتاً لا تدري اطال بها ام
قصر . كانت تبكي بدون دموع . وشعرت اخيراً ان برذاً ينفذ الى عظامها فنهضت
لتمضي لطبتها . وكانت ساقها لا تكاد ان تحملها لشدة ما كانت مسحوقة محطمة
النفس والجسد .

واحست جوعاً نفاراً فشات دخول احد المطاعم لتصب شياً من حساء .
غير انها لم تدخل . واخيراً وقد عانقها الجوع بانياه الحداد لم تجد مناصاً عن دخول
احد المخابز وشراء رغيف هلامي الشكل راحت تقضه وهي تسير . واحست
عطشاً محرقاً . ولم تدر من اين تستقي فصرفت النظر عن ذلك .

وبلغت حديقة ثانية . وكان السير والشمس قد بعثا في جسدتها دفئاً . فجلست
ساعة او ساعتين

ورأت جمعاً من المتأنقين بين رجال ونساء يدخل الحديقة . وخيل اليها ان
ولدها لا بد داخل بين هؤلاء الناس . وعبثاً تهرست في الوجوه . ونهضت اخيراً
لتمضي فكانت لا تخرؤ على طلب افصاح الطريق لما فتصطدم بالسابلة . وانتهى بها
الامر فعثرت على فندقها .

وامضت ما تبقى من يومها فوق كرسي نحت افدام سريرها . وتعشت كشأنها بالامس ونامت اخيراً . وكانت تقوم بهذه الالمال آلياً وبقوة العادة والاستمرار . وفي صباح اليوم التالي قصدت مديرية الشرطة فطلبت اليهم ان يبحثوا لها عن ولدها . وعيناً فعلوا .

واستمرت بعد ذلك تطوف في الشوارع يجدوها دائماً الامل بالالتقاء به على غير ميعاد .

وعند ما عادت في المساء الى الفندق قيل لها ان رجلاً سأل عنها وهو آت من قبل السيد بول . وانه سيعود غداً اليوم التالي . وشعرت بموجة من الهمماء تغزو قلبها ولم يغمض لها جفن طوال الليل . اتراه هو ؟ اجل انه هو ولا ريب بالرغم من انها لم تعرفه من الاوصاف التي اعطيت لها .

وحوالي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي فرع بابها . وفتفت : - ادخل . وتقدم منها رجل غريب وبعد ان اعتذر لازعاجها اخبرها ان له في ذمة ولدها بول ديناً وقد جاء ليقاضاه . وشعرت بحاجتها الى البكاء بدمع غدير ، وكان بواب شارع (سوفاج) قد اعلمه بقدوم امه فتوجه اليها . وناولها ورقة ودون ان تنظر اليها قرأت الرقم (٩٠) فرنكاً . وتناولت حافظة نقودها وناولت المبلغ للرجل . ولم تخرج يومها ذاك .

وجاءها في اليوم التالي دائنون آخرون . ودفعت كل ما كان معها من نقود وابتقت لنفسها عشرين فرنكاً فقط . وكتبت الى روزالي تشرح لها ما آلت اليه امورها .

وامضت اياماً اخرى في التطواف دون وجهة معينة او هدف مرسوم . وبما ارهقها ان ليس لديها من تشكو اليه همما المقيم . وادركتها رغبة في الانصراف وفي العودة الى هناك . . الى بيتها حيث تمكنت جذور عاداتها الكثيرة من الارض . وذات مساء وجدت رسالة انطوت على مئين من الفرنكات جاء فيها

« سيدتي جان . عودي سريعاً لأنني لن ارسل لك بعد الآن قرشاً . اما السيد
بول فانا التي ستذهب للعودة به عند ما نتلقى خبراً عنه . . احبيك .
« خادمته : روزالي . .
ورجعت جان الى بانفيل ذات صباح قارس البرد والثلج يتساقط



الفصل الثامن

أقامت جان في بيتها لانبرحه وقبلما تتحرك او تخرج . كانت تستفيق كل صباح في ساعة معينة فتتطلع الى الجو عبر زجاج نافذتها ثم تنزل الى الردهة فتجلس بالقرب من الموقد .

وكثيراً ما كانت تمضي اياماً بطولها، عيناها والقنان بالهيب المتراقص واعضاؤها في سكون واسترخاء تاركه لافكارها المقبضة العنان على غاربه ، متابعه تسلسل ذكرياتها الحزينة المؤلمة .. ثم يحبط الظلام فيجلبب القاعة ويبدأ رويداً رويداً دون ان تختلج في جان جراحة أو تبدر منها حركة ما خلا القأؤها بعض الحطب الى النار اذا ما أوشكت تنخبو . وتدخل روزالي فتجدها على مثل هذه الحال فيهب بها : - هيا ياسيدة جان ينبغي لك ان تتحركي قليلاً كيما تشعري جوعاً هذا المساء ! ..

كانت أفكار ثابتة ملحة تلاحقها اغلب الاحيان ، افكار تفرق قواها العاقلة بمعنة في تعذيبها مر العذاب ، وغدت اتفه الاشياء تبعث فيها انقباضاً وتورثها غصة . انها تحببي معظم وقتها في الماضي ، الماضي المعن في القدم . فتلازمها ذكرى حياتها الاولى ورحلة عرسها الى هنالك .. الى كورسيكا ملازمة الظل . فكانت مناظر تلك الجزيرة ، وقد ااحت من ذاكرتها منذ أمد بعيد ، تعاودها تباعاً فتراها مرسية في صدر الموقد ، في اطار وهاج من السنة الذهب المتطاولة ..

ثم تصل في تتبع شريط حياتها الى سنوات طفولة يول الحلوة عندما كان يزرع لها البقول في الحديقة جانباً فوق الارض الكثيفة والقرب منه الحلة المسكينة ليزون ترعاه بعينها وقلها !

وندت عن صدرها المقروح نهدة كاوية : - بوليه ! يا صغيري بوليه ! قالتها
كما لو كان يصفي الى تدليلها هذا . . . ويتجسد اسم طفلها الحبيب فتخال احرف ذلك
الاسم منقوشة في فراغ الغرفة فتعلق انظارها باحب اسم الى قلبها في الوجود .
لقد سيطر عليها كل هوس الانطوائيين في وحدة صارمة . فكانت انفه الاشياء
توفر اعصابها وتحرك عواطفها .

اما روزالي فكثيراً ما كانت تقسرها على السير فتقودها الى الطريق فمانلت
بعد عشر دقائق ان تتذمر وتعجز عن متابعة المشي فتجلس على حافة الطريق .
وكثيراً ما ابدت نفوراً من كل حركة فتسكت يومها في سريرها .

ولم يبق لها من عادات شبابها سوى واحدة تلازمها فلا تطيق لها تبديلاً الا
وهي نهوضها فجأة من سريرها بعد تناول القهوة في الصباح .

الا انها في المدة الاخيرة بدأت ، شيئاً فشيئاً ، تعناد المكوث حاملة لحظات
بعد ارتشاف كأس القهوة واعادته الى مكانه من منصدة الليل ثم تعود فتتمدد في
فراشها . . . وازدادت فترة هذا الاسترخاء يوماً اتر يوم . . . فكانت روزالي تلج
غرفتها غضبي فتلبسها ثيابها بالقوة تقريباً .

كانت كل افعالها خالية من المظاهر الارادية . فاذا استمزجت وصيفتها رأبها
حول قضية ما كان جواها الخالد :
- افعلني ما يحلو لك يا بنبتي .

كانت تؤمن ايماناً وطيداً انها ملاحقة بقضاء وقدر لا يرحمان حق انما . اغدت
« قدرية » كالشرفيين . وقد اعتادت ان ترى احلامها دائماً تسير الى الانهيار وآمالها
تمشي الى الاضمحلال بشكل لم تعد تجرؤ معه على التعلل بامنية او الاستسلام الى حلم
بل غدت تتورع عن القيام بانفه الاعمال ثقة منها ان الامور لن نعم ان تنقلب الى
عكس ما تنهبي وتنسى .

كانت تودد في كل مناسبة : « انا التي لم تعرف بحالفة الحظ المسعد طوال حياتها ،
فتصرخ روزالي : - ماذا كنت نقولين اذاً لو اضطورت الى كسب لقمتك

بنفسك ، لو كنت مرغمة على النهوض الساعة السادسة أنتطلقى الى العمل سحابة
يومك ؟ ثمة كثيرات مجبرات على مثل هذا . فاذا مابلغن من العمر عتياً متن من
الفاقة والعوز والبأساء !

فتجيب جان : - فكري فيما انا فيه من وحدة .. ولدي وجبـدي ..
بوليه .. هجري ..

فتندفع روزالي في غصبة كاسحة : - ياها من قضية ! حسناً ! ثمة اولاد في
خدمة العلم ! ومنهم من هجر الى العالم الجديد ! لا بد من وقت يأتي فيفرق بين المرء
واحبابه . ان الشبان والشيوخ لم يخلقوا ليعيشوا متلازمين ابد الدهر !

ثم تخلص الى القول بلهجة صارمة : - حسناً مارأيك لو انه .. مات ؟!
وتلزم جان الصمت لا تلتفت .

وعاودها شيء من نشاط عندما بدأ الهواء يلطف عند دنو الربيع الا ان
مغريات الطبيعة وتبرجها الفتان لم تكن الا لتزيدها في أفكارها القائمة استغراقاً وعلى
ذكرياتها الماضيات غوصاً وتنقيباً ...

صعدت جان يوماً الى بيت المؤونة لاحضار حاجة عارضة فعثرت في احد
الصناديق المهمة على عدد من التقاويم القديمة فجمدت في مكانها كأنها عادت بالسنين
القهرى ... كأنها استمادت في لحظة كل ايام شبابها الخوالي .. فأقامت فترة
طويلة جامدة امام هذه القطع المربعة من الورق المقوى الحاملة اسماء السنين الخوالي
والتي اعناد أهل الريف الاحتفاظ بها أمداً طويلاً .

وحملت التقاويم الى غرفتها وشرعت ترتبها حسب السنين ووجدت ، بغتة ،
اول واحد منها . ذاك الذي حملته معها الى بوبل .. تأملته طويلاً ... كانت
اشارات القلم ماتزال واضحة فوق الايام التي تلت خروجها من مدرسة الدير واقامتها
في القصر . وبكت . وبكت بدموع غدار سخينة وثيدة . دموع عجوز امام حباتها
الصاخبة المكرومة امامها فوق منضدة !

ونبتت في رأسها فكرة واضحة ثابتة مسيطرة قوية : سترجع تلك الايام يوماً
فيوماً فتتذكر كل ما فعلته في كل واحد منها .

ونهضت الى الجدار فعلقت فوق الطنافس هذه الاوراق المصفرة فكانت تمضي
الساعات الطوال امام الواحدة والاخرى متسائلة :
— ماذا حدث لي هذا اليوم او ذاك ؟

وأشارت الى الايام التذكارية الفاصلة من حياتها بخطوط . وتوصلت ، بقوة
ارادتها واجهاد مخيلتها الى استعادة حوادث ايام السنتين الاوليتين من حياتها في
بوجل يوماً فيوماً فكانت الذكريات تنقاد اليها بسهولة منقطعة النظير ووضوح
بارز المعالم .

اما السنوات التالية فقد اختلط عليها امرها فبدت في عينها متداخلة مغلقة
بضباب الماضي الكثيف وكثيراً ما تلثت مخنية الرأس وقتاً طويلاً فوق احد التقاويم
وقد علقت كل قواها العقلية في الماضي فلا تتوصل الى تحديد ما اذا كانت تلك
الحادثة او هذه وقعت في تلك الفترة او هذه .

واحس نشاطاً عظيماً عندما تحرك النسغ في عروق الشجر تحت وهج الشمس
وبدأت المزروعات تنبت في الحقول والاغصان تكتسي حلتها الخضراء الرطبية
واشجار التفاح في الحديقة تتجلبب بثوبها الوردى الفواح الاربيع يعطر الهواء
وينعش الجو .

انها عين الانتفاضة التي اعترتها يوم كانت شابة ترقب المستقبل مطمئنة الى
تحقيق آمالها الزاهرة بازدهار ارض الحقول .

كانت لا تستقر في مكان ولا تسكن على حال فلا ترى الا غادية ذاهبة تطوف
في الحقول فتتوغل بعيداً . . بعيداً منتشية بنفح الربيع المغناج .

لقد حل الربيع الى قلبها للسرور الا انها كانت لا تفقأ تتألم مرير الالم من
ذكرياتها فكان هذا الزهو الخالد في الطبيعة المستبقطة وهو يلامس بشرتها الجافة

ويدخل دماغها المتعبدة لايحمل اليها الا ألماً وسوداوية نغارة .
وخيل اليها ان اشياء عديدة قد تغيرت من حولها . فالشمس أقل حرارة بما
كانت عليه في صباها ، والسما اكثر شعوباً والاعشاب حائلة الخضرة والازاهير
أميل الى الاصفرار واضعف نشرآ . كل شي لايبعث النشوة في الانفس كما كان
يفعل . الا انها لم تعدم ، من حين لآخر ، شعوراً بشي من الراحة والسعادة فالمرء
لايستطيع ، عندما يكون الجو صافياً ، الا ان يحلم ويتأمل ويشرد ..
لماذا لم تكن محبوبة كسواها من النساء ؟ لماذا لم تنعم على الاقل بعيش
هادي راض ؟

ربما غاب عن فكرها احياناً انها عجوز هرمة ليس لها ان تحلم بشي او تنفي
امراً .. فكانت ترم الخطط المحببة وتهم مع امان مذهبة الحواشي عباقرة الاربيع
شأنها يوم كانت في السادسة عشرة بيد ان الحقيقة المرة ما كانت تمهلها طويلا فتساورها
وتنمخ بكلمتها عليها بضرارة وقسوة ... فتنهض مخنية الظهر كأن ثقلاً رجيحاً
يمهظ كاهليها وجدأركانها وتعود الى السير الوئيد في الطريق المفضية الى مسكنها متممة :
- يالي من عجوز حمقاء ! يالي من عجوز بلهاء !

أما روزالي فكانت تردد لها دائماً : - احتفظي بهدوءك ياسيدي لست افهم
ما الذي بدفعتك الى كل هذه الحركة !

وعادت الى مسكنها ، مساء ذات يوم ، بعد نزوة في الحقول فلمحت تحت الباب
شيئاً ابيض . انها رسالة القى بها الموزع اثناء غيابها . وادركنا فوراً انها من بول .
وفضت جان الرسالة والتأثر يرفجف كل اطرافها . كان يقول فيها : ه امي العزيزة .
لم اكتب اليك قبل الان كيلا ادفعك الى القيام برحلة لاجدوى منها الى باويس
وكنت اتوق ابدآ الى السير اليك لرؤيتك . اني في هذه الساعة رازح تحت ثقل
شقاء باهظ . ان زوجتي في نزوعها الاخير بعد ان وضعت الى النور طفلة منذ ثلاثة
ايام . انا لأمملك فلساً . لست ادري ما أنا فاعله هذه الطفلة التي تعهدتها البوابة
تغذيها بالمصاصة وكم اخشى ان افقدها هي الاخرى . الا تستطيعين تعيدها ؟ لست

ادري ما افعل وليس لدي المال لأخذ له مريضاً . انتظر جواربك بعودة البريدي .
ولذلك الحب - بول .
وانحطت جان فوق مقعد تكاك تفقد الوعي . وغرقت وروزالي في صمت
ميتق مطبق .
وتكلمت روزالي اخيراً : - سأذهب بنفسني فأعود بالطفلة ياسيدي . لن
نتخلى عنها .

واجابت جان كأنها تخاطب نفسها : - لك ذلك يايفتي .
وصمتت .. وعادت الحادمة بعد فتوة تقول : - ضعي قبعتك ياسيدي .
سأذهب الى كودرفيل لاستشارة الكتّاب العدل اعتقد انه ينبغي عقد قران بول
والآنم قبل ان تقضي ... من اجل الصغيرة على الأقل ..
وصدعت جان بالامر لانتبث ، لقد غمر فؤادها سرور عميق طاغ ... مرور
عنيف شامت كتمان امره باي ثمن ... ان عشيقه ابنها ، المرأة التي سرفت وحيدها
تلفظ النفس الاخيرة ! ..

واعطى الكتّاب العدل المعلومات اللازمة فاستعادتم روزالي مرآة كي لا تنسى
منها حرفاً . قالت : - لا تخشى ياسيدي شيئاً فسأهتم بذلك جهدي طاقتي .
وسافرت ذلك الليل الى باريس .

امضت جان يومين في اصطغاب من الافكار تركها اعجز من ان نحصر في
شيء افكارها . وفي الصباح الثالث نلت من روزالي كلمة مقتضبة تعلن عن عودتها
في قطار المساء . ولا شيء سوى ذلك .

واستحضرت عربة احد الجيواط وسارت ، حول الثالثة ، الى المحطة في «بورفيل»
للقاء وصيفتها .

واقامت واقفة فوق الرصيف وعيناها عالقتان بالخط الحديدي الغائب في
الافق البعيد . وكانت ، من وقت لآخر ، تنو الى الساعة : عشر دقائق . خمس .
ها قد ازف الوقت . لم يظهر شيء في الافق ! ولحت بغتة بقعة بيضاء . دخان ! ثم

نقطة سوداء آخذة بال تضخم ، منطقة باقصى سرعتها . القطار ! وخفت الآلة الضخمة
اللاهثة . من سرعتها أخيراً ثم توقفت والابخرة تفتح من كل جزء منها وفتحت منها
أبواب . كانت عينا جان معلقين بالنواوذ مستطلعة بتشوق ونهم . وهبط الركاب
فكانت تنغرس في وجوههم بنفاد صبر ..

ولحت روزالي أخيراً .. كانت تحمل فوق ذراعيها لفائف من قماش ...
وهمت بالاسراع الى لفائفها الا انها خشيت ان تتخاذل بها ساقاها فتسقط . ورأتها
روزالي بدورها فمشت اليها بطلعتها الهادئة المعتادة :

— مساء الخير ياسيدي .. هاقد عدت .. ولكن بعد عناء ونصب ...

سألت جان مضغعة الحواس : — حسناً ؟

وجاءها جواب روزالي كأنه من عالم سحيق : — حسناً .. لقد تزوجا ...

ثم مانت هذه اللبقة .. وهامى الصغيرة .

وقدمت اليها الطفلة الفارقة في اللفائف .

وتلقتهما جان بمرحة آلية وخرجتا من المحطة ثم صعدتا الى المركبة ...

وعادت روزالي تقول : — سيصل السيد بول فور فراغه من الدفن . سيكون

هنا غداً في مثل هذه الساعة ، دون ريب .

وتتمت جان : — بول ...

ولم ترد .

وهبطت الشمس نحو الافق الانور تذرذر على السهل المخضوضر فيضاً من

زورها الثاني . وبدت فوق قوس الافق غمام بيض بموهة بلون النجميع كأنها تنف

من ريش بجعة مزقتها النصور .. وطافت بالارض سكبنة هادئة وسلام عظيم ...

كانت العربة مندفعة باقصى مانطيق والفلاح السائق يلهب ظهر الجوادين

بسوطه للطويل ...

وجدت انظار جان على لاشيء في الفضاء .. واحست حرارة تتسرب الى

جسدها فتعرك مابرد من دمائها وما ركذ... انها حرارة الكائن الصغير
الذي تختصن !

ورنت الى اللقائف فرأت وجه الصغيرة ولم تكن قد رآته قبلاً وفتحت الطفلة
عينها الصغيرتين الزرقاوين لدى سقوط النور فوق مجاها الغض .. وحركت
فمها الطري ...

وضمتها جان وراحت تقبلها بنهم جنوني ... فكانت ترفعها وتمشطها وهي
تكسوها قبلاً حانية حرى ...

واوقفتها روزالي :- على رسلك ياسيدة جان فقد تبكيتها .
ثم اخافت وكأنها ترد على سؤال طرحته هي على نفسها :
- الحباة ، كما ترين ، ليست مرارة كلها ، ولا حلوة كلها ، كما يخيل للمرء ...



داز اليفظ العربى للنأليف والترجمة والنشر

تقدم

الكاتب البولوني

ك.و.نستانان فيرجيل جيورجيو

الاسم الخامسة والعشرون

قصة الفرد إذا جرد من قبحه وغدا رقماً في إحصاء جماعي ، والجماعة التي
هضرت في بوققتها الافراد وتحولت الى كتلة ذات حضارة آلية

قصة إباحة الرق في عصر تحريم الرقيق ، واستعباد الشعبين الغالب والمغلوب
في برولينارية إنسانية يسوسها مجتمع آلي ...

قصة الحضارة التي ابتدعها الغرب وتبناها الشرق
فاصبحت وبالأعلى عليها معاً

دار اليقظة العربية للطباعة والنشر

أقدم شاعر الحب والجمال وسيد المدرسة الوجدانية

لامرئيين

في قصته المبدعة

سقوط مالِك

يقع الكتاب في زهاء ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير
وعلى ورق أبيض عاتق

من
سلسلة عبون الأدب العالمي

دار اليفظ العربى للنألف والترجمة والنشر بؤرسة

قدم

الكولونيل لورنس

فى كئابه

اعمدة الحكمة السبعة

بئنأول البعث ثورة العرب ضد الاتراك وفكن
الانكلز من السيطرة على البلاد العربية بعد
أن استحصلوا على أصدقاء لهم أقوياء
وأعداء أقوياء

يقع الكتاب فى زهاء الف وخمسةائة صفحة من القطع
الكبير وعلى ورق أبيض صقيل

فى

سلسلة عبون التاريخ العالمى

٤

دار اليفظ العربى للنألف والترجمة والنشر بؤرىة

نقدم
الى العالم العربى

مذكرات

فببى فى الجزيرة العربىة

وهى الحلقة الثانية التى بدأ فىها الكولونىل لورنس

فى الجزيرة العربىة

ىقع الكتاب فى زهاء الخمائة صفحة من القطع

الكبرى وعلى ورق ابىض صقيل

بُقْلْمُ

ش . ث . ل و ش ن

فببى

فى

سلسلة عىون القارىخ العالمى

دار البقعة العربية
للطباعة والنشر

تقدم

الجنرال اينزنهاور

في كتابه
حرب صليبية في أوروبا

من أمرار الحرب العالمية الثانية

في

سلسلة عبون التاريخ العالمي

٧

الحلو، إبراهيم
حياة صاخبة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032117



